التحرير وطن

ضرغام علاوي

رواية

التحرير وطن

ضرغام علاوي

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر
بغداد • بارك السعدون • خلف نادي الجيش الرياضي
Email: elafroad@gmail.com
TEL: 07901 675 464

الكتاب: التحرير وطن – رواية
المؤلف: ضرغام علاوي
الطبعة الاولى: 2020م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه
إلا بإذن خاص ومسبق من المؤلف والناشر

All rights are reserved to author. No part of this publication may be reproduced or transmitted without permission in writing from the author and the publisher.

"غلاف" للتصميم والإخراج الفني

إهداء إلى

من حول الموت لحياة
شباب أختار أن يموت شهيدا
بدل أن يحيا عبدا خانعا للفاسدين
شباب أختار من ساحة التحرير مكانا ليعلن منها

(ساعة التحرير)

كمتعة طفل... يجرب المشي لأول مرة

ارتمى خالد بجسده المشبع لذة والمرهق تعبا والمتصبب عرقا كغيمة كريمة لا تعرف البخل في رشق الأرض بمطرها على جانب السرير وهو يسحب أنفاسه بقوة، محاولا استيعاب ما يجري له من حدث جلل لم يعرفه في حياته إلا في خيالاته الذكورية الحالمة.

أما ماري فقد اشعلت سيجارة وراحت تسحب نفسا عميقا وتطلقه في الهواء واغمضت عينيها من شدة المتعة التي عاشتها معه فلعذرية هذا الشاب ورومنسيته فعل السحر عليها، إذ كل من مارست معهم من قبل كان جنسا فقط، أما هذا الرجل فقد لمست فيه شيء لم تعرفه من قبل يستحق أن تعرفه.

سألها بلغة انكليزية تحمل اللكنة العربية وبالذات الشرق أوسطية لشخص رغم اتقانه لها إلا أن قلة استخدامها جعله يستجدي المفردات من قاموس ذاكرته مع حجم ما عاش من المتعة والتعب اللذين أفقداه الكثير من تركيزه:

شكرا لأنك منحتني كل هذه النشوة.

ماري وهي مغمضة وتدفع دخان سيجارتها بهدوء وبلهجة انكليزية لمواطنة بلجيكية الأصل رغم طوال تواجدها في أمريكا إلا أن جرها للحروف واضح بسبب تأثرها باللغة الفرنسية:

اكتشفت الآن الفرق بين أن يمارس بنو الانسان الجنس وبين أن يمارسوا الحب، فشتان بين أن تكون تلك الحالة حيوانية بحتة، وبين

أن تكون رغبة إنسانية مقدسة، فالأرواح هي من تتعانق وتلتحم لا الأجساد.

راح خالد ينظر باستقامة اتجاه الحائط المقابل له والذي لا يبعد عن سريره سوى متر واحد فقط إذ أن أبعاد غرفته ثلاثة أمتار عرض بأربعة أمتار أخرى هو طولها مع حمام صغير، تحتوي على سريرين تم تخصيصها له ولصاحبه جلال من قبل المسؤولين في دائرة اللجوء لولاية مشكن بعد أن تم منحهما إقامة لمدة أربع سنوات على الاراضي الأمريكية، لخصوصية ما جعلتهما يتمتعان بتلك الميزة التي يحلم بها الكثيرين لنيل الاقامة في أرض الأحلام.

قال بعد صمت ليس بالقصير :

أما أنا فلا أعرف الفرق بين الاثنين.

أبعدت السيجارة من بين شفتيها فجأة والتفتت إليه وقالت بشيء من الدهشة:

ألم أكن ممتعة بالنسبة لك؟

دون أن يحرك رأسه أو أن يحول نظره عن ذلك الجدار وكأنه كان يقرأ شيئا مكتوبا عليه رد عليها:

بالعكس ... كنتِ في غاية المتعة لكن أنا من لم يجرب ما مارسناه الآن طوال حياتي وأنت أول امرأة حقيقية تتلمسها أصابع نشوتي.

اطفأت سيجارتها بسرعة وقوة في سطح الدولاب الصغير الموجود قرب رأس السرير بعدما بحثت عن منفضة للسجائر تطفئها فيها لكنها لم تجد واحدة إذ لا تحتوي الغرفة على منفضة للسجائر، فلا هو أو صديقه يمارسان التدخين ووضعت وجهها بجانب وجهه من الجهة

اليسرى له وقالت بدهشة:

كم عمرك؟

أجابها:

خمسة واربعين عاما في حساب البشر واربعمائة وعشرون عاما بحساب القهر والظلم والحرمان.

ماري:

قاربت على الخامسة والاربعين ولم تمارس الجنس؟ لا تصبني بالجنون يا هذا.

ما زال ناصبا وجهه باتجاه ذلك الحائط الذي يحمل ورق جدران بلون اخضر غامق جدا يميل للسواد وكأنه يشاهد شيئا مهما راحت ذاكرته العريضة تعرضه عليه:

أخبرتك الحقيقة.

اضطرت ماري أن تدير وجهه باتجاهها كي تشاهد عيناه حتى تتبين صدق مقاله فوجدت أن دمعا صار ينزل منهما وكأنه القسم المقدس الذي أطلقه قبل أن تطلب منه ذلك ليثبت صدقه وليس كمثل غيره من الذكور في زمن عاد فيه الصدق شيئا من السذاجة والنقاء ضربا من الغباء.

مدت يدها تمسح تلك الدمعة من الاستمرار من التزحلق على وجهه وأخذتها كي تتلمسها بين أصابعها وكأنها تريد التأكد أن هذا الدمع حقيقي، فهي تعرف جيدا أن الرجل الشرقي لا يبكي بسهولة لأنه يعتبر البكاء ضعفا يمس رجولته.

مدت يدها وجذبته برفق من تحت رأسه حتى أستقر وجهه على

صدرها العاري تماما واحتضنته بقوة في لحظة صمت تألقت فيها العواطف الإنسانية وأعلنت الصمت حارسا لها دون أن تسمح لأي لسان أن يفسد ما حصل.

أنا لاجئ في معسكر عينيك ... فترفقي

فتح خالد عينيه ليجد ماري بجسدها الممتلئ قليلا وصدرها الناهد وشعرها الأشقر الطويل قد بدأت بارتداء ملابسها، ولما قاربت على الانتهاء حيث كانت ترتدي بنطلون جينز وبلوزة بيضاء وحملت حقيبتها وسترتها الطويلة السوداء على يدها

قال لها:

صباح الخير.

اقتربت منه بسرعة وانحنت عليه وقبلته قبلة حارة جدا وهو لا يتحرك فقد كان النعاس ما يزال مسيطرا عليه فقال لها:

لما أنت مبكرة في الذهاب؟

ردت عليه وقد تحول وجهها للجدية:

لست مثلك لاجئة مدللة اقتات على المساعدات، أنا اضطر للعمل حتى أبقى على قيد الحياة.

شعر خالد بالخجل من كلامها الجارح له، أما هي فسألته:

هل سيكون صاحبك الليلة هنا؟

رد عليها بتثاقل:

لا... فقد سافر لبيت أخته في ولاية كاليفورنيا وسيعود في نهاية الأسبوع.

ماري وقبل أن تغلق الباب:

أذن سأكون عندك مساءا وسأجلب معي العشاء وقنينة شراب

احتفالا بك.

حاول أخبارها أن لا تتكبد عناء دفع ثمن قنينة الشراب فهو لم يشرب الخمر في حياته ابدا ولا ينوي ذلك مستقبلا، لكن الأوان قد فات حيث كان لثقل نعاسه واستعجالها القول الفصل، إذ أغلقت الباب وخرجت مسرعة.

استدار بجسده عكس الباب وراح يغط في نوم عميق إذ تعود منذ وصوله إلى الولايات المتحدة أن ينام صباحا ويبقى مستيقظا حتى الفجر فهذا حال أفواج العاطلين في بلاد الغربة تحت مسمى (لجوء).

حتى ثوبها الأسود كان له طعم آخر،
ففي العراق كل الألوان تؤدي إلى الحزن،
وهنا حتى الأسود يؤدي إلى الفرح والرغبة.

طُرقت الباب أكثر من مرة ففتح عينيه بصعوبة تحت هول سقوط تلك الطرقات على مسمعه وراح يسحب نفسه من الفراش كروح تستل من جسد ترفض الانصياع لأمر بارئها، حتى وصل إلى الباب وفتحه، فاندفعت ماري كالسيل العارم وهي تزمجر وتعربد بالكثير من الكلام واتجهت إلى الطاولة الصغيرة الوحيدة في الغرفة وصارت تضع عليها الاكياس ومن ثم استعانت بأريكة صغيرة كي تعين تلك الطاولة المسكينة على حمل ما وضعته عليها من أشياء.

بينما أتجه هو إلى الحمام حيث بدأ يرمي الماء على وجهه بقوة كي يستعيد شيئا من وعيه فهو لا يصدق أن هذه الجميلة تزوره لليوم الثاني حتى أنه لازال يعتقد أنه في حلم جميل، لكنه استذكر مع نفسه:

لم أعش حلما جميلا قبل اليوم فقط كانت الكوابيس تدور برأسي كل يوم كرأس لعن بالخوف طول عمره، أو كأن حكما بالحزن المزمن كتب عليه في الحلم أو الواقع.

دخلت الحمام ودفعته بقوة مخرجةً إياه وأغلقت الباب بعده فاتجه هو إلى الأكياس يتفحص محتوياتها فلفت نظره زجاجة من الخمر يبدو عليه من النوع الفاخر، طبعا توقع ذلك من شكل الزجاجة إذ لا يعرف أي نوع من أنواع الخمور ولم يذقها طوال عمره.

عاد إلى السرير بنصف جسد أما ظهره فقد اتكأ على رأس ذلك السرير ووضع كلتا يديه خلف رأسه وراح ينتظر هذه الحورية التي نزلت عليه من السماء، وما هي إلا دقائق حتى خرجت عليه بعد الحمام ترتدي ثوب سهرة أسود مكشوف إلا من حمالتين وفتحة تجاوزت الصدر حتى قاربت ما فوق سرتها، حتى ظهر جل نهديها المشعان بياضا بينما ارتفع فوق ركبتيها بالعشر سنتيمترات، وقالت له:

قم تأنق أيها الغبي كي تكون رجلا نبيلا يليق بالسهر مع سيدة بمثل هذه الإثارة.

رد عليها بخبث:

ولما أرتدي ملابس سهرة ما دامت ليلتنا ستنتهي دونها؟، أليس في ذلك ضياع للوقت؟ وما نعرفه عنكم أهل الغرب اهتمامكم الشديد بالوقت حتى أن أجور العمل عندكم صارت بالساعة.

غمزته ماري بعينها الزرقاء الواسعة وكأنها ترد عليه الصاع صاعين:

ولأننا نحترم الوقت نعش كل لحظة منه بما تستحق، ولأن وقت عملي انتهى قبل نصف ساعة حان الآن وقت المتعة، وها أنا أترك كل ما علق بجسدي من تعب العمل ينزل مع قطرات الماء النازلة من الدش البائس الذي في حمامك البائس كي استعيد أنوثتي، فلا تتحاذق عليّ ولا تتلف رغبتي بسهرة بمستوى راق أيها الكسول.

نهض من مكانه وهو يريد أن يستبدل (الفانيلا) فتوجهت إليه وقالت بحزم:

لا تستبدل ملابسك هنا أمامي بل أفعل كما فعلتُ أنا وأدخل الحمام

وبعدها أبهرني، فالأنثى تحب رجلا يمنحها الدهشة.

تململ وقال لها أنتِ تبالغين بعيش الدور أرجوك خففي من طلباتك.

صكت على أسنانها غاضبة وسحبته من قرب السرير ودفعته باتجاه الحمام وأدخلته فيه وأغلقت الباب عليه وهي تلعن وتشتم قلة ذوقه.

بعد دقائق خرج ليجدها تعد الطاولة الصغيرة وقد تحولت ملونة بشمعة وكأسين مع صحنين وشوكتين وسكينين وضع الجميع على شرشف أبيض كما وضعت تحت الصحنين شرشفين أبيضين صغيرين،

اشارت له... (قرب معي الأريكة كي نجعلها والسرير مقعدين لنا).

بعد قائق ودون أرادة منه صار يتصرف بأتكيت حيث اندمج معها بحالة الرومانسية التي خلقتها تلك المرأة فقد أَسَرَتهُ بكل تفاصيلها ونقاشاتها الجميلة فالرقي والهمجية فايروس جميل معدي فسألها:

كنت أتوقع أننا سنبدأ بممارسة المتعة مباشرة وبعدها نأكل ونشرب؟

نظرت إليه بعمق وقالت له:

أولسنا نمارس المتعة ونحن جالسين نتناول العشاء على أنغام الموسيقى الرومانسية؟، أنت تتكلم بلسان ثقافتكم الغبية فأنتم لا تميزون بين الرومانسية والجنس وشتان بين ما يمارسه الأنسان من رقيّ وبين ما يمارسه الحيوان من ابتذال وشهوة.

هز رأسه بالإيجاب على ما قالت وهو يحاول أن يرتشف القليل من النبيذ الأحمر لكنه أبعده عن فمه بسرعة دون أن يمس لسانه كمن

يتجرع سُماً وأكمل معتذرا لثقافته التي انتقدتها تلك الحسناء:

ربما أنا أتكلم بقلة معرفة وتجربة حيث لم أخض علاقة مع امرأة قبلك فلا تحكمي بالسوء على كل الرجال الشرقين بسببي.

أبعدت كأسها عن شفتيها فجأة وقالت له قبل أن تكمل جرعتها من محتواه:

صحيح... أخبرني بتلك الاعجوبة التي سمعتها منك؟ كيف لم تواقع امرأة وأنت قد بلغت الثانية والاربعين؟ أشرح لي أرجوك.

قصتي طويلة بطول صبر وطني وساخنة بسخونة صيفه الحارق يا صديقتي، أنا أكره تذكرها فما بال مسامعك الرقيقة أنا على يقين تام أنها لن تحتمل شيئا منها.

ماري:

الذكريات حمل تنوء تحته الروح ولا تتخلص منه حتى تبوح به لشخص يتفهمها، احسست بالحزن يحتل الكثير من داخلك والانكسار وخيبة الأمل في الكثير من تصرفاتك، لذلك ستحتاج للبوح بما تحمله من حزن حتى تتخفف روحك، فالبوح نصف العلاج وعلى من يستمع لك النصف الآخر.

ضحك ساخرا وقال:

وهل أنت طبيبة نفسانية وأنا المجنون الذي تمارسين معه كل ما تعلمته عن المجانين أمثاله؟

ماري:

لا يحتاج المجنون لطبيب نفسي إذا وصل لآخر الطريق، بل يحتاج إليه الشخص العاقل كي يتجنب الجنون، وأنا أرى فيك رجل قارب على

الجنون، فامنحني فرصة انقاذ ما يمكن انقاذه من روحك العطبة.

انفجرت ضاحكة دون سابق إنذار وارتمت بظهرها على السرير واستمرت بالضحك بطريقة مثيرة جدا وهو يراقبها بعيني الاعجاب أكثر منه للغريزة، فكل ما بهذه المرأة ينبض بالحياة، وجهها المنير المحمر عيناها الزرقاوتان المتألقتان ...شفتاها التي ما غادرتها الابتسامة، جسدها الناطق الرسمي بالحياة فكل تضاريسه تحتوي تلاوة الحب وتراتيل الصلاة لطقوس الرغبة، حتى ثوبها الأسود المتباين مع لون بشرتها الناصعة البياض كان له طعم آخر، ففي العراق كل الألوان تؤدي إلى الحزن، أما هنا حتى الأسود يؤدي إلى الفرح والرغبة.

بعد دقيقة رفعت رأسها وأشارت إليه بإصبعها أن أحضر كأسك وتعال إلى هنا.

أقترب منها وقالت له غاضبة:

أحضر كأسك معك ولا تدفعني لضربك فقد طفح الكيل.

عاد فأحضر الكأس فنهضت هي وأمسكت بيده التي تحمله ووضعتها على فمه وقالت له أشرب،

قال:

لم أشرب الخمر طوال حياتي ولم استسغ رائحته.

ماري:

لا أعتقد شرب ما في هذا الكأس سيكون أسوء مما مررت به في حياتك، فأشرب ولنبدأ جلسة العلاج.

تناول الكأس بعد أن دفعته إلى فمه بقوة حتى أكمل الكأس كله.

قال:

طعمها كعصير العنب تخيلته مرا لاذعا كما نراه في الأفلام.

انزلقت بجسدها حتى نامت على السرير بالطريقة الصحيحة إذ كانت تنام متقاطعة بجسدها مع اتجاهه وقالت املأ كاسينا وتعال بجانبي.

صارت تضحك بعد الكأس الثالثة لأي سبب، كطفل لا يجيد ملامحه التعبير غير الضحك أو البكاء، أما خالد فقد أختص بعد الثمالة بالضحك فقط، حتى دون سبب بينما هي تنظر لروح الطفل التي ظهرت فجأة في ملامح وجهه الكئيب والجاد دائما عندها كررت سؤالها له:

احكي لي قصة حياتك أيها المسكين.

تغيرت ملامحه وكأن الطفل الذي ما كان يعرف غير الضحك تحول بلحظة لحاجة ماسة للبكاء، فأمسكت برقبته ورأسه واجتذبته إلى صدرها الوفير والناعم بقوة، فحضنها هو بقوة أكبر لأنه شعر معها بأمان افتقده منذ سنوات طويلة منذ أن فارقته أمه الطيبة التي كانت تمنح وحيدها كل الحب والعاطفة.

في لحظة ما يتحول الرجل إلى طفل يحتاج حضن أمه كي يتخفف عن كل أحمال البلوغ والرجولة ويعود طفلا له كل الحق أن يخاف ويبكي دون خجل، فرضه عليه بعض الشعر بعدما نمى بين أسفل أنفه وأعلى شفته يسمى شارب، تلك حالة لا تفهمها أي امرأة، ولا تتقن استغلالها أي أنثى، فأكثر بنات حواء للأسف يتعاملن مع رجالهن بروح التحدي والتمرد متخيلات أن هذه الطريقة الأمثل لنيل حقوقهن من بني أدم، لكن في الحقيقة هو يدعي أنه كبير أمام الأنثى وفي داخله طفلا ما زال

يلعب ويلهو، ولو عرفت أنثاه السيطرة على ذلك الطفل، لضمنت أن تكون ملجئ قلبه الوحيد، وحاجته لها ستكون أكبر من حاجته لرغبة حيوانية بسيطة بل ستختزل في عينيه كل النساء في امرأة يأتي بعدها الصوم عن كل النساء.

كانت العلاقة الحميمة أروع ما عاشه الأثنان فقد تكلل التدرج الروحي والتعاطف بينهما والرغبة العارمة إلى تلاحم روحي وجسدي مقدس.

بقي واضعا رأسه على صدرها وهو يحتضنها كطفل متشبث بمصدر أمانه الأول (صدر أمه) بينما راحت تداعب شعره الخفيف جدا:

عليك حلق شعرك نمرة صفر فستبدو أكثر إثارة:

رد عليها بهدوء

أعملي ما شئت بي فلن أعارضك بعد اليوم فقد وقعت لك عقدا بالعبودية مدى الحياة.

ماري:

أحكي لي أذن قصتك أيها الطفل الطيب.

احتضنها أكثر كمن يتهيأ للدخول لزقاق مظلم ومرعب هو زقاق الذكريات الأليمة وقال...

ننفق أموالنا لقتل أبنائنا,
وكل يدعي قداسة القضية

توقفت الحافلة الكبير في مقر الفيلق الأول في الموصل حوالي الساعة الرابعة مساءا في يوم من أواخر أيام كانون الأول الباردة وصار ينزل منها الجنود تباعا، وينزل معهم الخوف من القادم فقد كانت الحرب العراقية الإيرانية منجلا يحصد آلاف الرقاب من الجهتين، دون رحمة فبأموالنا نقتل أبنائنا، وكل يدعي قداسة قضيته.

وطئت بقدمي الأرض وصرت أتلفت يمنة وشمالا مستكشفا المكان الذي أُرسلتُ إليه، يقال أن الجبهة هي الجحيم بعينه حيث يتقاتل الرجال دون رحمة، تصدح المدافع بصوتها المرعب تعلن موعد الافطار لملك الموت بحصد أرواح المقاتلين تحت حجج وأكاذيب يتفنن فيها الساسة كي يخلقوا قضية يستحق أن يموت من أجلها أبناء وطنهم ويكسبوا هم المجد في سطور التأريخ.

صاح بي رئيس العرفاء مجيد بصوت جهوري مرعب:

(تحرك يا جندي)

رمقته بنظرة وكأني أعلن تمردي على طريقته في الكلام فاقترب مني وأمسك بذراعي بقوة وسحبني وقال شاتما:

حتى البغال التي نستعملها هنا أسرع فهما منك.

كانت صلاحيات التمرد في الجيش لا تتعدى التشاور بينك وبين نفسك فقط وأكثر من ذلك يعني الإعدام فورا، فالانضباط الصارم

هو الذي جعل تلك الحدود الممتدة لألف ومئتين كيلو مترا تبقى سالمة أمام الموجات البشرية من قبل الجيش الإيراني الذي كان يفوق الجيش العراقي بعشرة أضعاف وأكثر، إذ حُشدَ في معركة (نهر جاسم) وحدها مليون مقاتل إيراني مقابل مائتان وخمسون ألف مقاتل من الجيش العراقي لتنتهي تلك المعركة بمجزرة حقيقية وكارثة بشرية، الخاسر الوحيدة فيها هو الشعبين، والرابح الأكبر فيها سمك النهر الذي راح يلتهم الجثث الممتزجة بنكهة الغباء البشري وحبه للقتل طمعا بالسلطة والجبروت، وسُجلَ يومها وصمة عار في جبين الأنسان حتى أن الجثث صارت تطفو فوق بعضها البعض، فلم تزل محفورة في وجدان كل من شهدها وعاش تفاصيلها لذلك تحركت وأنا صاغر فأنا اعرف عواقب التمرد جيدا.

كان المساء باردا جدا ولم يعطى الجنود الجدد أي تجهيزات للمنام حيث أن التجهيزات توزع في اللواء لا الفرقة واضطر رئيس العرفاء على توزيعهم على مقر الفرقة ليتقاسمو الفراش مع جنود المقر.

كان الرجل كأم فقيرة توزع الفراش بين أولادها لعدم كفاية الفراش حيث راح يعمل مناوبة بين الجنود للحراسة من جهة وبين الجنود الجدد من جهة أخرى فمن يخرج لنوبته ينام بدله جندي آخر وهكذا حتى انتهت تلك الليلة.

في الصباح كان أول الناس هو رئيس العرفاء يدعو الجنود للنهوض بنفسه مع العريف الخفر والكل يملؤه العجب.

همست بأذن من يقف بجانبي متسائلا:

ألا ينام هذا الرجل؟ منذ الأمس وهو يصيح ويزمجر حتى في الليل، وصوته يقض مضجعي.

أجابني بالهمس خوفا منه فقد كان شاب صغير جدا لم يكمل الثامنة عشر:

يقول أبي وهو جندي قديم في الجيش، أن الجنود لا ينامون في المعارك لأسبوع أحيانا.

بعد التعداد صار توزيع الجنود على أقسام الفيلق وانتهى في تمام العاشرة وكان أسمي مع مجموعة تم تنسيبنا إلى أبعد فوج في الحدود العراقية الإيرانية التركية.

غادر أغلب المجندين الجدد كل لمكان تنسيبه إلا القليل ومنهم وكنت أحدهم حيث ننتظر سيارات المواد الغذائية والتي تسمى عسكريا (الإعاشة) كي توصلنا لأماكن تنسيبنا إذ لا سبيل للوصول إلى هناك غير انتظار القافلة بسبب وعورة الطريق الجبلي وخطورته أيضا.

لم يتوقف جسدي المنهك من الارتجاج طوال الطريق الجبلي الطويل حتى وصولنا إلى مقر الفوج قبل الغروب ونحن منهكون تماما من التعب.

كان بانتظارنا أمر الفوج الذي أختلف تماما بمظهره عن كل الضباط الذين مروا علي بدئا من مركز التجنيد وحتى مقر الفرقة إذ كان الذين قبله أنيقين جدا ويرتدوا ملابس أنيقة ومكوية أما هذا الضابط فقد أرتدى خوذة معدنية وملابس معركة وقد بدى عليه التعب جدا.

نزل الجميع وأدوا التحية العسكرية له وكان رده بمستوى شكله المتعب فقال لهم:

الحمد لله على سلامتكم.

ثم راح يسأل الجميع عن أسمائهم ومحل سكناهم حتى وصل إلي فأجبته:

أنا خالد من بغداد خريج آداب انكليزي للسنة الدراسية ١٩٨٦/١٩٨٧.

أصيب بالمفاجأة وقال:

(خريج آداب انكليزي)؟ ألم يعرفوا ذلك في مقر الفيلق أو الفرقة أو حتى اللواء؟

أجبته:

مؤكد كلهم عرفوا بذلك لأنه مكتوب في ملف التجنيد الذي يرافقني.

آمر الفوج:

وكيف لم يبقوك في مقراتهم في (القلم) ويقصد به إدارة الوحدة؟ فهناك توجيه عام بالاحتفاظ بالخريجين بعيدا عن الجبهات للاستفادة منهم وضمان عدم خسارتهم

حينها لم أجد ما أُجيبُ به فبقيت صامتا مما دعا الآمر أن يسترسل بكلامه ويقول بفرح:

أذن ستكون مساعدا مفيدا لمسؤول القلم في الفوج.

كانت الشمس قد غربت فساد المكان سوادا حالكا لدرجة أن النجوم صارت واضحة كعيون للآلهة ترمقنا بنظراتها، كي تحينا كالخراف

التي تنوي ذبحها غدا، وصمتا مخيفا يجعلنا عبيدا للخوف، وأتجه الجميع إلى المواضع حيث جلسوا يتناولون العشاء المتكون من مرق و(صمون) وهو نوع من أنواع الخبز العراقي على شكل قبضة اليد يصنع خصيصا للجيش لا يصل إلا كل ثلاثة أيام لبعد المسافة ووعورة الطريق فيتحول للتصلب حتى يغدو كالحجارة فلو أنكِ ضربت بها أحدهم برأسه لتفجر ينزف دما لكنه مع المرق الخفيف الذي لانعرف مما يتكون يصبح طريا.

في المساء زرت الموضع الخاص بآمر الفوج بعد أن طلبني الأخير بنفسه وراح يسألني:

ما رأيك باليوم الأول بالجبهة؟

أجبته وأنا أقف بوضع الاستعداد أمامه:

كنت أتوقع أن الليل في الجبهة جحيما مشتعل، ويقف عزرائيل حاملا حرابه ومعه الكثير من أتباعه يصطادون أرواح البشر الأغبياء، الذين يمنحون ملائكة الموت فرصة التمتع باستخراج أرواحهم تحت مسميات غبية هم يخترعونها مثل الشهادة وغيرها كي يقتلوا بعضهم بعضا، حتى كنت أحتار بعدد ما يحتاج من ملائكة معاونين له في المعارك الكبيرة التي تنتهي بالقتل الجماعي وبأبشع صورة.

صعق الآمر بهذه الإجابة العميقة وراح يحلل كلماتها إذ توقع أن لا أكون جنديا عاديا وربما أكون رجلا من الاستخبارات العسكرية وجئت أوقعه بالكلام لأتبين نواياه ووجهة نظره بالنسبة للحرب وبعد لحظات من التأمل قال لي (أجلس هنا)

دون تردد جلست على بعض أكياس من الرمل التي كتبَ الله عليه لعنة أن تكون رمزا للحروب والقتال، في جانب باب الملجأ بعد أن شكرته.

الرائد جودت:

لما توقعت الجبهة بهذا الشكل المريع؟

أجبته دون تحفظ:

لكثرة سرادق العزاء الخاصة بمن فقدوا أرواحهم في الجبهة وخاصة في بغداد.

الرائد جودت:

آرائك خطيرة أتمنى الاحتفاظ بها بسرك ففي الحروب تكفي زلة لسان للإطاحة برقاب كثيرة.

هززت رأسي بالإيجاب لأني عرفت أن الآمر من الناصحين لي، والمقدرين لشخصيتي فهو الضابط الوحيد الذي أجلسني معه منذ خدمتي التي قاربت الثلاثة أشهر.

قارب اللقاء على الانتهاء فأخبرني أن مكاني سيكون في (قلم) الفوج وهو مكان احسن بكثير من أي موضع آخر في الجبهة وسيحاول قدر الامكان أن يجنبني أي معركة.

شكرت الرجل واديت التحية العسكرية لأول مرة بحياتي وأنا مقتنع بها لشخص احترامي له كبير رغم أن معرفتي به لم تتعدى الساعات.

اتأمل ذلك الجبل الشاخص من بعيد امامي حيث انغرست قمته في خاصرة الغيوم.

في الصباح أصطف الجميع كالعادة في تعداد الصباح اليومي فقدم رئيس عرفاء الفوج للرائد جودت وبعد الانتهاء آمر الجميع بالتفرق فتوجه الجميع كل إلى عمله ومن ضمنهم أنا فصاح علي مناديا:

خالد ... تعال هنا.

اقتربت منه وأنا أتوقع أن يوجهني لمهمة إدارية أو شيء آخر ضمن اختصاصي الذي أنيط بي ليلة أمس فأسرعت مؤديا التحية العسكرية وأنا مبتسم وكلي حماس لأثبات قدراتي لهذا الضابط الإنسان، إلا أن تلك البسمة سرعان ما اختفت وسط وجوم ملامح الرائد فانقسمت جملتي إلى نصفين نصفها الأول المستبشر الفرح بوجود من عرف قدري ونصفها الثاني الحزين الذي قرأ الحزن والخيبة في ملامحه:

نعم سيدي تفضل؟

اخفض الرائد جودت رأسه وقال متأثرا:

وصلني أمر بنقلك إلى (الراقم) الموجود في مثلث أقصى الحدود العراقية التركية الإيرانية.

فسألته مستغربا:

ولكن كيف؟ ولم يصل أي بريد اليوم، فالإمدادات تصلنا كل ثلاثة أيام لوعورة المنطقة مما يعني أن البريد سيكون بعد يومين على الأقل!

الرائد جودت:

وصلتني برقية بذلك.

كررت بعده الكلمة لشدة الاستغراب وأنا أقضم الحروف قضما لا نطقا:

برقية..! وهل الأمر بهذه الأهمية حتى تأتي برقية بي؟

خلع الرائد جودت خوذته الحديدية وقال:

ذلك أكثر ما يحيرني بك... من أنت وما مشكلتك.

كان جوابي له بلهجة كلها استسلام وانكسار:

أنا... لا شيء ..لاشيء. كيف سألتحق إلى ..... ما أسمه ؟

الرائد جودت :

(الراقم) وهو عبارة عن قمة جبل نصنع منه موقع حصين ضد العدو كي نضمن عدم استخدامه للقصف علينا فهو موقع استراتيجي مهم لكنه ايضا خطير جدا.

استأذنت واستدرت ماشيا دون أي هدف فصاح بي الرائد جودت:

يجب عليك اليوم أن تكون في (راقمك).

توقفت في مكاني والتفت إليه وسألته وكيف سأجده؟

أشار الرائد بأصبعه إلى جبل بعيد وقال:

ستكون على قمة ذلك الجبل الذي نتقاسم قمته مع الجيش الإيراني.

بقيت أستمع إلى كلامه متأمل ذلك الجبل الشاخص من بعيد امامي حيث انغرست قمته في خاصرة الغيوم واختفت عن الأنظار وراحت أشياء تداعب برائحتها الموقف والكلام الذي دار بيننا.

فجأة قلت بعد أن استفقت من غيبوبة أفكاري:

ألم تقل أن القمة أما لنا أو لهم؟

الرائد جودت:

بعد معارك شديدة وبسبب سعة القمة تمكن الجيشان من صنع موضعا لهما واستمر الوضع هذا منذ عامين وأكثر.

سألته وأنا على حالي من التأمل إلى الجبل البعيد الذي راح يلوح لي مبتسما كساحرة تدعو ضحيتها بوجه مستبشر في أفلام الكارتون كي تنال منه فيما بعد:

وكيف سأصل إليه فأنا لا أعرف الطريق إليه؟

الرائد جودت:

سيصل بعد ساعتين النائب ضابط فالح وهو المسؤول عن الراقم وسترافقه إلى مكانك الجديد.

بعد ثلاث ساعات وصل النائب ضابط فالح ومعه أربعة جنود وخمسة من البغال وقد بدى عليهم التعب فاستقبله الرائد جودت وقال:

تأخرت أبو علي ما السبب؟

فالح:

صعوبة الطريق يا سيدي وأعاقنا الثلج كثيرا.

الرائد جودت:

هل هناك أي مشاكل في الراقم ؟

فالح:

كل شيء على ما يرام والوضع هادئ جدا فلا تشغل بالك سيدي.

مسكه الرائد من كتفه وقال:

استرح وتناول الإفطار وسأجعل ضابط الاعاشة يجهزك بكل ما تحتاجونه.

في تمام الثانية عشر توقف فالح أمام الرائد جودت يطلب منه الأذن بالمغادرة فسأله الرائد جودت:

أنا أرى أن تقضوا ليلتكم في مقر الفوج وتغادروا في الصباح الباكر فالليل ينزل سريعا هنا ولم يبق على غياب الشمس إلا أربع ساعات.

فالح:

الرجال هناك بحاجة للمؤن فمنذ أيام حاصرنا الثلج واليوم تمكنا من الوصول وقلبي يأكلني عليهم فهم أصبحوا قلة هناك بتركنا إياهم، ونحن لا نأمن غدر العدو فهو يتمنى أن يتسيد تلك القمة وأنت تعرف كم أعطينا من الأرواح لاستعادتها منهم والحفاظ عليها.

أمسك الرائد جودت بيدي وسحبني إذ كنت أقف خلفه وقال:

أوصيك بهذا الشاب خيرا يا أبا علي فهو محترم وجديد في الخدمة العسكرية.

فالح:

كلهم أولادي يا سيدي وأنت تعرف حبي لهم واهتمامي بأوضاعهم.

حينها ربت على كتفه وقال بحماس وقوة:

عليك المغادرة فورا فأمامك ست ساعات أن لم يحصل ما يجعل ذلك الوقت أطول.

ادى فالح ومن معه التحية وغادروا جميعا بينما استدرت أنا عائدا لاحتضن جودت وقلت:

اشكر اهتمامك فقد اعدت لي الاحترام للمؤسسة العسكرية بطيبة قلبك وتأكدت أن هناك إنسانية.

ربت جودت على كتفي وقال:

كلنا أخوة وعلينا الاهتمام ببعض حتى ينتهي هذا الجحيم ونعود للحياة المدنية، فأنا ضابط احتياط وفي الأصل مدرس لغة عربية وقد اشتقت لصوت الطلاب وضجيجهم فترة الاستراحة حتى أني أزور مدرستي التي ما زلت موظفا فيها إلى الآن كل إجازة.

ولننتظر حتى الصباح
هذا إن كُتبَ لنا رؤية الشمس؟

بدء الجميع بالنزول أولا من مقر الفوج ومن ثم التوجه عبر الوادي المليء بالثلوج حيث أن مستواه قد وصل إلى النصف متر بعض الأماكن، كان الطريق متعبا جدا حيث أن قدمي كانتا تسيران باتجاه المجهول، لكن التعب الحقيقي بدأ في تسلق المنحدر للصعود للراقم وكأن ذلك الجبل يختبر صبري، والعبء الآخر هو غروب الشمس واختفائها تدريجيا فتحول بياض الثلج إلى ظلام حالك حتى أني سألت أحد الجنود الذين معي وكنا نسير في آخر الرتل لتعبي:

كيف سنعرف الطريق بهذا الظلام الحالك؟ أليس من الأفضل أن يكون معنا مصباح يعمل بالبطارية.

توقف رفيقي المقاتل ونظر إلي نظرة بالكاد فهمتها بسبب الظلام وهمس لي بصوت خافت:

هل أنت مجنون؟

استفزني الجواب حتى عدت اسأله وما الجنون بذلك أخبرني؟

توقف لحظات كي يسترد أنفاسه:

نحن نمر الآن بمحاذات خطوط العدو ومواضعه، وهو الجزء الأخطر في طريقنا لو رصدونا سينهال رصاصهم علينا كالمطر فأنت الآن في الجبهة الحقيقية لا مركز التدريب القادم منه.

بعد لحظات من المسير أمسكته من يده وقلت له:

ولما نمر بمحاذات موضعهم الدفاعي لما لا نتجنبهم؟

توقف ثالث مرة وقال لي:

ليس الأمر بأيدينا أو على مزاجنا يا رجل فوعورة المكان حاكمة علينا أن نمر بالقرب جدا منهم.

بعد دقيقة من المسير أمسكت بيده للمرة الرابعة فتوقف قبل أن اسأله وقال:

اسأل يا رجل فقد صار بيننا وبين جماعتنا مسافة كبيرة بسبب اسئلتك التي لا تنتظر، أقسم أننا سنُظلُ الطريق بسببك قل بسرعة وأقسم أن هذا آخر سؤال أجبك عليه

قلت وبتردد:

ولما لا نترك هذه القمة اللعينة فما الفائدة منها وهي حتى لا تصلح للسكن فكلها صخر وثلوج.

فأجابني بهمس أشبه بالصراخ من فرط غضبه:

لست القائد أيها الذكي لأقرر ترك هذا المكان أو غيره. مع ذلك سأخبرك ... هذه القمة لو وقعت تحت ايديهم لوضعوا عليها مدافعهم التي ستسيطر على كل القمم الأخرى لأنها الأعلى في هذه المنطقة وستصبح كل مواضعنا تحت رحمة قذائفهم، والآن أرجوك لا تسأل فأنا لا أرى أحدا من رفاقنا المقاتلين علينا أن نتتبع آثارهم على الثلج.

وما أن أنهى الحرف الأخير حتى سمعنا صوت انفجار كبير وبعده أطلاق نار كثيف فأخذ يسحب البغل بعيدا عن الطريق الذي نسير فيه وهو يقول أدفع البغل بسرعة ولنتجنب الطريق بسرعة.

دون شعور ولأني خفت كثيرا صرت أدفع بالبغل وبقوة مع أني كنت أخاف لمس أي حيوان بحياتي حتى في العيد كان اصحابي الصغار يمتطون ظهور الجياد مقابل مبلغ من المال، أما أنا كنت أخاف الاقتراب منهم وأبتعد كثيرا.

وبسرعة صرنا نغرس اقدامنا في الثلج لنهرب إلى الأشجار القريبة التي ارتدت البياض ثوبا لها ومعنا البغال المسكينة وكأنها تفهم ما يجري أكثر مني أنا الذي لا أفقه شيئا وساد الصمت بعد عشر دقائق فسألته:

ما الذي حصل؟

- تعرض أخوتنا لكمين من العدو.

- ألا نهرع لنجدتهم؟

- أي نجدة وقد قتل اللغم نصفهم وأجهز وابل الرصاص على نصفهم الثاني ألم تلاحظ عدم وجود أطلاق نار متبادل.

- وما علينا فعله الآن؟

- ندعوا الله أن لا يكتشف العدو وجودنا ويقتلوننا.

- لما لا نسلم أنفسنا ونكن اسرى حتى نضمن الحفاظ على أرواحنا.

- أي ضمان مع هؤلاء القساة، هم يروننا كفارا يحل قتلنا والتقرب لله بدمائنا، وقد قتلوا الكثيرين من اسرانا في مناطق عديدة من الجبهة، فاصمت ولا تتكلم أرجوك ولننتظر حتى الصباح هذا أن كتب الله لنا رؤية شمسه؟

أنت في الجبهة
ومشهد الموت وهو يتجول في المواضع سيتكرر كل يوم.

رغم الخوف والبرد تمكن النوم مني اخيرا في الساعة الأخيرة من الليل قبل طلوع الفجر في الفجر، ليوقظني صاحبي بعد أن غفوت وهو يصرخ:

أنهض بسرعة أيها الكسول.

فتحت عيني وأنا شبه فاقدا للوعي كالمجنون فإذا بمجموعة كبيرة من المقاتلين يرتدون زي القوات الخاصة ذوو شوارب مفتولة يبحثون في المكان، كان صاحبي يصرخ علي أنهض فأمسكت فمه.

كانت المفاجئة أن قوة عراقية ترتدي الملابس المرقطة وهم ذو أجسام طويلة قد انتشروا في الأرجاء ومعهم قوة من الفوج وعلى رأسهم الرائد جودت يبحثون عنا بعد أن تأكد تعرضنا لكمين في هذه المنطقة.

خرجنا باتجاههم نحاول الركض لكننا كنا نسقط بعد كل خطوتين أو ثلاث بسبب الثلج الكثيف، الذي يحاول منعنا من الولوج لأمان أبناء وطننا.

لم يصدق الرائد جودت ما رأى فقال بحماس:

الحمد لله على سلامتكم توقعنا أنكم وقعتم أسرى عند العدو.

أدى زميلي التحية بينما أنا احتضنته دون حتى التحية وكأني أعرفه منذ عشرات السنين وقلت:

لم أسعد برؤية أحدا بحياتي كسعادتي برؤيتك يا سيدي.

صرت أبحث في الوجوه عن باقي من كان معنا ليلة أمس فلم أجد أحدا فبادرت بالسؤال بكل غباء الجندي المستجد:

أين باقي مَن كان معنا مِن رفاقنا المقاتلين؟

ساد الصمت المكان فرد علي أحد رجال القوات الخاصة أنظر هناك.

كان المنظر مؤلما جدا فركضت باتجاه المكان حيث تقطعت الأجساد وتمزقت الأحشاء وبترت أرجل وهشمت الرؤوس بل حتى البغال قتلت، صرت أصرخ كالطفل فأقترب مني رجل آخر من القوات الخاصة وصرخ بي بصوت عالٍ:

أنهض وكن رجلا أيها المدلل أنت في الجبهة وهذا المنظر سيصادفك دائما، وسننتقم لكل هؤلاء الرجال اليوم أو الغد فكما أوقعوا بكم بكمين سنوقع برجالهم بكمين مماثل، هي الحرب ولا مجال للأطفال هنا.

بعدها أمسكني من ياقتي وصار يسحب بي فتدخل الرائد جودت وقال له:

أبتعد عنه فهو في يومه الأول هنا.

أمتثل المقاتل لأمره وهو يهز يده مستهزئا بي وهو يقول:

كيف سنحارب العدو بأطفال ما زالوا رضع وعدونا بهذه القسوة والشراسة.

عند الظهيرة عاد الرائد جودت والقوة التي معه إلى مكانها حاملين جثث الشهداء من رفاقنا وتوجهت أنا والجندي الذي كان معي ونائب ضابط آخر تم تنسيبه بدل فالح رحمه الله إلى (الراقم) بعد أن أوصاه

بي خيرا.

كان الطريق شاقا ومتعبا، أما أنا لم أكن أشعر بأي شيء مما حولي كبغل من تلك البغال التي نجرها لحتفها للدخول في حرب لا دخل لها بها دون أن تمانع.

وما أحوجنا للرعاية الإلاهية
في مكان لا يبعد فيه قاتلك سوى مئات الأمتار

وصلنا الراقم أخيرا وكان عبارة عن مجموعة من المواضع الخاصة بالسكن قد ربطت ببعضها البعض بممرات كتلك التي يصنعها النمل تتقدم هذه مواضع أخرى خاصة بالمعركة وتكون ضيقة جدا وتحتوي على مزاغل للرمي وكلا النوعين مصنوع من الحجر وأكياس محشوة بالتراب.

وصلنا وقت المساء والشمس قاربت على الغروب وكنت أبتعد عن الحافة لموقعنا لشدة انحدار ما تحتها أما المنظر فقد كان غاية في الدهشة اذ كان يزرع الرهبة في القلب ورحت اتساءل كيف صُنعت كل هذه التضاريس الكبيرة والهائلة، أما الارتفاع جعلني أشعر وكأنني النسر يدور بعليائه فصرت أنظر للأرض وكأني اراها من فوق السماء.

لم أنم تلك الليلة حتى الفجر إذ بَقيت صور رفاقي الجنود تحتل كل ذاكرتي، منظر الدماء المتخثر على الثلج، والأشلاء المقطعة، كانت منظرا لم أرى مثله طوال عمري المتمثل باثنان وعشرين عاما، لذلك قررت التفكير بأمي وعبير علهما ينسياني ما ببالي من أفكار مؤلمة.

قاطعته ماري بالهمس:

عبير هذه أختك؟

- لا هي كانت زميلتي بالكلية وحبيبتي والمفترض أن تكون زوجتي

المستقبلية.

- يا مخادع ألم تقل أنك لم تعرف امرأة غيري؟

- بل قلت لم أمارس الجنس مع غيرك.

- يعني زميلتك وحبيبتك لأربع سنوات ولم تمارسا الجنس؟

- لا طبعا، أنا ما قبلتها حتى، بالكاد تعانقت يدانا ونحن نعبر الشارع.

- أي غباء هذا

- هي حبيبتي وكنت سأتخذها زوجة؟

- وما المانع؟ المفروض أن تجربا بعض حتى يكون زواجكما ناجحا.

- وكيف أتزوجها وقد مارست معها الجنس؟ أين العفة في الأمر؟

صارت تضحك وتقول مجتمع أشبه بالنعامة يخفي رأسه ويكشف مؤخرته.

خالد وقد أبعد رأسه من صدرها وقال:

لكل مجتمع عاداته وأعرافه الخاصة فما ترينه خطأ في مجتمعي نحن نراه عفة وشرف، وما ترونه في مجتمعكم من انفتاح وحرية نراه نحن انحلال.

ماري:

معاير الشرف عندكم مغلوطة تماما، فالشرف الحقيقي عندنا بعدم الكذب والنفاق وتجنب التملق والخداع وأن لا نغش أو نخون، أما أنتم فتعملون كل تلك الموبقات تحت مسميات غريبة مثل المجاملة والتقية والخوف من الرؤساء في العمل، لذلك بلدانكم متراجعة ...متخلفة

...يقتل بعضكم بعضا...تسرق ثرواتكم وتستبيحون مقدساتكم فيما بينكم، ونساؤكم تدعي العفة، وهن يمارسن مختلف العلاقات في الخفاء.

خالد:

ربما ذلك صحيح؟

ماري:

ومن أنا بنظرك عاهر أَم مومس؟

رفع رأسه حتى تلاقى بصرهما وقال:

لو كنت أراك بهذا الشكل لما أرتمي على صدرك كطفل لا يفارق صدر أمه.

ماري:

تلك هي الازدواجية بعينها، التي حطمت بلدانكم وجعلتكم في أواخر المجتمعات على كل حال أكمل قصتك فقد شوقتني لمعرفة ما حصل لك ولا تنسى أن تخبرني عن محبوبتك أيضا.

أرجع رأسه إلى صدرها الوفير والأبيض كأنه الثلج البلجيكي الناصع لكن الفرق بينهما أن الثلج بارد كالصقيع أما صدرها كان ساخنا ككوب ككأس من الويسكي يشعل الجسم حرارة ويمنحنا دفئا وسط صقيع من حولنا، وأكمل حديثه:

مرت الأيام والبرد قارس جدا إذ لم يكن يسمح لنا اشعال النار للتدفئة خوفا من اكتشاف العدو لوجودنا وقصفنا فيوقعوا أكبر عدد من الضحايا بين صفوفنا، المطبخ فقط كان له الحق بإشعال النار، وهو عبارة عن موضع ثلاثة أمتار في ثلاثة أخرى يسمى جزافا مطبخ

فهو بالحقيقة لا يملك غير طباخ غازي متوسط الحجم ذو عين واحد يستعمل للطبخ بالمناسبات وقنينتا غاز مخصصتان للطبخ كنا نستبدل واحدة كل أسبوع تقريبا وقِدران متوسطان أحدهما للرز وآخر للمرق وبعض الادوات للطعام.

في اواخر آذار صار الثلج يزول فتكشف وجه المكان الحقيقي كجميلة كانت ترتدي لثاما أبيض يخفي باقي ألوان وجهها الجميل فأخضرت الأرض فجأة وأزهرت الورود وصار المكان كالجنة بل وحتى أجمل مما كُنت أتخيله عن تلك المسماة جنة.

ماري:

أخيرا تخلصتم من الثلج ستكون الحياة أسهل وستستمتعون بالدفأ الآن.

خالد:

في مكان لا يعرف شيء عن اختراعات الحضارة سوى البنادق وأدوات القتل المتبادل وكأننا لم نستورد من الغرب إلا رغبتهم بالسلطة والتملك على حساب الآخرين، لا شيء جيد فما أن تخلصنا من الثلج وبرده حتى ظهرت مشكلة الماء وحاجتنا له.

أضافت ماري:

والحمام والاغتسال وخصوصا أنكم المسلمون تستخدمون الماء بكثرة للصلاة التي أعتقد أنها تتكرر كثيرا في اليوم الواحد.

وهل يعقل أن نستخدم الماء الذي يصلنا كل ثلاثة أيام والذي لا يتجاوز المئة والخمسين لترا التي تحمله البغال ست أو سبع ساعات للاستحمام؟ طبعا لا.. هو للأكل والشرب فقط.

ضربته ماري على أسفل ظهره عند اعلى المؤخرة وقالت وهي تضحك:

وكيف تنظفون أنفسكم بعد التغوط يا ذكي؟

لم يستجب خالد لحالة الضحك والمزاح التي أعترت صديقته فاستمر يتحدث بنفس حالة الفقدان للزمان والمكان وكأنه يتحدث لطبيبه النفسي:

كنا نمسح مؤخراتنا بالأحجار ونرميها بعيدا كي لا نستخدم الماء فنمنح أربعة من أخوتنا المصلين بعض الماء كي يقيموا صلواتهم فقد كنا نعتقد أن الله سيمنحنا الرحمة من أجلهم وما أحوجنا للرعاية الإلاهية في مكان لا يبعد فيه قاتلك سوى مئات الأمتار وهو يتربص بك الزلل لينتزع روحك.

ماري:

أيعقل أن الانسان يتحمل كل ذلك من أجل لا شيء.

خالد:

هذا ما أخبرته لصديقي الإيراني زرادشت عندما تحدثنا.

صرخت ماري بدهشة:

صديقك الإيراني هل أنت مجنون، ألم تقل أنكم لا تستطيعون اشعال النار كي لا يقتلوكم فكيف صار لك صديق، أما أنك كاذب أو أنك تسخر مني.

المزاح:
ضرورة علاجية للنفس البشرية للهرب من أعباء الحياة

ألتفت بجسدها باحثة عن علبة سجائرها التي لم تستطع التقاطها لأن خالد جاثما على صدرها محتضنا خصرها فرجعت مستسلمة وهي تكمل جملتها:

أخبرني ولا تسكت أرجوك فأنت تحولني لسيجارة تشتعل بفضولي لسماع باقي قصتك بعد أن حرمتني من تناول علبة سجائري.

خرج خالد من حالة الفقدان الجزئية وقال بلهجة جادة جملة ساخرة المضمون:

على الأقل أنا أحرمك من الانتحار بهذا الدخان.

ماري:

لكنك تقتلني بالتشويق يا ذكي، أكمل أرجوك.

مرضت البغال كلها فجأة مما اضطرنا لحمل خزانات الماء التي تتسع لعشرين لترا من الماء على ظهورنا مما أدى إلى انخفاض الكمية إلى ثمانون لترا فقط حيث منحنا مقر الفوج بغلان لحمل المواد الغذائية الجافة (الارزاق).

عشنا حالة من العطش الشديد وقلة استخدام الماء لدرجة اصابتنا بالجنون وفي يوم من الايام كان واجبي مع أحد الجنود في الموضع المتقدم جدا ويسمى الحجاب وهو نقطة الصدام الاولى بالعدو، عند الظهر لسعتنا شمس العراق الحارقة وكانت هناك عين ماء كأنه نازل من

الجنة لعذوبته وصفائه تحيط بها مجموعة من الأشجار والشجيرات، تقع بيننا وبين موضع العدو المتقدم، وكانت تجري أمام أعيننا التي أصابها العطش أكثر من اجسادنا،

سألت رفيقي الجندي وكان أصغر مني بسنة لكنه أقدم مني بثلاث سنوات في الجيش:

ما الذي سيحصل لو طلبت من الإيرانيين السماح لنا بشرب الماء من تلك العين؟

فتح عينيه بوجهي أول الأمر لكنه أنفجر بعدها ضاحكا بأعلى صوته وقال:

لم أعرف قبل اليوم أنك ممن يمارس المزاح إذ كنت أعتقد أنك جاد جدا ولطالما تحدثت مع نفسي متوقعا أصابتك بالجنون قريبا، فالمزاح أحيانا يكون علاجا نفسيا للكثير من الخوف والحزن، حتى أني سمعت مرة أن من يمزح كثيرا يحمل هما أكثر.

أجبته بهدوء وجدية:

لكني لا أمزح ولا أحب المزح كما عرفتني قبل الآن.

سكت عن الضحك فجأة وقال:

إذن أنت مجنون.

نظرت بعينيه مباشرة وقلت له أتراني مجنون؟

رد بصوت يحمل لهجة الاستغراب وقال:

المصيبة أني متأكد أنك لست من الأغبياء أو المجانيين.

صرت أبحث عن شيء باللون الابيض فلم أجد أي شيء فخلعت

ملابسي حتى أخذت فانيلتي الداخلية وارتديت باقي ملابسي وحملت غصن شجرة قريب واقتطعته بقوة لأنه كان اخضر، رغم طراوته لكنه يفي بالغرض وصنعت منه راية بيضاء، قفز رفيقي وأمسك بيدي التي تحمل تلك الراية وقال:

ما تفعل بحق اللّه.

قلت له سأسأل الإيرانيين هدنة حتى أحصل لنا على بعض الماء.

تمسك بي بقوة أكثر وقال:

سيقتلونك حتى قبل أن تكلمهم.

- على الأقل سيكون موتي سريعا بدل الموت ببطء عطشا وأنا أرى الماء اللذيذ أمامي.

- وأن لم يقتلوك ستعتقلك الاستخبارات العسكرية وربما تعدم.

- ومن سيخبرهم؟

- أنا سأخبرهم طبعا.

- لكني على ثقة بأنك لن تفعلها وإلا لما أخبرتك بالأمر ولا حتى فكرت به.

ترك يدي وأمسك برأسه وقال مولولا:

أرجوك أنت تقحمني معك بأمر لا طاقة لنا به.

تركت الراية على الأرض أنزلت يديه من رأسه وقلت له مطمئننا:

لا تخف واترك الأمر لي.

التقطت الراية من الأرض ورفعتها وخرجت فسمعت صوت بندقية قد سحبت اطلاقة في الحجرة وهي تتهيأ للإطلاق من خلفي فالتفت إلى الوراء فإذا بصاحبي موجها سلاحه باتجاهي وقد تغيرت ملامحه

للغضب وهو يقول محذرا إياي:

إياك والتحرك خطوة واحدة.

لم أبه له والتفت باتجاه موضع الإيرانيين وبدأت المسير كرر صاحبي سحب أقسام البندقية ثانية وكأنه يؤكد قراره بإطلاق النار علي لكني تأكدت أن هذا التصرف دليل عجزه عن اطلاق النار فأعاد تهديده بسحب الأقسام وحشو الحجرة بإطلاقة أخرى.

حملت رايتي المتواضعة بأعلى يدي كي يروننني جيدا حتى توقفت في منتصف المسافة التي بيننا وكانت عند الساقية الصغيرة التي كونتها العين الجارية بالماء، وبعد دقيقة من الانتظار انخفضت بجسدي ورحت أشرب الماء لترتوي روحي قبل شفتي من صوت حركة الماء الجاري بكل نعومة وسلاسة واعتراني احساس بإنجاز عجزت عنه دول برؤسائها عن وقف اطلاق للنار، لحرب قاربت على اتمام عامها الثامن.

ملئت زمزميتي وزمزمية صاحبي وما أن رفعت رأسي حتى وجدت شخصا ذو لحية سوداء كثة يحمل رشاشا أسود اللون طويلا غريب الشكل غير التي نستخدمها في الجيش العراقي وقد وجهه باتجاهي فبادرت بالسلام عليه:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فأجابني بلغة عربية شبه فصيحة:

أرفع يديك وإياك الحركة وإلا اطلقت النار عليك.

نحن قطيع أغنام
نساق للذبح تحت مسوغات غبية ومبررات ساذجة.

صرخت ماري:

أنت أغبى من عرفت بحياتي، تعلم أن العدو يتربص بك وأنت تذهب بلا سلاح من أجل حفنة من الماء ليتك صبرت قليلا حتى يأتيكم الماء.

رفع رأسه من صدرها واتكأ بجانبها على رأس السرير المتواضع الذي راح يزقزق صارخا من هول ثقل جسديهما عليه وقال موجها نظره للحائط الذي أمامه:

ليس الأمر قضية عطش فقط، بل هي الثورة على حرب أكلت شبابنا دون رحمة، كنت أريد أن يقتلني أحد الرابضين المترصدين بي حتى استريح مما أنا فيه.

كانت لمغادرة خالد صدرها فرصة ذهبية اتاحت لها اشعال سيجارة وهي تستمع لمقاله فأجابته:

ولكنك وقعت اسيرا وهذا اسوء بكثير من كونك مقاتلا خصوصا مع قوم قساة ومتشددون كما أخبرك رفاقك المقاتلين.

خالد:

ومن قال لك أني وقعت في الأسر؟

فتحت ماري عينيها وقالت:

ألم تقل أن رجلا ذا لحية كثة أشهر سلاحه في وجهك وطلب منك

تسليم نفسك وإلا سيقتلك.

خالد:

نعم قلت ذلك.

هزت رأسها باستغراب وكأنها تقول وما ذا بعد؟

خالد:

بعد أن ألقيت عليه السلام ورده بالصراخ علي بتسليم نفسي وهو يتلفت يمنة ويسرة ويبدو عليه الرعب أكثر مني، أنزلت نظري باتجاه الماء ورحت أغسل وجهي متجاهلا إياه فكرر ما قال مرة وأخرى دون أن أبه له وكنت في داخلي أتخيل دخول الاطلاقة لرأسي واتساءل هل كانت ستؤلم أم أني لن أشعر بها.

قال الرجل بلغة عربية شبه فصيحة:

هل أنت أصم أم أنك لا تخاف الموت.

حينها رفعت رأسي إليه وألقيت عليه السلام ثانية فرد علي وكأن السلام أثار فيه شجون من نوع خاص:

منذ أن حكمنا أصحاب العمائم نسينا السلام وما عدنا نعرف غير الحرب والقتل والدمار والتهميش والجوع فقد قُتلَ الفنانين وهُجروا وهربت مغنيات إيران وصرنا فجأة دولة متشددة دون أن نعلم كيف حصل ذلك.

جلست على الأرض ومددت رجلي مسترخيا فقد كنت قبل لحظات في عداد الموتى، وسألته هل أنت جندي إيراني؟

ضحك الرجل وقال:

ألا تعرف ملابس الجيش الايراني أو سلاحهم أو على الأقل اللكنة

التي أتحدث بها العربية؟

سألته كمن يسأل صاحبا له:

برايك ما الذي ستستفيد منه إيران بإطالة هذه الحرب التي تستنزف دماء وأموال البلدين؟

رد علي ببعض التشنج:

أنتم من بدء الحرب وعليكم تحمل تبعاتها.

اجبته بهدوء:

وهذا ما يخبروننا به على الطرف الآخر، يقولون أن حكومتكم هي من بدء الحرب من خلال الاعتداءات وقطع الماء والكثير من التفجيرات، وعلينا صد غزوكم فأنتم من رفع شعار تصدير الثورة.

جلس الرجل على الأرض ووضع بندقيته بين رجليه بعد أن أفرغ منها رصاصته الجاهزة والتي كانت مهيأة للاستقرار في جسدي وأراد التحدث فقاطعته أنا خالد مهدي عباس من بغداد.

أجابني بسخرية واضحة:

(خالد مهدي عباس) يوهمون الناس في إيران أنهم يحاربون الكفرة وهم في الحقيقة يحاربون رجل مسلم أي أكذوبة تافهة نعيش!

أجبته بنفس السخرية مع بعض الضحك:

وهم يقولون لنا أنكم فرس مجوس تعبدون النار ولا علاقة لكم بالإسلام وأنتم طامعين بخيرنا وثرواتنا فأي سخافة نعيش.

ساد الصمت للحظات وكان كل منا يعيد ترتيب ما بعد هذه اللحظة التاريخية حيث كنا أول شخصان يلتقيان من الدولتين الجارتين المتحاربتين فقطعت ستائر الصمت بسؤالي:

- ما أسمك؟
- ومالك وأسمي؟
- حتى أعرف على الاقل بما اناديك.
- لا أجد حاجة لإخبارك باسمي فأنت أسير لدي
- أنا لست أسير لأحد فلا أخاف بندقيتك ولا أخافك ولا هذه الحرب الغبية، فأخبرني بإسمك ولنكن اصحابا.

أنفجر الرجل ضاحكا طويلا حتى أني صرت أضحك معه وبصوت عالٍ، صارت ضحكاتنا تتردد بكل الاجواء وعلى قمة لم تعرف غير صوت الرصاص وانفجار المدافع ورائحة الدم ونتانة جثث الطرفين التي قد نحتاج أشهر لنستعيد رفات مجموعة قضت نحبها من أجل؟؟؟؟ الكثير من الاسباب الواهية.

رد علي وهو في الرمق الأخير من ضحكته الطويلة:

أنا لا آمن على نفسي من رفاقي في الخندق ولم أتخذ منهم صديق فما بالك وأنت من تحاربني وستقتلني مع أول فرصة سانحة لك.

نظرت إليه بجدية وبعض الحزم وسألته:

- هل تعرفني قبل اليوم؟
- هل أخذتُ من مالك؟
- هل قتلتُ أباك أو أخاك؟
- هل نافستك على عمل أو وظيفة؟
- هل اسأت إليك بكلمة أو فعل أو حتى اشارة؟

أجابني وهو بحالة من الاستسلام :لا

- فكيف أقتلك يا أخي؟

رد عليَّ كمن استعاد وعيه بلحظة:

لكن شعبينا في حالة حرب وعلينا أن نلتزم بتلك الحرب.

أجبته بقوة:

شعبينا ليسا بحالة حرب بل حكومتانا بحالة حرب لا نعرف حتى أسبابها الحقيقية أما نحن فقطيع أغنام نساق للذبح تحت مسوغات غبية ومبررات ساذجة.

نهضت من مكاني وصرت اتهيأ للرحيل ورحت أنفض التراب العالق على مؤخرة بنطالي العسكري فنهض هو فورا وأخذ بندقيته واعاد تصويبها لجسدي فأعدت سؤاله:

- ما أسمك؟

- زرادشت .

- وما يعني ذلك بالعربية.

- ومن لا يعرف الاله زرادشت؟

- استودعك الله يازرادشت وأتمنى أن تكون بمستوى تسمية أهلك لك.

- توقف وإياك والحركة.

- ساراك غدا هنا وبنفس المكان كي نتحدث بصفة الأصحاب لا الأعداء

- توقف أرجوك لا أريد أن أقتلك.

توقفت ورجعت إليه وأبعدت بندقيته باليد اليسرى ومددت يدي

اليمنى مصافحا وقلت له.

فكر جيدا هذه الليلة وأن قررت قتلي لن أحرمك تلك الفرصة ابدا، سأكون هنا في الساعة الثانية ظهرا لنكمل حديثنا.

مد زرادشت يده وصافحني بقوة مع ابتسامة جميلة غيرت ملامح وجهه المتحجر والخالي من المنحنيات تماما وقال:

أجعلها الثامنة مساءا بوقت مناوبتي حتى لا ينال شرف قتلك غيري.

عدنا للضحك ثانية وغادرت وأنا غير مصدق لما حدث لي من جهة وبنفس الوقت فرح لأن نظريتي بأن الشعوب أبرياء مما تقرره حكوماتهم من جهة أخرى.

مزقنا ظهر الطبيعة بقنابلنا وأحرقناها ببارودنا

عدت إلى موضعي المتقدم حيث رفيقي المقاتل العراقي الذي يرتجف خوفا عليّ ومني أيضا وصار يتكلم بتشنج كبير وقال لي:

أقسم أنهم سيعدمونك أيها المجنون.

قدمت له زمزمية الماء الخاصة به وقلت له ببرود واضح:

وهل سأعدم لأني احضرت بعض الماء يا رجل؟

رد عليّ بحالة من الرعب:

الأسبوع القادم سنستبدل باثنان آخران وسأخبر المسؤول عن فعلتك المجنونة وسيتخذون بك اجراء صارم.

جلست على الأرض واتكأت بظهري على أكياس الرمل المتراصفة مع بعض كي تمنحننا أمانا زائفا من موت لا يعرف الرحمة وأجبته براحة نفسية عكس ما هو عليه:

كان صوت الماء ساحرا سبحان من منح الأرض كل هذا الجمال، ونحن بنو البشر بدل الاستماع لانغامها الجميلة والاستفادة منها كمنتجعات سياحية نتقاتل عليها كالوحوش ونمزق ظهرها بكل وحشية ورعونة بالبارود الصادر من انفجارات قنابلنا.

أخذ رفيقي وضع القرفصاء بجانبي وقال مستفسرا وكله خوف:

- ألم ينل منك قناصهم؟

- لا

- ألم يأخذوك أسيرا؟

انفجرت ضاحكا:

- وكيف أخذوني أسيرا وأنا الآن معك بجسدي واتحدث اليك بصوتي؟

- كيف لم يروك وأنت كنت الأقرب لموضعهم الدفاعي؟

- لم أرى أي شخص هناك.

نهض من فوره وقال بحزم:

سأخبر المسؤول عن ذهابك فأنا لن أتحمل مسؤولية التستر عليك حيث افضل أن أكون متفرجا على أن اشاركك الاعدام رميا بالرصاص بتهمة الخيانة.

أجبته بطريقة ساخرة:

أخفض رأسك يا رجل فقد يصيبك قناصهم.

انخفض فجأة وكأنه سقط على الأرض وهو متأكد أني قد ورطته بما يفوق قدرته ومستواه.

هي الحاجة من تدفعنا لفعل الأشياء احيانا ولا شأن للحب ابدا.

قالت ماري ممازحة:

كما يبدو أننا اليوم لن نمارس غير قراءة القصص والتفتيش بأوراق الماضي؟

نظر خالد إلى علبة السجائر وقال لها:

رائحة السجائر نتنة ومزعجة فما الذي تحبونه في التدخين؟

- هل أُزعجكَ بتدخيني؟

- لا ولكن استغرب كيف يحب الانسان احيانا اشياء مزعجة كالخمر او التدخين وهو يعلم انها مضرة له؟

- هي الحاجة فقط ولا شأن للحب ابدا.

- صدقتِ هو التعود لا الحب

عادت ماري من الحمام وقالت له بحماس:

أكمل أرجوك ما بدأت فتلك رواية لا تصدق(صداقة بين عدوين) وفي جبهة القتال، وانفجرت ضاحكة.

خالد:

اقتربت الساعة من الثامنة وأنا أتحرق شوقا للذهاب لعين الماء التي كانت تلفها الاشجار مما جعلها موضعا للاختباء الجيد من عين

الطرفين العراقي والإيراني، لكن هي كانت الاقرب لهم، في الثامنة تماما لم أرفع الراية البيضاء وكان صاحبي يغط بنومه العميق بعد أن اقترحت عليه أن أخذ مناوبته فكان سعيدا بذلك فهو عاشق للنوم فهي الوسيلة الوحيدة لقضاء الوقت هناك في الجبهة طبعا مع القراءة للذين يحبونها في النهار فمحرم اشعال نور في الموضع المتقدم لأن ذلك يعني أستمكان العدو لنا وقصفنا خلال دقائق.

اندفعت مهرولا بلا سلاح باتجاه الأكمة المحيطة بالعين دون تفكير كمسرع لموعد حبيبة فقد كسر ذلك العدو الصديق زرادشت الملل والجمود في الجبهة الذي كنت اعاني منه، حتى وصلتها في الثامنة وخمس دقائق فرفع بوجهي (عدوي الحبيب) السلاح وقال من أنت، فأجبته أنا خالد لا تقلق فأستبدل فوهة السلاح بمصافحة يد وبحرارة.

جلست بجانبه فقدم لي صرة صغيرة فتحتها وإذا بها ثمار الجوز وقال لي:

هذه هدية مني لك كاعتذار على رفعي السلاح بوجهك.

على الفور صرت أكسرها بأسناني وقدمت له نصف جوزتي الاولى فمد يده وأخذها مني وهو في غاية الدهشة لأنني أطعمه بيدي وكأننا اصحاب لا أعداء سألته:

- هل أنت متزوج؟
- نعم أنا متزوج وعندي طفلة أسمها شهرزاد
- ما أجمل الأسم فهو يحمل نكهة الألف ليلة وليلة.
- صدقت هو كذلك فقد اعجبت جدا بقراءة قصص ألف ليلة

وليلى، هل أنت متزوج؟

- لا فقد حرمتني الحرب اللعينة من الارتباط بالحبيبة.

ضحك زرادشت بحماس وكأنه أمسك أول الخيط وقال:

أحكِ لي قصة حبك فأنا مولع بقصص الحب وروايات الغرام.

تركت تكسير الجوز وتأملت قليلا تلك الأيام التي لم يمضي عليها الكثير من الزمن لكن تبدو كأنها منذ دهور مضت لصعوبة ما مررت بها من احداث هذه الأيام:

كيف للنجاح أن يكون لحظة تعاسة
في وطني كل شيء جائز

كان الجميع يتدافع أمام القوائم التي رصت مع بعضها لتعلن أسماء الناجحين ودرجاتهم، وطلاب المرحلة الرابعة كلية الآداب قسم اللغة الانكليزية أكثرهم قلقا وخوفا.

رحت أكلم نفسي بعيدا عن تلك القوائم المعلقة وكأن الأمر لا يهمني مع أني طالب في المرحلة الرابعة:

كم تمنيت نجاحي وأنهائي دراستي الجامعية كي أرسم البسمة على وجه أمي التي لا تملك أي مصدر للابتسامة غيري أنا ونجاحاتي، التي لم تتجاوز تفوقي الدراسي وطول قامتي المستمر دون توقف إذ كانت تقيسه كل يوم تقريبا وهي فرحة حتى أني كنت أضحك منها ومن تصرفها هذا وأقول (برأيك كم يمكن لي أن أطول في ليلة وضحاها) فتسكتني وتقول:

أسكت يا ولد فأنا أحتفظ بهذه الخرقة من عمرك العشرة أشهر عندما بدأت بالمشي المبكر غير باقي الصبية فأحضرت خرقة وبرمتها حتى صارت المتر وكنت أحلم باليوم الذي تبلغ نهايتها وتصله وتحقق أمنيتي وها أنت قد بلغت المئة والثمان والثمانون، سأُبقي هذه الخرقة لأولادك أقيس بها طولهم ما أمدني الله من حياة.

لكن تخرجي من الجامعة يعني زوال عذري الوحيد من الذهاب للحرب والقتال في الجبهة.

كان طلاب المراحل الأخرى فرحين جدا إلا نحن طلاب المرحلة الرابعة فتخرجنا يعني سقوط حجتنا في التهرب من الذهاب إلى الجبهة، فعام ١٩٨٧ كان عامنا السابع في الحرب مع إيران، ولم تكن هناك أي بوادر لتوقف تلك الحرب التي كانت تأكل الشباب بلا رحمة.

لم أكن أبحث عن أسمي لأني أعرف مسبقا أني ناجح، ولكن كنت متشوقا لمعرفة تقديري لأنه مهم عندي من الناحية المعنوية على الأقل، مع أن ذلك لا يهم في بلد يتبع النموذج الاشتراكي، والأدهى من ذلك أن كل المتخرجين والراسبين أيضا سيتوجهون قريبا إلى الجبهة ، وهناك لا ينفع أي تقدير حصلت عليه.

(جيد جدا) قرأته أكثر من مرة لأقنع روحي الحزينة بشيء يدعوا للفخر لا أكثر، وكي اتناسى المحنة الكبرى التي أنا بصدد المرور بها (الخدمة العسكرية).

كلٌ كان يبارك الآخر وكأنه في مأتم فالكل يعرف أن الكثير منهم سيلقى حتفه بطريقة ما، بعد أن يمسك موقعا للدفاع عن الوطن.

جلست في الحديقة الصغيرة فإذا بعبير تلك الفتاة الطويلة والرشيقة مع بشرة بيضاء ناعمة ووجه كوجه الشمس بنوره ودورانه تمشي مسرعة كظبية مسرعة لا تعرف غير القفز واللعب باتجاه القوائم لتحاول إيجاد اسمي وأسمها، رغم أني أعرف نتيجتها قبل أن أعرف نتيجتي لكن حجم الضغط النفسي الذي كنت أعانيه أثقلَ علي جداً فتركتها تعيد الكرة وأنا أنظر إليها كمن أصيب بشلل عن الحركة والكلام.

كنت أجلس على المسطبة وقد وضعت كوعي على ركبتي وأمسك رأسي بيدي، أما عبير بعد أن وجدت الاسمين وعرفت النتيجتين صارت تدور برأسها كمجنونة باحثة عني دون أن تراني ففرحتها في التخرج أفقدتها البصيرة.

رفعت يدي مشيرا لها (أني هنا)، فكانت يدي كمن يمدها لغريق ينقذه من غرق محتم في دوامة البحث والشوق.

جلست عبير بجانبي وهي تلهث وقالت:

ما اخبثك تجلس هنا وتراني أبحث عنك ولا تدلني عليك.

كان الصمت جوابا مني لها فأكملت مسترسلة في كلامها:

ألف مبارك يا حبيبي أخيرا صار بالإمكان أن تتقدم لي.

ضحكت ساخرا وقلت:

وتلك المحرقة التي لا تبقي ولا تذر التي نسميها جبهة القتال.

عبير:

سأدعو لك من كل قلبي أن تعود سالما وعندما تنتهي الحرب سنتزوج.

عدت لضحكتي الساخرة وقلتُ:

مئات الالاف قتلوا على مدى سنواتها السبعة الماضية، ترى أما كانت أمهاتهم وزوجاتهم وأخواتهم وحبيباتهم تدعوا الله أن يعودوا سالمين.

عبير:

يبقى للتخرج فرحة علينا أن نعيشها يا حبيبي. أخيرا سأنام واصحوا على ما أشتهي وبالتوقيت الذي يعجبني ولا أحد سيكون له الحق بإيقاظي ولأي سبب.

ضحكت وروحي تبكي من الداخل على بساطة تفكيرها وطرافة روحها، بينما قالت عبير بنوع من الدلال الانثوي الرائع:

عليك التهيؤ لتتقدم إلي خاطبا خلال أيام، فأنا لا أضمن لك بقائي آنسة كثيرا فطلاب يدي كثيرون.

اجبتها:

وهل تحتملين ابتعادي عنك ساعات حتى تبتعدي عني عمرا.

عبير وهي تضع رجلها فوق الأخرى وتنظر إلى السماء بتعال:

طبعا استطيع.

ضحكت حينها من قلبي لمنظرها التمثيلي الكوميدي فنهضت وأخذتها من يدها:

سأدعوك اليوم على الغداء كرشوة حتى لا تنسيني يا صغيرتي.

تركت يدي وراحت تصفق فرحا وكأنها طفلة صغيرة.

كيف للنجاح أن يكون لحظة تعاسة
في وطني كل شيء جائز

كانت أمي تنتظر حضور وحيدها بفارغ الصبر وقد أعدت الطعام لكن أبنها لم يهل عليها كهلال العيد الذي ينتظره المسلمين بفارغ الصبر، كانت تنتظره كي تفطر على رؤيته بعد أن أمسكت منذ أن ودعته في السابعة صباحا، وها هي الساعة قاربت على الرابعة عصرا وهو لم يصل بعد.

كانت تلك المرآة المتعبة جدا تبدو في الخمسين من عمرها لكن في الحقيقة هي لم تتجاوز الواحدة والأربعين، إنما هي الحياة التعبة التي تعيشها، فقد كانت تمتهن الخياطة وكذلك خياطة العباءة العراقية التي تتفرد المرآة العراقية بلبسها دون كل نساء الكون والتي تحتاج أن تخاط باليد فقط لا بالماكنة بغرز ناعمة جدا.

طَرقتُ الباب فقفز معها كل ما في البيت حيث كان الكل بانتظار الطارق، وبالفعل كان خلف الباب روحها التي تسير برجلين (خالد).

قالت لي دون أي سلام:

أبشر يا حبيبي؟

أجبتها:

تخرجت يا أمي بتقدير جيد جدا.

كانت فرحة الأم كبيرة فراحت تحاول أن تزغرد بصوتها المبحوح رغم أنها لا تتقن ذلك أصلا وانتهت كل محاولاتها بالبكاء فرحا

وحشرجة تعلن أنها سعيدة جدا.

قبلتها من جبينها أكثر من مرة لكني في الأخيرة أطلت مكوث شفتي على جبينها الأبيض طويلا وأنا أحتضنها تلك الكتلة من الحنان والرحمة الربانية.

كان الناظر لنا يعتقد أني احتضنها حبا فقط، لكن في الحقيقة كان بودي أن أبكي وأختبئ في حضنها فرغم نحافة الجسد وضخامتي لكنها كانت وطن بوسع الكون، كما كنت أفعل في صغري عندما يضربني أحد الأولاد الأكبر مني سنا، ولم استطع الدفاع عن نفسي ضده إذ لم يكن لي أخوة يدافعون عني كباقي الأولاد الذين في سني، أو أبا يرفع الحيف عني، بل وحتى أُماً ذات لسان سليط كي تهاجم أمهاتهم بلسانها الوقح وتنتقم لوحيدها، إذ طالما أرضتني وأرضت دموعي بأن الله سيسجلها في ميزان حسناتي وسأسترد كل ما فعله الآخرون بي من سب وشتم وضرب في يوم القيامة.

تركتها وتوجهت إلى غرفتنا الصغيرة حيث كان بيتنا البسيط جدا يتكون من غرفة نوم واحدة وغرفة معيشة فقط تم اقتطاع منها مكان للطبخ فصاحت علي بصوت كله فرح:

استبدل ملابسك وتعال فقد أعددت لك طعام يليق بمن أفرح قلب أمه ورفع رأسها عاليا بين النساء.

- لقد تناولت طعام الغداء مع عبير يا أمي.

توقفت تلك الضجة فجأة فعرفت على الفور إن التوقف عن إصدار ضجيج الأواني وسيادة الصمت سببه أنا فقد أحزنتها لذلك عدت إلى حيث تقف في المطبخ الصغير وأحتضنها وقلت:

أحرجتني تلك الطفلة الصغيرة عبير وطلبت بنفسها أن أدعوها للغداء بمناسبة التخرج وكان صعبا أن ارفض.

قبلتني أمي مع ابتسامة رضا وقالت ملوحة بأداة غرف الرز (الجفجير) كما نسميه في العراق:

لو رفضت لضربتك بهذا فلا أقبل أن يقال عن وحيدي أنه بخيل.

ابتسمت ورحت أنظر بعيني ذلك الملاك طويلا و بصمت إلا أن ابتسامتي كانت تحكي الكثير من الحب والشوق والخوف والحاجة للبكاء كانت المشاعر تتزاحم في روحي فلا أعرف لها نكهة ولا طعم ولافهم سوى أني أشعر بالخوف.

تتزاحم في روحي المشاعر
لا أعرف لها نكهة ولا طعم
سوى أني أشعر بالخوف.

كان التدافع على مركز التجنيد كبير وراحت الموجات البشرية تدفع بعضها كتلاطم أمواج بحر هائج لا تهدأ رياحه ولا تتوقف عواصفه ،من المؤكد ليس حبا بالقتال بل لأن المتخلف عن الخدمة سيعاقب بشدة، وسيطارد كل يوم وليلة ولن يستطيع العمل في أي مكان دون تقديم (دفتر الخدمة) وهي الوثيقة التي تثبت سلامة موقفك من الخدمة العسكرية أو (خدمة العلم).

أخيرا وبعد ساعات عدة تم تأشير أسمي كمراجع للمركز كي يضمن عدم إدخالي ضمن قوائم المتخلفين، وتعين أسمي إلى أحد مراكز التدريب الأساسي في المحافظات، وأن علي الالتحاق بعد غد إلى مركز التجنيد ومن ثم يتم نقلنا بحافلات إلى مراكز التدريب.

كان ذلك التقسيم أول سوء حظ لي في خدمتي العسكرية فهناك الكثير من المراكز التدريب القريبة من بغداد العاصمة أما هذا فيعتبر بعيدا نوعا ما فهو يبعد عن بغداد كثيرا.

رن الهاتف الأرضي ذو الطراز الكلاسيكي في صالة ذات اثاث راقي ومرتب جدا والذي يعكس بحبوحة العيش فردت عليه أم عبير:

نعم تفضل.

كان الارتباك واضحا على أمي الطيبة لكن تشجيعي لها كان يجبرها على الإكمال فقالت:

مرحبا.

أم عبير بلغة استغراب:

- أهلا وسهلا تفضلي؟

- ممكن اكلم عبير؟

- ومن حضرتك؟

- أنا زميلتها.

- وما أسمك؟

كنت أشارك أمي الاستماع لما تقول تلك السيدة واضعا أذني بالقرب من السماعة لأعرف ما يجري فأسرعت بإنقاذ أمي التي أبعدت الهاتف عن إذنها وراحت تنظر إلي برعب فقلتُ لها هامسا:

أمل....أمل .

فكررت أمي بعدي بارتباك:

أمل ...أمل.

مع عدم اقتناع أم عبير بما يجري لكنها أبلغت عبير بأن إحدى صديقاتها تريد أن تحدثها عبر الهاتف، وراحت تراقبها عن بعد لتقع على الحقيقة الاتصال الغريب.

ردت عبير:

نعم يا أمل كم اشتقت لك.

عندما سمعت صوت حبيبتي أخذت السماعة من أمي وأشرت لها

بوجهي أن ابتعدي، فهزت المسكينة يدها ساخرة وراحت تتحدث بصوت عالٍ مع نفسها وتُسمعُني:

قبل قليل كنت تقبل يدي وتتوسلني كي اتصل بها وأنا ارفض والآن تصرفني بقلة أدب يا لك من ناكرا للجميل.

حينها صرت اتحدث مع عبير بهمس وفي نفس الوقت ارسل قبلاتي الهوائية معتذرا من أمي التي تركتني غاضبة.

عدت الى عبير اكلمها بصوت ملؤه الحب:

أحبك.

أحمر وجه عبير خجلا فأنا أعرف وقع هذه الكلمة عليها وعلى وجهها الابيض الفاضح لكل تلون مشاعر الحب

- وأنا أحبك أكثر.
- الأسبوع الماضي كان كأنه دهر.
- كنت ترافقني ولم تفارقني لحظة واحدة.
- أريد مقابلتك.
- صعب.
- سألتحق بمركز التدريب بعد غد، ولا بد أن أراك.
- صعب جدا.
- إذن سأكون اليوم أمام بابكم في العاشرة مساءا أسلمك رسالة.
- لا تكن مجنون أرجوك.

أغلقت الهاتف واتجهت على الفور لأمي التي لازالت تكلم نفسها بامتعاض، فقبلتها...

- أنتِ ست الكل.

- ستخدعني مثل كل مرة وأعرف حماقة قلبي معك.

كانت أم عبير تراقبها بشدة وما أن أغلقت الهاتف حتى هاجمتها بالسؤال:

- يبدو أن صديقتك غاضبة منك؟

- لا أبدا.

- لم الحظ إنك ودعتها كما استقبلتها بحرارة اللقاء.

ضحكت عبير بارتباك وقالت:

أحبها رغم تصرفاتها السخيفة.

زادت حدة نظرة أمها إليها وبعد عدة ثواني تنتظر بها عبير السؤال التالي، تركتها أمها وغادرت المكان، فزفرت أنفاسها التي اختنقت بها وهي تحمد الله على عبور الأمر بسلام.

أنت البحر وأنا النورس
فكيف للنوارس أن تحيا بلا شواطئها

في الشارع العريض للحي الجميل والراقي الذي ملأ أنوارا صفراء وبيضاء غالية الثمن تعكس الحالة الثرية لساكنيه، كنت أحسب خطوات قدمي وعينيي تحسب الأبواب، لم يكفي المرور مرة أو اثنتين كي ألمح حبيبتي فكان علي أن أعيد الكرة أكثر دون كلل أو ملل، كل ذلك وعبير تراقبني من نافذتها فاستجمعت كل قوتها وتوجهت إلى المطبخ وأخذت كيس النفايات واتجهت إلى الباب الخارجي كي تتحجج بألقائها لتصل إلى الباب الخارجي.

لمحتُ عبير التي فتحت الباب الخارجي بحجة رمي النفايات فاتجهت إليها بعد أن نظرت يمنة وشمالا عدة مرات وكأني طفل يريد العبور في شارع مزدحم.

وما أن اقتربت منها حتى همست:

الآن فقط تنفست برؤيتك يا حبيبتي.

عبير:

- أنت البحر وأنا النورس فكيف للنوارس أن تحيا بلا شواطئها.
- كم أحتاج لضمك الآن.
- وكم أحتاج أن أختبئ في جيبك وتهرب بي إلى آخر الدنيا.

مدت يدي إلى جيبي وأخرجت رسالة:

خفت أن لا تقرئي ما كتبت فإذا أنا أتبادل معك الكلام، فما أكرم القدر وما أسعدني بك.

قَبلتُ الرسالة قبل أن أعطيها لها وغادرت كالسارقين أو القتلة المجرمين، وأنا أتمتم:

تبا لمجتمع مازال يرى في الحب عيب وحرام.

أغلقت عبير الباب الخارجي واستدارت واتكأت على الباب ووجهها يشع حبا ورومانسية، وهي تغلق عينيها ولا تفتحهما لأنها تريد أن تستمتع بآخر نظرة لحبيبها، و أن تعتصر الذكرى وتطيل وقت نشوتها.

بعد أن ارتوت من رؤياها فتحت عينيها وهي تروم العودة إلى البيت فإذا أمها بوجهها مباشرة دون أن تشعر ، كانت قريبة لحد أنها لو تنفست سمعت أنفاسها.

صعقت فألجمت تلك الصعقة لسانها فبقيت صامتة لكنها فاتحة فاهها خوفا ودهشة، فبادرتها أمها وقالت:

ما كنت تفعلين؟

لم تجد ما ترد عليها وكأن عقلها غادرها وتخلت عنها المفردات كلها فصارت كالمجانين لا تعرف ولا تفقه قولا.

لو اعترفت لك أني خائف يا أمي...
هل ستعتبرينني جبانا؟

عدت إلى البيت في الحي الفقير والبسيط، فمررت على مجموعة من الشباب ورحت اتسامر معهم على قارعة الطريق فتلك عادات شباب المناطق الفقيرة والشعبية، وبعد ذلك توجت إلى البيت فوجدت أمي بانتظاري تُخرجُ رأسها من الباب كل خمس دقائق وهي في قمة القلق، ودون أن تشعر صحتُ بها (بخ)، فضربتني على رأسي وقالت بلهجة بغدادية:

(الله لا ينطيك)

احتضنت كفيها بلطف وقبلتهما وقلت لها:

إلا هذه الدعوة يا أمي أخشى أن يستمع الله لدعائك ويحرمني من عبير لأني أعشقها حد الموت.

احتضنتني أمي بينما أخفيت رأسي بين ذراعيها واضعا إياه على صدرها رغم طولي وقصرها النسبي، وقالت:

الملائكة لا تصدق دعوات الأمهات السيئة على أبنائهن يا وحيدي.

أطلتُ المكوث برأسي على صدر أمي حتى سألتني:

أشعر بك قد تغيرت جدا كأنك اصبحت شيخا في ليلة وضحاها.

- لو اعترفت لك أني خائف يا أمي هل ستعتبرينِني جبانا.

ضحكت مطمئنة إياي:

ومن لا يخاف الموت يا ولدي.

رفعت رأسي ورحت أنظر في وجه أمي...

بل أخاف عليك يا أمي الوحدة من بعدي فأنت لم تفارقيني ليلة واحدة طوال حياتك، فأنا الوحيد الذي يعرف معنى أن تخسري وحيدك.

- عندها سيكون الموت أرحم يا حبيبي، لا تخف فقلبي بارد كالثلج ومتأكدة أنك ستكون بخير وستعود إلي سالم معافى.

أعدت رأسي إلى صدر أمي:

- كم أراحني كلامك هذا فقد كنت أخاف عليك الوحدة.

قطعت أمي تلك اللحظات الحنونة وهي تضربني على رأسي وهي تقول:

أم أنك تخاف على حبيبة قلبك عبير يا شقي.

رفعت رأسي وأجبتها:

عبير عندها من يواسيها وأنا على يقين أنها ستتزوج عاجلا أم أجلا لكن خوفي الحقيقي هو عليك يا وحيدتي.

كسرت أمي هذا الجو المشحون بالعاطفة وقالت:

الطعام بانتظارك الآن.

جلسنا معا على الطاولة البسيطة فوضعت دجاجة مشوية وراحت تقدم كل ما في الثلاجة من مخلل معمول في البيت وسلطة عراقية تقليدية هي قطع من البصل مع الطماطم فقلت لها ممازحا:

- دجاجة كاملة عجيب؟

- ولما العجيب في الأمر يا ولدي؟

- تعودتِ أن تصنعي نصف دجاجة أنا آكل ربعها الأول في الغداء

وأنت تحتفظين بربعك الآخر كي تقسمينه بيننا في العشاء.

- حياة الجيش الصعبة يا ولدي عندها ستعرف معنى الدلال الذي تعيشه الآن.

أخذ ت يد أمي وقبلتها:

- وهل أنا بحاجة لدخول الجيش لأعرف حجم دلالك أيتها الغالية.

كعناق أخوة يعودان بالنسب لآدم
ولا يعرفان قابيل وهابيل

قاطعني زرادشت وبحماس شديد:

أترك الدجاج يا رجل وأخبرني بمصير حبيبتك التي أمسكت بها أمها متلبسة برسالتك أيها السندباد المغامر.

ضَحكتُ بصوت عال فوضع يده على فمي وقال:

هل جننت سيسمعك رفيقي في الموضع وربما يهرع إلى هنا ويقتلك فاليوم معي مقاتل آخر عكس الأمس.

نظرت إليه بتمعن وقلتُ له باستغراب:

أتخاف عَليَّ من رفيق موضعك والذي يشاطرك الجنسية نفسها؟ وأنت بالأمس كنت ترفع البندقية لقتلي، أي مفارقة هذه التي نعيش.

أطرق رأسه إلى الأرض وهو ينظر إلى يديه وقال:

أنا لم أطلق رصاصة في حياتي على أحد، بل كانت أناملي هذه ترسم الحب والجمال وجسد النساء الجميلات، حتى أوراق الشجر المتساقطة في الخريف كنت احولهن للوحات جميلة تدهش الناظرين، حياتي هي التنقل بين المعارض الفنية والتعرف على الممثلات وعارضات الأزياء، حتى تغير كل شيء في لحظة، جاء رجال الدين بفكرهم الظلامي أغلقوا كل ما يمثل الحياة ويمنحها الجمال، مسارح سينمات معارض وقاعات بحجة أنها من ملاهي الشيطان فرضوا منع الاختلاط في المعاهد والجامعات وفرضوا الحجاب بالقوة وسلطوا علينا صبية

صغار مدججين بالسلاح أغلبهم لم يكمل تعليمه، وبثوا القتل والدمار والحروب ويدعون أنها أعمال ترضي الرحمن، شوهوا صورة الله في الارض وجملوا صورة الشيطان في أعيننا.

خرج زرادشت من حالة البوح التي عاشها للحظات وكأنه استفاق وقال:

أكمل لي أرجوك فأنا أريد معرفة ما حصل لعبير.

عدتُ للضحك ثانية وعاد ليضع يده على فمي وهو يقول:

أنت غبي عكس ما يبدو عليك من ذكاء، ها أنت تكرر خطؤك ثانية دون أن تتعلم.

أكملت ضحكتي بهدوء ما قبل الفجر وسبات كل من على الأرض وقلت له ممازحا:

كأنك وقعت في غرام حبيبتي العراقية وأنت لم تسمع بها إلا منذ عشر دقائق؟

أجابني بصوت كله صدق وحب:

- نعم أحببتها واحببت أمك كما أحببتك أنت أيضا فمصيبتنا واحدة.

- وأنا أحببتك أيضا يا أخي.

دون أن نشعر تعانقنا معا وبحرارة كعناق أخوة يعودان بالنسب لآدم لا لقابيل وهابيل اللذان قتل احدهما اخيه ، بعدها نهضت مباشرة وقلت له (وداعا)

صاح بي وهو جالس:

- إلى أين وباقي القصة؟

- سأخبرك إياها غدا بأذن الله في نفس الموعد.
- سأنتظرك بفارغ الصبر عند الثامنة تماما

نفذت علبة سجائر ماري فراحت تسب وتشتم الحظ العاثر فقال خالد لها مستغربا:

- أنتِ كمن خسرت أمولا في البورصة هي مجرد علبة سجائر وأنتِ من قام بتدخينها الحمد لله أني لم أخذ منك واحدة وإلا كنتِ قتلتني الآن.

- لا تتملص من المسؤولية أنا لا أدخن بهذا النهم لولا حكايتك الغريبة جدا.

ضحك ساخرا وهو يقول:

أنت لم تسمعي شيئا من الغرابة لحد الآن ربما عليك احضار الكثير من السجائر في المرة القادمة أو الاقلاع عنها تماما.

أيّ قادمة أيها المخادع أكمل الآن وإلا قتلتك بيدي أو أحرقتك بدل سجائري.

كفراشة أنا وجناحيها (حبك)

أعادت أم عبير سؤال أبنتها ما تفعلين الآن وفي هذا الوقت المتأخر؟

عبير:

كنت أرمي كيس النفايات.

أم عبير:

وهل رميته؟

عبير:

نعم.

أم عبير:

وما هذا الذي بيديك؟

وضعت كلتا يديها خلف ظهرها لتخفي الرسالة وأجابت:

لا شيء يا أمي.

اقتربت أكثر أم عبير ومدت يدها خلف أبنتها وهي تنظر بطريقة مرعبة إلى أبنتها وسحبت شيء تعلقت به أصابع عبير بقوة، لكن ألام كانت أكثر إصرارا ووضعته أمام عينها وقالت:

وما هذا يا ترى؟

نظرت إلى ما بيد أمها فتنفست الصعداء وقالت:

كيس النفايات.

أم عبير:

ترى ما رميت في الحاوية؟

قبلت أمها من خدها بحب وقالت لها وهي تغادرها مسرعة:

لا ضير يا أمي ارميه أنتِ.

أنفجر زرادشت ضاحكا فأمسكته من يده محذرا وكررت ما قاله لي سابقا وكنوع من التهكم

(اخفض صوتك كي لا يسمعك الآخرون).

زرادشت :

يا رجل منذ مساء الأمس وأنا قلق على البنت والموضوع أنتهى بهذه البساطة كم أنت مخادع.

الانضباط العسكري لا يعني الإهانة

صرنا نضحك مع بعض فكرر كلمته التي لازمته(أكمل) فأكملت وكلي فرح بهذا الصديق الذي بعثته لي السماء:

أجتمع جميع المجندين من أعلى شهادة الدكتوراه حتى الذي لا يجيد الكتابة وراح الجميع يتوجه إلى الحافلات المعدة سلفا لهذا الغرض، بينما كان صوت الطبل والبوق يعزف لحنا شعبيا راقصا ليرفع من معنويات المجندين، حتى أن البعض صار يرقص ليزيح عن نفسه حالة التشنج والخوف من القادم.

عندما وصلت الحافلة جسر النهضة الذي عرف بأسم المرآب الأكثر بغضا عند شباب بغداد إذ كان التحاق أغلب العسكرين يكون من خلاله لوحداتهم على الحدود صرت اتأمل بغداد الكبيرة والتي تمتد تحتي على مد البصر أحيائها الكثيرة الفقيرة منها والغنية ، وأنا أحدث نفسي:

ما أوسعك يا بغداد وما أجملك، ومع ذلك لا أملك فيك شبر واحد، يكون منزلا لي ولأمي ينقذنا من ذل الإيجار المذل، وها أنا أتوجه للتدريب كي أحارب دفاعا عنك، بينما يتخلف عن القتال من يملك فيك آلاف الأمتار.

كان أيلول قد مر منه يومان عندما وصلت الحافلة إلى مركز تدريب حيث نزل الجميع ودخلنا مركز التدريب فباشر العرفاء بتوزيعنا على

فصائل ومن ثم بدئوا بتوزيع الملابس العسكرية علينا فكانت حصتي بدلة أصغر بكثير عن مقاس جسمي الطويل فعدت للعريف اسأله أن يستبدل بدلة التدريب هذه لأنها صغيرة جدا علي، فأجابني بسرعة دون أن ينظر إلي لأنه كان منشغلا بقراءة أسماء المجندين:

جد من يتبادل معك فهناك من بدلاتهم بحجمك وهم بحجم بدلتك.

- لما لا توزعون البدلات كل حسب مقاسه من البداية.

توقف العريف ونظر إلي نظرة مرعبة:

وهل تحسب نفسك بأحد أسواق الملابس في المنصور أو الكرادة أذهب إلى الحلاق ليحلق هذا الشعر الجميل نمرة أربعة وإن جادلت ثانية فسأجعلها نمرة صفر و لتعش حالة الصلع وأنت في العشرينيات.

انسحبت من الجدال مع العريف لأني أعرف جيدا أنه قادر على أن ينفذ تهديده بكلمة واحد، واتجهت إلى طابور الحلاقين وقد تراكمت خصل الشعر فوق بعضها، فمددت يدي اتحسس شعري العالي الذي سأفتقده لمدة وحده الله يعلمها، لم يمض وقت طويل حتى صرت اتحسس ما تبقى من شعيرات باقية بالكاد ترتفع عن بصيلات شعري حيث بقيت تلك الحركة تلازمني بل صارت سلوتي حتى قبل النوم على تلك الأسرة التي ما ملت من الصرير سواء بسببي أو بسبب زملائي فالحديث ممنوع بعد العاشرة ليلا والأنوار مطفأة لكن هي الوحيدة التي لم تطع الأوامر ولم تتقيد بها.

في الرابعة والنصف صباحا صرخ العرفاء في القاعات بالكلمة الأكثر

رعبا في حياة الجنود (أنهض).

اتجه الجميع إلى الحمامات بسرعة والكل يتدافع على حلق ذقنه إذ لا يجوز حلق الذقن إلا في الصباح.

بعد الوقوف في ساحة التدريب أو كما تسمى بالمصطلحات العسكرية(ساحة العرضات)، بدء التدريب الرياضي وكان شاقا جدا على شباب كانوا بالأمس مدنين ولا يعرفون شيء عن الالتزام العسكري فراح الكثيرين يتساقطون من شدة التعب فينهال عليهم المدربين بالضرب باسلاك الكيبلات الغليظة، فضغطت على نفسي حتى لا أنهار واسقط فأعرض نفسي لهذه الاهانة التي يسمونها تدريب.

في الاستراحة تجمع الكل لشرب الماء من خزان للماء الوحيد المسموح للمتدربين الشرب منه، كان ساخنا بسخونة الطقس في العراق والأدهى أنه وضع تحت الشمس مباشرة ليكتسب حرارة مضاعفة لدرجة أنه يحرق الجوف بدل أن يروي ظمؤنا بسبب الركض والتدريب.

مرت الأيام في مركز التدريب وكأنها سنين تغير فيها شكلي جدا فقد أصبحت أنحف بكثير واسودت بشرتي وتدريجيا رحت انافس الآخرين على الطعام بوحشية أو أتسابق كي لا أكون آخر الواصلين فأنال تعليم أضافي.

وفي يوم قام العرفاء بجمع الدورة كلها استعدادا لزيارة أمر المركز، فأجلسونا تحت منصة الاستعراض بينما جلس الآمر على المنصة وراح يتحدث لنا عن أهمية الجيش وأهمية الدفاع عن الوطن وعدالة المعركة، وبعدها سأل إن كانت لأحدهم حاجة وبعد تردد رفعت يدي فأذن لي الرجل بالكلام:

سيدي عندي طلب.

فصرخ بي رئيس العرفاء زاجرا:

عرف نفسك أيها المجند قبل الحديث مع السيد الآمر.

فعرفتُ نفسي وأكملت:

سيدي هناك أمران أريد أن استعلم عنهما، الأول لما لا يسمح لنا بحلق الذقن ليلا لأننا نتزاحم عند الصباح في الحمامات.

وقبل أن اكمال قاطعه الآمر:

نريد تعليمكم سرعة حلق الذقن والتقيد بالوقت وهذه من شروط الانضباط.

فأجبته بحسن نية وكأني أناقش أحد أساتذتي في الجامعة:

وما دخل سرعة حلق الذقن بالمهارات القتالية هل سأحارب بشفرة أم ببندقية.

ضحك الجميع بصوت عال بما فيهم العرفاء إلا رئيسهم الذي نظر إلى الآمر فوجد أن وجهه راح يشع نارا فصرخ بالجميع بصوته الجهوري المرعب:

(اثبت).

رد الآمر وهو يحاول ضبط أعصابه وإظهار كياسته:

- تلك أمور ليس من شأنك، فأنت لم تدخل العسكرية إلا من أيام، وما لأمر الثاني؟

- خزان الماء موضوع في مكان مكشوف للشمس وأن كنتم غير قادرين على توفير ماء بارد، على الأقل لا تجعلونا نشرب ماءا مغلي بسبب الشمس الحارقة.

نهض الآمر وقال مودعا أتمنى لكم التوفيق أبنائي، وتوقف لحظة وأشار إلي وقال:

أحلقوا شعر هذا المجند نمرة صفر واحرموه من النزول لمدة أسبوعين.

عندها صرخت:

وما الذي عملته يا سيدي أنا سألت عن السبب فقط.

توقف الآمر بعد عدة خطوات وألتفت إلي فصمت الجميع وقال:

أحجزوه إلى نهاية الدورة.

رحت أصرخ بقوة:

أنت من قال هل لأحدكم حاجة وعلى هذا الأساس تكلمت بأسم الباقيين، هذا ظلم ...ظلم.

توقف الآمر وقال بصوت غاضب جدا

أحضروه إلى هنا.

في الحال تقافز العرفاء وصار الجميع يتقربون بي زلفى له، فهذا يسحبني من يدي وآخر يسحبني ملابسي فكنت أمامه في لحظات، وبلحظة رفع يده وصفعني بكل قوة فلم احتمل تلك الاهانة وحاولت ردها فهجمت عليه، إلا أن العرفاء انهالوا علي ضربا حتى أفقدوني وعي.

لا ألومك أن رأيت القبح في وجهي
فهو مرآة تعكس قبح أفعالك.

استفقت فوجدت كل ما حولي مظلما فسألت نفسي هل أنا فاقد البصر أم أن المكان مظلما لأن الوقت ليلا.

حاولت التحرك فشعرت بصعوبة بالغة من شدة الضرب المبرح، دون شعور عدت لفقدان الإحساس بالمكان والزمان لكن هذه المرة من خلال النوم.

في الصباح فُتحَ الباب بقوة ودخل علي اثنان من العرفاء وراحا يركلاني بأحذيتهما وهما يقولان:

أنهض أيها المذنب الجميع ينتظرك في الخارج.

حاولت الوقوف لتفادي الضرب لكن لم استطع ذلك بسبب الرضوض التي أصابت جسدي فأضطر العرفاء لجري إلى ساحة التدريب ورمي أمام آمر مركز التدريب.

صار الآمر يتهدد ويتوعد الجميع بأن من يكرر فعل هذا الشخص الغير مؤدب سينال ما ناله هذا المشاغب وأكثر وأمر أحد العرفاء بحلاقة شعري بنمرة صفر كعقوبة.

بعد أن أتم العريف الحلاقة وجه الآمر كلامه إلي وعلى مسمع من الجميع وقال:

إن لم يعلمك اهلك الأدب سأعلمك أنا إياه هنا، فالعسكرية مكان

اصلاح لعديمي الانضباط امثالك.

سكت الآمر منتظرا أن أبدأ بالتوسل له وسط صمت الجميع، لكني قمت باستغلال ذلك الصمت بالرد عليه بصوت عال جدا فقد كنت أريد أن أُسمعَ كل من في المركز صوتي:

أنا مؤدب غصب عنك يا ظالم، أنت من يحتاج أن يتعلم احترام الإنسانية واحترام المنصب العسكري فالعسكرية شرف لا تعدي على الشرف.

احتار الآمر بما يرد علي فصرخ بالعرفاء أن أرموه في الغرفة وأن لا يخرج منها أبدا حتى لقضاء حاجته.

في الليل سقطت دمعة حارقة من عيني لا بسبب الجوع الذي آلم معدتي ولكن لحجم الذل الذي أنا فيه دون أي سبب، بينما امتلأ وجهي بالدماء التي كانت تنزف تحت الجلد لتتحول إلى دوائر مزرقة، وراحت عظامي توجعني وتئن لا بسبب الكدمات والرضوض فقط بل بسبب النوم على الأرض الكونكريتية الصلبة منذ يومين.

مر أسبوع وأنا على هذه الحال البائسة من الجوع والرائحة الكريهة جراء التغوط القريب والبول الذي كنت اضطر للتبول على الحائط، إذ لم يمنع اتساع الغرفة من أن تتحول رائحتها لكل تلك العفونة.

فُتحت الباب ودخل علي عريفان وبدء أحدهما بالصراخ علي والسب والشتم لكن الثاني طلب من زميله الهدوء وقال يخاطبني:

يا رجل كن ذكيا ولا تصعد الموقف.

نظرت إليهما وقلت بهدوء:

أنا لا أُصعدُ أي موقف، ولا عرف ما الذي يغضب ذلك الآمر المجنون.

رد علي العريف الطيب:

نحن نُعاقبُ على عدم أداء التحية بطريقة لائقة لنائب الضابط، وأنت تتهجم على آمر هذا المركز كله ونحن في حالة حرب، عليك تعلم الضبط العسكري يا أخي.

وقبل أن أجيب صرخ العريف الغاضب بي أنهض بسرعة ورتب ملابسك فالآمر ينتظرك ومعه كل من في هذا المركز.

دخلنا نحن الثلاثة ساحة التدريب الواسعة وكنت في حال يرثى لها فأنا بالكاد قادر على التوقف فما بالك بالمشي وقبل أي كلام أشار الآمر إلى أحد العرفاء أن أحلق شعره، وبالفعل باشر بذلك فورا.

بعد الانتهاء طلب أحد الضباط مني الاعتذار فورا وبصوت عال كي يتفضل الآمر بمسامحتي على ما اقترفته من ذنب، فأجبته بكل أدب ووقار:

أن نسامح شخصا يعني ذلك أن نغفر ذنبه بلا عقوبة، أما بعد أن ينال عقوبته فلا يعتبر ذلك سماحا، أما أن يُعاقبُ شخص ما دون ذنب فذلك يسمى ظلما، وبعد ذلك أن يُطلبُ بعدها أن يتوسل المغفرة ممن عاقبه فذلك يسمى جبروت وطغيان.

صرخ آمر المركز:

أعيدوه إلى سجنه الانفرادي ولا أريد رؤية وجهه القبيح حتى يغادرنا

إلى مكان تنسيبه والذي سأختاره بعناية كي اضمن عدم إنهائه الخدمة بسلام.

صرخت بكل ما تبقيت لي من قوة فقد انهكني الجوع:

لا ألومك أن رأيت القبح في وجهي، فهو مرآة تعكس قبح أفعالك.

كالعادة أُلقي بي على الأرض وأنا أعاني الضرب والكدمات ودخلت بغيبوبة عميقة لم أصح منها إلا واحد العرفاء يطلب مني النهوض لتنظيف الحمامات ومعي مجموعة من المعاقبين الآخرين.

كنت احسب الأيام والساعات كي تنتهي محنتي مع هذا الرجل المتسلط، فقد مارس معي كل أصناف الإذلال والمهانة حيث صار تنظيف الحمامات واجب يومي لي والعقوبات الجسدية (التدريب الاضافي) وسيلة لإنهاكي جسديا وجزء من الحرب النفسية، مع ذلك هي أرحم من النوم على الأرض في الغرفة المغلقة والحارة والتي مُلئت بأشياء قديمة هي منامي ومكان قضاء حاجتي حتى أن أنفي تعود رائحة الغائط والبول من كثرة تعايشي معه.

بدء ممثلي أصناف الجيش بالتوافد على مركز التدريب لينتخبوا ما يلاءم تلك الأصناف كل وحسب ما يحتاج إليه من تخصص، ومن ضمن تلك الاصناف والدوائر جاءت مجموعة من مقر وزارة الدفاع ليختار من يملك شهادة الإدارة والقانون واللغات، ومن حسن حظي أني الوحيد في المركز من خريجي الأدب الانكليزي، فتم اختياري حسب القوائم، وكم كانت فرحتي كبيرة عندما علمت أني سأعمل في مقر الوزارة في بغداد والفرحة الأكبر أنهم أخبروني أنه من الممكن أن أمنح رتبة ضابط احتياط كوني أملك شهادة البكالوريوس.

وصلت القائمة إلى أمر المركز العميد حازم الذي جن جنونه فأرسل يطلب ضابط الإدارة وقال له مؤنبا بعد أن رمى القائمة بوجهه:

أهذا ما أوصيتك به؟

رفع النقيب الأوراق من الأرض وهو يقول بأرتباك:

لم أفهم شيء يا سيدي؟

العميد حازم:

ألم أوصك أن تختار أسوء تنسيب لذلك الجندي المكلف المتغطرس خالد، فتأتي القائمة لأوقع بنفسي تنسيبه لمقر الوزارة وكأنني أكرمه لا أعاقبه، أتراك تتعاطف معه أيها النقيب؟

تلعثم ضابط الإدارة وهو يجيبه على رشاش أسئلته:

لكن يا سيدي ممثل الوزارة لم يلتق بهم، هو اختار الأسماء وفقا للتخصص الذي تحتاجه الوزارة والمستوى التعليمي أستناد للأوراق فقط.

- أحمق وغبي أنت، ألم يكن بوسعك اختيار شخص آخر بنفس التخصص.

- أقسم حاولت كثيرا لكن هو الوحيد آداب انكليزي واللجنة اختارته دون الرجوع إلينا.

نهض العميد من كرسيه واقترب من النقيب وقال بصوت اقرب للصراخ

تدبر الأمر فأنت ستكون محط انتقامي إن غادرنا هذا الحقير إلى الوزارة منتصرا.

خرج النقيب من غرفة الآمر واغلق الباب بعده وراح يشتم الحظ

العاثر الذي أوقعه بهذه المشكلة.

بعد ساعة كنت عند النقيب فطلب مني الجلوس وقال لي برفق:

منذ أشهر وأنت لم تزر عائلتك وأنا أريد أن أمنحك إجازة ولكن دون أن يعلم أحد.

لم أصدق ما أسمع خصوصا وأن قلبي على أمي التي لم ترني منذ ما يقارب الثلاثة أشهر مع هذا سألته مستفسرا:

لكن أخاف أن يعرف الآمر بالأمر وتنال بدل الشكر لإحسانك العقوبة فأنا أكثر الناس معرفة بتجبره وتعسفه، أنا ممنون لتعاطفك معي سيدي لكني لا أستطيع أن أسبب الاذى لأي شخص آخر بسببي.

نهض النقيب وقال لي ناصحا:

لا تخف فقد وقّتُ أمر نزولك للبيت مع إجازة الآمر وعندها أكون أنا الآمر وكالة

عندها شعرت بالفرح الحقيقي وشكرته بحرارة وغادرتُ الغرفة وعند الباب رجعت وقلت له هامسا:

سأنتظر منك أمرا بالنزول.

فغمز لي مبتسما بـ(نعم).

وبالفعل مساء اليوم نفسه كان آمر المركز يتمتع بإجازته منذ الظهر فأرسل النقيب يطلبني، حيث كنت أمامه بعد دقائق فقال لي بتوبيخ:

ألا تؤدي التحية العسكرية أيها الجندي.

عندها أجبته معتذرا وكلي أرتباك:

أعتذر جدا لكن لم أتعلم شيء في هذا المركز إلا غسل الحمامات، أنا حتى لم أمسك بندقية بيدي ولم أطلق رصاصة واحدة مثل بقية الجنود

الآخرين.

ضحك النقيب من قلبه وقال:

ولن تحتاج تعلم ذلك فأنت الآن مترجم في وزارة الدفاع وربما ضابط مجند وتلك معجزة لا تحصل دائما.

قلت له بتردد وخجل:

لكن يا سيدي لا أملك مالاً كي استقل سيارة فقد أستنفذ ما كان معي منذ شهران.

سحب النقيب من أوراقه النقدية عشرة دنانير وأعطاها إلي.

لم أصدق طيبة هذا الرجل الكريم والمعطاء صاحب القلب الرحيم فقلت له وانا أنظر إلى الورقة النقدية

أغرقتني بفضلك لكن هذا المبلغ كثير يا سيدي، تكفيني ثلاثة دنانير فقط.

النقيب أنت بحاجة للطعام أو ربما تأخذ هدية لزوجتك أو حبيبتك وأنت عائد.

ضحكت أخيرا وللمرة الأولى إذ لم تداعب شفتي ابتسامة منذ وطئت قدمي هذا المركز اللعين.

لم أصدق ما ارى وأنا أنظر لقدمي تلامسان أسفلت الشارع العام، فتنفست بقوة وكأن الهواء الذي خارج مركز التدريب غير الذي داخله فقد كان لهواء الحرية طعم النشوة،

أسرعت اسأل الجنود عن كيفية الوصول للمرآب العام للمحافظة وما هي إلا ساعة وكنت أسير وسط الشارع التجاري للمدينة قاطعا

إياها مسرعا للوصول لمراب السيارات.

كنت كمن لم يرى أناس في حياته قبل الآن، أتلفت ناظرا لكل شيء، بائع الفواكه وبائعة السمك وذلك الذي يبيع الشاي، كانت الدهشة تعلو وجهي وأحملق بالآخرين كالمجنون

رحت احدث نفسي:

- كم أحتاج لفطور.

- لا ...لا علي الوصول بأسرع وقت للبيت فهما يومان فقط أمي وعبير أولى بهذا الوقت.

- لكني بحاجة لقدح من الشاي الكبير لأستعيد تركيزي فأنا لم أتناوله منذ فترة طويلة حتى أني نسيت طعمه.

- في البيت ستُعدُ لك الوالدة أفضل اقداح الشاي فقط كن على عجلة.

دخلت المرآب الكبير وكما يسمى (كراج بغداد) لآن السيارات التي فيه معظمها متوجه إلى بغداد العاصمة وكانت الحافلات كبيرة من نوع (ريم) وهي سيارات تصنع محليا بامتياز من شركة (اسكانيا).

جلست في كرسي وأنا أتقفز كالأطفال وأتابع المارة من الزجاجة الكبيرة للحافلة،

صرت أتخيل لقائي بوالدتي التي ما رأتني من شهور حتى أبن الجيران أحمد الذي كان قد أكمل بكلوريوس هندسة معي بنفس المركز لم أكن أستطيع التحدث معه أذ منعوا أي مجند من الحديث معي كعقوبة نفسية، أضف إلى ذلك كنت أنظف الحمامات وقت تدريباتهم اليومية عندما تكون شاغرة وغير مستعملة.

فجأة قُطعت تلك التخيلات بدخول مجموعة من الانضباط العسكري يفتشون عن الجنود الهاربين أو المتسللين دون أذن رسمي في داخل المراب وتوقفوا تحديدا تحت الباص الذي أنا فيه.

تذكرت عندها أن الفرحة أفقدتني أن أطالب النقيب بورقة رسمية تأذن بنزولي، عندها تحولت الفرحة إلى رعب في لحظات.

صعد أثنان من الانضباط العسكري إلى السيارة وبدءا بطلب الهويات من الجميع بما فيهم المدنيين أيضا، كان نبضي يتزايد كلما اقترب مني الرجلان إلى أن وصلا إلي و طلبا مني هويتي أو كما يسمى ترخيص النزول.

يال عينيك والغياب
كلاهما ينحتان بوجهي
ملامح الحزن

كانت أمي تقرأ بآخر رسالة من ولدها وهي تتحدث مع نفسها للمرة المائة:

– هذا ليس بخط ولدي فأنا أعرفه جيدا كان الأجمل بين زملائه.

– أيعقل أنه بسبب التعب قد ساء خطه جدا أو أنهم لا يقبلون بكتابة الرسائل فيكتبها بسرعة.

– لكن الأسلوب يختلف تماما حيث أنه يميل للكتابة أكثر وبأسلوب نثري رائع وهذه رسائل مقتضبة ولا يميزها إلا التكرار في كل مرة.

– المهم أن يكون بخير .

أخذت الرسالة وأضافتها مع أخواتها من الرسائل الأخرى في مغلف كبير فقد كانت تحتفظ بهن جميعا.

طُرِقت الباب ودخلت جارتنا أم حسين الباب فقد كانت البيوت الشرقية البسيطة يكون الدخول من الباب مباشرة إلى داخل البيت فبيتنا الصغير لا يحتوي حديقة أو مراب سيارة.

اتجهت السيدتان لبعضهما وراحتا يقبلان بعضهما وكأنهما لم يلتقيا منذ أشهر لا كانا يقضيان ليلة أمس معا، تلك العاطفة المبالغ فيها التي يتميز بها العراقيين عن باقي العالم وهي تقول:

– معي بشرى لك.

- أهناك رسالة جديدة من ولدي خالد؟

- بل هو شيء أكبر من ذلك بكثير.

- أنت وجه الخير يا أم حسين قولي رجاء فقد تاه مني الفرح منذ أن غادرنا خالد.

- والبشرى تخص ولدك حفظه الله وهل عندنا غيره.

- قولي أرجوك قولي؟ وهل لي بشرى غيره فهو وحيدي وكل أملي

- لقد اختير ولدك ليكون في مقر وزارة الدفاع.

- هذا يعني أنه لن يذهب لجبهة القتال؟

- يقول ولدي حسين وهو ضابط برتبة نقيب كما تعرفين أنه محظوظ جدا فهذا المكان الآمن في العراق كله.

رفعت أمي يدها إلى السماء

- الحمد والشكر لك يا رب ، ولكن من أخبرك بذلك؟

- لقد وصل أبني أحمد قبل دقائق وتركته لأخبرك بهذه البشارة كي اضمن رؤية الفرح على وجهك الطيب.

- أحمد مجاز ؟ لكن لما لا يُمنح خالد اجازة مثل أحمد في كل أسبوع أو أسبوعين؟

أم حسين وهي ترتبك بردها:

ألم يخبرك أحمد أنهم يحتاجونه في المركز كثيرا فهو المسؤول عن الادارة الآن.

ردت عليها أمي باستغراب شديد

جندي مكلف مسؤول عن الإدارة !!!...عقلي لا يصدق ذلك.

لم تجد أم حسين كلمات تقنع بها قلب الأم الذي يشعر بأبنه فاختارت

الهرب منها وقالت:

وأنا ما أدراني أيتها الغبية هل خدمت سابقا في الجيش خذي هذه الرسالة من ولدك، ولا تنسي المكافئة (قدر دولة)من يدك الجميلة.

قد أسودت سمائي بغيابك
أما آن لقمرك أن يعيد لها الضوء

قاطعني زرادشت بصوت هامس يدل على اهتمامه الشديد للحكاية وتفاصيلها:

شيئا ما لم أفهمه! كيف كانت تصل الرسائل لوالدتك وأنت لم تستطع حتى التحدث مع أحمد جاركم؟

- كنت أضنك أذكى بكثير من هذا

- أنا غبي وأعترف فقط أخبرني أرجوك.

- كان النقيب حسين جارنا هو من أخترع هذه الفكرة بعد أن عرف ما آلت إليه أحوالي كي يطفئ نار قلب أمي فقد كان أحمد أخيه يخبرهم بكل ما يجري لي في مركز التدريب فنبه أخاهم الكبير حسين بأن لا يقلقوا قلب أمي عَليَ فهي التي لا تمل من طرق الباب يوميا للتحدث له والاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة ليضطر النقيب حسين بتلفيق كماً من الاكاذيب كي يمنحها جرعة من المهدئ الذي ما يلبث أن يزول تدريجيا بعد أن تغادر البيت.

اسكتني زرادشت وقال... اكمل فليس أمامنا وقت كثير وأريد استثماره قدر المستطاع فقد أثرت كل علامات الاستفهام حال عبير وحالك مع الانضباط وحال أمك الطيبة ما اخبثك يا رجل وما أغباني بنفس الوقت فأنت تلعب دور شهرزاد وأنا دور الملك الشهريار.

نظرت إليه بحزن حين راحت تلك الصور تتقافز أمامي كأوراق

بعثرت فجأة دون تحضير وقلت له:

كان العامل المشترك بين كل تلك القصص هو الشوق لرؤية الحبيب.

اطرق برأسه إلى الارض وقال بحزن مماثل لتلك الحالة التي كنت اتحدث بها:

كل قصصنا متشابهة سواء كنا فرس أو عرب أو أتراك فكلنا ابتلينا بحكام ساعين للخلود عن طريق الانتصارات ولكن على حساب دماء شعوبهم فليس الأمس ببعيد حيث كان الصراع على اشده بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية فسقط مئات الالوف من أرواح المسلمين وكلا الدولتين تدعي القرب من الله وأنها الممثل الشرعي له، والناطق بلسانه ولها الحق في أن تعلن الحرب على من تشاء وقتلاها في الجنة وقتل خصمها في النار، وها نحن نُعيد الكرة اليوم بطريقة مشابهة كأنها استنسخت ولمصلحة من؟ لا نعرف، فها نحن نقتل بعضنا بكل وحشية منذ أكثر من سبع سنوات وتُستنزف طاقات البلدين المادية والبشرية بلا جدوى، وكلا الطرفين يدعي أنه يدافع عن وطنه وحدوده، وأن خصمه من قام بإشعال الحرب، ونحن لا نجرؤ على التساؤل حتى لما كل هذا يجري، إذ سنتهم فورا بالعمالة للصهيونية والامبريالية، وأقسم بالإنسانية أنهم هم العملاء لسحق شعبينا ومقدراتنا.

ساد الصمت المكان بعد هذا الكلام الذي لامس أرواحنا بقوة، فكلا الشعبين لا يعرفان ما الذي يجري وما تحدث به الرجل ينطبق تماما علي، لكن فجأة التفت إلي زرادشت وقال كمن صعق:

أكمل أرجوك وأجب عن تساؤلاتي؟

هززت راسي بالإيجاب لطلبه :

دخلت عبير غرفتها غاضبة وقبل أن تغلق الباب لحقت بها أمها ووجها غاضب أكثر، ارتمت على السرير وراحت تبكي بقوة بينما أغلقت الباب أمها هذه المرة وقالت تخاطب أبنتها:

- أمرك محير يا أبنتي! لما ترفضين كل من يتقدم لك رغم أنهم فرصة لكل شابة لن تعوض في المستقبل.

- لا أريد الزواج يا أمي ...لا أريد وبدون أي مبرر.

- وهل هناك فتاة بعمرك في الكون كله لا تريد الزواج؟ ها أنتِ أكملت دراستك الجامعية وصدر تعينك كمدرسة ولم يبقى إلا الزواج لتكتمل سعادتك يا أبنتي.

- وأنا تلك الفتاة التي لا تكتمل سعادتها بالزواج يا أمي ...أرجوك اتركيني وحالي.

الأم وبصوت عال وحازم:

أنتِ تخفين أمرا ما يمنعك من الموافقة على من يتقدمون لخطبتك، أفصحي الآن فورا.

لم تستطع أن تواجهه أمها فاكتفت بالبكاء والنحيب بصوت عال بحجم حرقتها على فراقي وخوفها علي وهي التي لا تستطيع أن تعرف أخباري إلا بالاتصال خلسة بأمي التي لا تعلم عن حالي شيئا سوى الرسائل المزيفة.

خرجت الأم تاركة أبنتها لأنها تعرف جيدا لن تنال منها أي اعتراف لكنها صارت موقنة أن أبنتها عاشقة لرجل ما، وقبل أن تغلق الباب

قالت:

أخبري ذلك المتراخي أن يتقدم لخطبتك فنحن لن نسكت أكثر من ذلك.

كانت الكلمات تقع عليها كالخناجر فراحت تفرغ كل ألمها على شفتيها المسكينتين وهي تقول:

أين أنت يا خالد ...قد أسودت سمائي بغيابك أما آن لقمرك أن يعيد لها الضوء، لم أعرف الابتسامة منذ رحيلك أفلا منحت شفتي ابتسامة تنسيني كل ذاك الألم والحزن، فيتحول دمع الحزن إلى دمع للفرح.

ضرب زرادشت كفيه ببعض وقال:

تبا للحرب ولمن أشعلها ولكن من أخبرك بكل هذه الاحداث؟

ألم أقل لك أنها كانت تتصل بأمي خلسة وتخبرها بما يجري وتتوسلها أن آتي لخطبتها من أهلها كي أنقذها من هول الضغوط التي عليها.

حتى الشيطان يعجز عن...
أن يصافحك بيد ويطعنك باليد الأخرى

أما بالنسبة لحالي مع رجال الانضباط العسكري، فقد حاولت شرح الموقف للرجلان دون جدوى وأخبرتهم أنه مُنحتُ إجازة لمدة يومين ولا يستوجب الأمر لكتاب يخولني بالنزول للبيت، كل هذا والرجل المسؤول ينظر إلي نظرة حادة دون كلام وما أن صمت بعد ما استنفذت كل الكلام الذي من الممكن أن أقوله حتى بادرني هو بكلمة واحدة (أنزل) واستدار ونزل بينما أمسك بي الثاني وراح يجرني بعده للنزول.

كان الموقف مرعبا لي فأنا لا أعرف ما الذي سيحصل بعدها وكيف أخبر النقيب عامر حول ما جرى وكيف سيتلقى خبر إلقاء القبض عليّ ورحت أتخيل ثورة العميد حازم عليه وربما ضربه وعقوبته.

بعد ثلاثة أيام من العمل المهين في مقر الانضباط العسكري تم ترحيلي إلى مركز التدريب الذي أنتسب إليه مخفورا ومتهم بالهروب من وحدتي العسكرية حيث كان بانتظاري العميد حازم آمر المركز وهو يضرب يده بعصاه العسكرية بقوة وكأنه يضربني أنا لا يده، عندها سقط قلبي في يدي وخفت حينها خوفا لم أعرفه طوال حياتي، لا على نفسي فقط بل على النقيب عامر أيضا الذي تورط معي.

أدى التحية رجل الانضباط وقدمني وهو يحمل كتاب الاستلام وقال:

هذا الجندي ضبط وهو هارب من مركز التدريب التابع لكم سيدي.

نظر العميد إلى النقيب عامر فعرف النقيب ما يريد فأسرع وأخذ الكتاب من رجل الانضباط العسكري وقال له شكرا لك.

وقفت منكسرا منخفض الرأس أمام الآخرين فبادرني الآمر قائلا:

كنت على وشك تصديق أنك رجل محترم لكن هروبك أثبت لي أن نظرتي الدونية لك كانت صحيحة فأنت لست إلا متشدق بالمبادئ واحترام النفس.

بقيت ساكتا ولم انطق هذه المرة لأن شعوري بضعف موقفي ألجم لساني ومن ناحية أخرى كان علي حماية النقيب عامر المتفضل علي بتلك المساعدة المشؤومة.

صاح الآمر بالجنود اذهبوا به إلى السجن ولتشدد الحراسة عليه.

كانت تلك الليلة طويلة جدا بما تحمل من خيبة أمل لكل ما حلمت به وما حملته في ذاكرتي المتخمة بلقاء أمي ولقاء حبيبتي، لأول مرة في حياتي بكيت، لم يكن ذلك البكاء عاديا لرجل يبكي لأول مرة في حياته ، كان ينزل الدمع دون صوت فالرجل الشرقي يعتبر البكاء ضعف وعار ، حتى لو كان مع نفسه فقط.

في الصباح استلم اثنان من الجنود الذين معي كتبهم وتوجهوا

لوزارة الدفاع وكان واحد منهم آداب فرنسي والثاني خريج لغات ألماني حيث كان من المفروض أن أكون ثالثهم فأسرعت إلى النقيب عامر تاركا ما بيدي من أدوات التنظيف للحمامات

كان عامر قد خرج من غرفته متوجها إلى غرفة آمر المركز وهو يحمل البريد اليومي إليه، وقفت أمامه وأديت التحية وقلت له:

غادر زميلي المركز والمفروض أني معهم؟

لم يرد علي واستمر بمشيه وكأنه لم يرني.

تبعته وأنا أقول له:

أعرف أنك منزعج مني لأنهم أمسكوا بي لكن أقسم لم تكن هذه غلطتي هو حظي السيئ فقط.

لم يجبني النقيب عامر واستمر ماشيا حتى أني وجدت نفسي بباب الآمر وهو واقف عنده فصرخ بي:

ما تعمل هنا أيها الهارب أذهب وأكمل عملك في التنظيف وإياك أن تصل إلى هنا.

انسحبت أنا بينما أدى هو التحية العسكرية ودخل الاثنان غرفة الآمر.

كان كلامه جارحا لي جدا ولكني وللمرة الثانية لا أتمكن من الرد عليه.

جلس العميد حازم على كرسيه الدوار وهو ممتلئ من الضحك وراح يؤشر بعصاه إلى النقيب عامر ويقول:

ما ادهاك أيها الخبيث كيف توصلت لهذه الفكرة.

ضحك النقيب عامر بخبث ورد عليه:

تلميذك سيدي.

قطع الآمر ضحكه وقال:

ما تقصد أيها الغبي أني خبيث وداهية .

النقيب عامر:

لا الشق الثاني من عبارتك بما يخص الذهن المتفق بالأفكار.

عاد الاثنان للضحك فأكمل بعدها النقيب عامر:

مازال الأحمق يعتقد أني أعطيته الإجازة لوجه الله ولا يعلم أنني أنا من أبلغ عن هروبه للانضباط العسكري، كي ألغي تنسيبه لمقر الوزارة.

قطع الآمر ضحكه وقال بإعجاب:

خبيث ...خبيث.

النقيب عامر :

أقترح أن ننسبه إلى مركز التدريب وندخله هارب كل فترة حتى تبلغ مدة خدمته عشر سنوات.

الآمر:

لا... أكره وجهه وربما يفسد علي الباقين فقدرته على التحمل كبيرة ولن تجدي معه العقوبات كلها أريده في أسوء مكان على الجبهة.

النقيب عامر:

أذن نضع أسمه ضمن الذاهبين للفيلق الأول في شمال العراق مع توصية.

الآمر :

أحسنت وضابط الركن صديق لي سأوصيه أن يضعه في أسوء مكان

النقيب عامر :

أذن سأضيف أسمه الآن ولا يتبقى إلا توقيعك الكريم ليصبح غدا في ذمة الجبل.

عاد الاثنان للضحك وبصوت عال جدا.

امسك زرادشت بذراعي وقال باستغراب:

ومن أخبرك بما دار من حديث الاثنين؟

أجبته بعد حسرة:

هو الجندي الذي كان يعمل بخدمة الآمر حيث كان متعاطفا جدا معي حاله كحال كل الجنود بل وحتى مجموعة من المعلمين والمراتب اللذين صاروا يعاملونني بكل احترام ما دام ذلك المتسلط غير موجود.

ساد الصمت للحظات طويلة وكلانا ساكت لكنني مسكته من ذراعه هذه المرة وابتسمت بوجهه وقلت له بحب:

لولا ما حصل لكانت احتمالية لقائي بك صفر وما كنت الآن اتعرف على أطيب إنسان عرفته في حياتي أخي وحبيبي.

اغرورقت عيني زرادشت بدموع صادقة تحمل الحب الحقيقي بين بني الإنسان، حب لم تستطع اطماع الحكومات وكل أيدولوجياتها من تلويثه، وفتح ذراعيه واحتضنني وهو يجهش بالبكاء ففنان مثله لم يكن يحتمل سيل المشاعر التي احتوتها روحه في تلك اللحظة القدسية.

أياما معدودة
لكنها كانت بقيمتها الروحية تقدر بمئات السنين.

بعد أن أفرغ زرادشت كل مخزونه العاطفي على شكل دموع نظر إلي وقال سأودعك وإلى الأبد لأني سأنقل لمكان آخر.

دون شعور صرخت (يا إلاهي). فأمسك بفمي وهو يكرر مقولته كل مرة:

أخفض صوتك أيها المجنون ستقتلنا معا.

ابعدت يده عن فمي وأنا أقول بصوت منخفض:

وكيف سأتصل بك أو اراك مجددا؟ ربما سآتي كل يوم هنا علني ألقاك؟

زرادشت:

إياك أن تفعل ذلك بعد اليوم لأنهم سيقتلونك أو يأخذوك اسيرا فعين الماء قريبة من موضعنا الدفاعي ومن السهل رصدك أيها المجنون، أرجوك عدني أن لا تزور العين بعد اليوم أقسمت عليك بما كان بيننا من أخوة.

رددت عليه وشفتي ترتجف من وجع الفقد المتكرر لمن أحبهم:

- ولكن كيف سأراك مجددا؟

- لن تراني يا صديقي العزيز، فالعلاقة الاخوية التي ولدت بيننا هي محض معجزة لن تتكرر أبدا ولا حتى في مخيلة مجنون، فليس باستطاعتي اعطائك عنواني أو أن أخذ منك رقم هاتفك، التقينا هنا

وسنودع بعضنا هنا وللأبد.

احتضنته وعاد كلانا للبكاء دون شعور وكلانا يلعن هذه الحرب الحقيرة التي حرمتنا من أخوة حقيقية راقية.

أعطى كل منا ظهره للآخر وكلانا يملأه الألم على علاقة لم تدم إلا أياما معدودة لكنها كانت بقيمتها الروحية تقدر بمئات السنين.

ابعدت ماري راس خالد عن صدرها وقالت بحرقة:

لم اعد اصبر على تدخين سيجارة، فكل حروفك تصب في أمر واحد هو الدهشة، اشعلت سيجارتها وربتت على صدرها وقالت بحماس:

تعال إلى صدر ي أيها الطفل المسكين واكمل لي قصتك التي حرمتنا من متعة النوم.

الأعراف الاجتماعية
جعلت منا الذكور الشباب خرافا
لا تجرؤ على الانتفاضة على قصابها

أعاد خالد رأسه إلى صدر ماري وهو يتحسس بوجهه بشرة نهدها الابيض كالثلج والناعم كبشرة طفل صغير وقال بصوت ارتخاء طفل آمن:

وما تودين معرفته؟

أريد معرفة خالد الفارس الذي أنقذ حبيبته من الزواج من غيره والتي تنتظره من شهور.

رد خالد وكله حسرة:

لا فرسان في أمة العرب فالأعراف الاجتماعية جعلت منا الذكور الشباب (خرافا) لا تجرؤ على الانتفاضة على جزارها وهو يقود الاناث الشابة إلى ذبح يقام بطقوس الفرح تحت مسمى الزواج.

ماري وبحماس:

لا تقل لي أنك لم تنقذ حبيبتك من تلك الزيجة، فالأمر سهل جدا لا يقتضي إلا التقدم لخطبتها فالمسكينة تنتظرك؟

رد عليها خالد وهو مبتسم ابتسامة ساخرة وهو يكمل سرد قصته:

لم أشعر بسعادة في حياتي كلها كتلك التي شعرت بها عندما

أخبرني بها النائب ضابط المسؤول عني، أن أسمي ضمن وجبة الجنود المجازين.

كنت فرحا حد أني لم أصدق أن قدماي لامست أخيرا الأسفلت بعد أن قاربت ذاكرتي على نسيان شكله لمدة سبعة أشهر لم أمنح فيها اجازة لزيارة عائلتي، تلك العائلة التي تختزل بأثنين فقط أمي وحبيبتي. بعد أن تحجج المسؤولون عني قبل الآن بوجود خطأ في الادارة تارة وبين العقوبة العسكرية تارة أخرى.

كنت أتبع رفاقي المقاتلين كالمهوس فهم يعرفون طريق العودة لبغداد إذ قد تمتعوا قبلي بعدة مرات حتى ركبنا السيارة نوع (ريم) عراقية الصنع المتوجهة من الموصل لبغداد وانا اتلفت كل خمس دقائق خوفا من الانضباط العسكري، مما كنت اجلب انتباههم فيطلبون مني نموذج النزول فأخرجه وكلي ارتباك وكأني مجرم أو مذنب.

غط الجميع في نوم عميق حتى اؤلائك الواقفين في السيارة على أرجلهم إلا أنا الوحيد الذي كان قلبي يزداد خفقانا كلما قرأت يافطة تقول أن بغداد على بعد كذا كيلو متر من هنا وكانت العلاقة بين قلبي وبين أرقام الكيلو مترات طردية فكلما اقتربت أكثر كلما زادت الدقات حتى أن قلبي كان ينفجر عندما توقف الباص الكبير في باب مرآب (النهضة) وبدأ الجميع بالتدافع للنزول فكل ثانية من هذه الاجازة هي لحظات ذهبية نختطفها من الموت كي نحيا بسلام مع من نحب.

كان وصولي للبيت السادسة مساءا في أحد أيام شهر نيسان وهو من الأشهر الرائعة في العراق قبل مداهمة الصيف الحارق لنا حيث يتجمع

الرجال في رأس الأزقة بينما تجلس النساء مع بعض في مجموعات كي يتبادلن اطراف الحديث كالرجال وهن يرتدين العباءة العراقية.

توقفت سيارة الاجرة بداية الشارع العريض وانزلت حقيبتي الكبيرة نسبيا والخالية من كل شيء حيث قد رميت تلك البدلة العسكرية المتهرئة أول ما غادرت مقر الفرقة فهي لم تعد تصلح حتى لمسح الارضية وارتديت ملابسي المدنية التي التحقت بها إلى مركز التدريب قبل سبعة أشهر فكانت ملابسي فضفاضة جدا وكأنها لشخص آخر غيري، بسبب فقداني الكثير من الوزن وأنا الممتلئ وقتها، اضافة إلى أن ملابسي المدنية كانت مجعدة بشكل بشع جدا بسبب حبسها لمدة الشهور الماضية داخل الحقيبة التي منحتها رائحة عفنة، مع كل ذلك كان مجرد ارتداء ملابس مدنية متعة لا تضاهيها أي متعة.

ما أن وطئت بقدمي الأرض حتى لمحتني احدى الجارات التي اطلقت صفارة الانذار من فمها بـ(هلهولة) لتعلن للجميع أن أمرا مفرحا قد حدث، وأسرعت تحتضنني ودموع الفرح تتقافز من عينيها كأطفال هرعوا خارجين من مدراسهم في نهاية الدوام في حي شعبي يفضل فيه الجميع اللعب على الدراسة.

تدخلت هنا ماري وقالت بصوت كله تركيز على حروفه التي تنزلق من لسانه بكل احساس وكأنه يجيد تمثيل المشهد لا يحكيه فقط:

ما تقصد بـ(هلهولة)؟

خالد :

هو صوت تطلقه النساء العربيات والعراقيات خصوصا عندما يشعرن بالفرح الشديد كحفلات الأعراس أو عند نجاح أولادهن كما

ويطلقنه لرفع حمية الرجال عند المعارك في البدو أحيانا فقد كان الرجال يصطحبون أجمل نساء القبيلة وأكثرهن شرفا تعمل على اطلاق الزغاريد أو الـ(هلهولة) كي تمنح أخوتها وابناء عمومتها طاقة للقتال والدفاع عنها فهم يعرفون أن هزيمتهم في الميدان تعني أخذ أبنة عمهم من قبل الخصم أسيرة تسمى (سبية) وذلك عار كبير يصاحب أسم العشيرة ورجالها حتى يستعيدوها ثانية، لذلك يستميتون في الدفاع عنها.

قوست ماري فمها ساخرة وقالت:

ما اغباكم... يبدو أنكم لم تتخلصوا من عادات كانت تعيش معكم منذ ألف والفين عام، حقا أنكم شعوبا عجيبة.

رفع رأسه من على صدرها وهو يقول:

وما حاجتك بقصة رجل غبي ومجتمع أغبى؟ لذلك لن أكمل لك قصتي.

اعادته بكلتا يديها وبقوة وهي تقول مشاكسة:

قدر الرب أن أكون حبيبة رجل (النيارتردال) الذي كان يعيش في الكهوف.

خالد وهو يعود رفع رأسه ثانية ويقول:

أنتم ذرية رجل النياريتردال المتوحش بينما كنا نحن في نفس الوقت ننعم بحضارات عدة تفضلت على البشرية باختراع الكتابة والعجلة وكانت تجرى العمليات الطبية وأوجدنا القوانين وأوجدنا مكتبات عملاقة ما زالت تحتفظ برقمها الطينية التي توثق كل صغيرة وكبيرة من ذلك التاريخ المجيد.

أعادته ثانية إلى صدرها بقوة وهي تقول:

ومن يملك تأريخا مشرفا كهذا عليه أن يتسيد العالم لا أن يتمسك بعادات بالية تعيقكم من التقدم نحو التحضر

لم أكن أعرف أن الموت
سيكون وسيلة لقائنا بعد أن عرفناه وسيلة للفراق

صارت باب بيتنا تطرق بقوة كما تطرق الابواب من قبل رجال الشرطة، فصار لعابي يرتجف خوفا ويرفض ترطيب حنجرتي المسكينة، حتى تحولت المسافة التي لا تعدو مترات قليلة إلى كيلو مترات وأنا احاول الوصول لمكان الطرق كي انهي قرعها المخيف والمتزايد، فجاء صوت أم حسين مرعبا أكثر وهي تصرخ:

(افتحي الباب... أفتحي الباب).

فتحت الباب وكأني فتحت باب الجحيم فتقافزت النسوة يحتضني بصوت الصراخ والدموع حينها تأكدت تماما أنك قد جئت إلى الحي (شهيدا).

لم أجد حلا للهرب من حالة الرعب التي اعيشها سوى أن يتوقف قلبي لننتهي معا من هذه الحياة البائسة التي تعيشها أمٌ لم ترى أبنها الوحيد أكثر من (نصف سنة) دون ذنب.

فتحتُ عيني بصعوبة فإذا وجها يشبه وجهك يهمس

أمي... أمي... حبيبتي... الحمد لله على سلامتك يا غاليتي.

لم أكن اعرف أن الموت يوما سيكون وسيلة للقائنا ولطالما عرفت الناس الموت وسيلة للفراق وكم كنت أخشاه يا ولدي عليك، بل حتى كنت أخشاه على نفسي ايضا لا حبا في ذاتي بل خوفا أن توافيني المنية

قبل أن اراك.

شعرت بيداك تحتضن يدي فاخرجتها من حضن يديك ورحت اتلمس ملامحك التي ذبل بشكل مخيف أين اختفت تلك الخدود الممتلئة، أين تلك البشرة البيضاء الناعمة، يا إلاهي أنت تحارب العدو أم كنت تحارب العدو والشمس والجوع.

فجأة سمعت ذلك الصوت المزعج ثانية(أم حسين) وهي تقول بصوتها العالي ولهجتها البغدادية الجميلة

(كل شي تمام المرأة عايشة والحمد لله)

ورحت اسأل نفسي ما تعمل هذه المشاكسة في الجنة، أنا تركت الارض والحياة بمن عليها هربا منها، وها هي تلحقني هنا ايضا.

بعد لحظات تأكد أن هذا ولدي خالد فاحتضنته ورحت أشمه وأقبل كل ما في وجهه فما اجمل أن يكون البكاء مصاحبا للفرح.

كان خالد يسرد ما قالته أمه له بعد أن استفاقت من غيبوبتها إثر توقعها مقتل ابنها في الجبهة، كانت الدمعات تتسابق على ملامسة نهدي ماري الممتلئين وينزلقن لما بينهن وكأن سيلا راح يملئ وادي لم يجد الماء إليه سبيلا بينما احتضن هو حبيبته أكثر وأكثر فكسرت الصمت هي وقالت:

ما أجمل عواطفكم، أحيانا أراكم مجموعة من الأغبياء الذين يعيشون في أزمنة قديمة بعيدة عن الحضارة تقودهم عواطف حيوانية غريزية ولا مجال لأي فهم برغامتي عصري للحياة، ولكن حجم الحب الذي اراه بينكم الآن ومن خلال قصتك جعلتني أتمنى لو شعرت بما

تشعر من حب وعاطفة، ربما نحن الأذكى منكم ولكن أشعر أننا تحولنا لآلات ميكانيكية والكترونية فازت بالتقدم والذكاء الصناعي لتخسر عواطفها الإنسانية اتجاه بعضها.

عاد الصمت يفرض حظرا للكلام من جديد فالصمت وحده يعرف أن في بعض الاحيان ينبغي لجم الكلام للاستمتاع بالعواطف دون ازعاج أو ليمنح بعض المشاعر قدسية لا يجوز انتهاكها الكلام.

أوجعتني بغيابك وأوجعتني أكثر بحضورك.

استيقظ خالد وهو في غاية الشبع من النوم، فقد اتخم جسده بوليمة من الراحة بعد علاقة حب مع امرأة منحته حبا وحنانا لم يذقه طوال عمره حتى من حبيبته التي احبها يوما، حيث كانت علاقتهما تقتصر على الكلام الجميل دون الخوض في تفاصيل أكثر فالطبيعة المحافظة للشعب العراقي تفرض الاحترام حتى بين الحبيبين،

سمع صوت سقوط ماء يأتي من الحمام الصغير فتوجه بنظره إلى الساعة الصغيرة الموجودة قرب السرير فوجدها قاربت على العاشرة صباحا فقال بصوت يغلبه النعاس هذا أنت يا جلال؟

ففتح الباب لتخرج منه ماري وهي ترتدي منشفة كأنها حورية بحر وهي تدندن أغنية (جوتيم) للمغنية (لارا فابيانو)، وبكل جرأة رمت المنشفة عن جسدها المتناسق جدا رغم امتلائه مع البياض المائل للاحمرار جعلها امرأة بشكل الالهة القديمة، وراحت ترتدي ملابسها الداخلية، سحر المنظر عينيه الذي راح يراجع ذكرياته المريرة وهو يسأل نفسه (لِمَ لم أعرف هذه المرأة من قبل).

سأل خالد وطعم الرغبة واضح على نبرة صوته وملامح وجهه:

المفروض أنتِ الآن في العمل؟

التفتت إليه وهي ما زالت تغلق كلابات حمالة صدرها السوداء:

- قررت إعطاء نفسي عطلة لهذا اليوم كي أعتني بك قبل عودة صديقك.

- منذ سنوات لم يعتني بي شخص كما تعتنين أنتِ بي.

اندست بجسدها إلى الفراش ووضعت هذه المرة رأسها على صدره وقالت بود:

ألن تكمل لي قصتك؟

طوق يده حول راسها وراح يعبث بشعرها المبتل وهو يضحك بصوت عال فرفعت بصرها اتجاه وجهه وهي تبتسم باستغراب وقالت:

- وما يضحكك بهذا الشكل؟

- صَدقتُ للحظات أنكِ بقيتي لرعايتي ولكن على ما يبدو أن السبب شيء آخر.

راحت تضربه على صدره بلطف وهي تضحك وتقول:

لا تكن سيء الظن وأكمل لي القصة ولا تحاول المماطلة، فأنا متشوقة لمعرفة لقاؤك بحبيبتك العراقية.

زفر خالد من صدره كبركان انفجر هواء بطعم الحمم:

كنت متشوقا لها جدا، كانت صورتها معي طوال الطريق من شمال العراق حتى وصلت لبغداد، وبقدر تخيلي لحظات لقائي بوالدتي كنت اتخيل ذلك الألق نتيجة الفرحة في عينيها عند اللقاء، كم نبلغ نحن العاشقين في خيالاتنا ونجتاز كل حدود المعقول نرتفع حتى نبلغ السماء وننزل حتى نعبر عمق المحيطات، خيالات رغم اتساعها لكنها تبقى بسيطة لا تتعدى مسكة يد أو قبلة على الجبين، اه من طيبة قلوبنا الحمقاء.

رفعت عينيها باتجاه وجهه ثانية وراحت تتأمل هذا الكائن الطيب وراحت تسأله بصوت ينضح اعجابا :

أيعقل أن يعشق رجلا امرأة دون أن يتعلق ذلك بجسدها؟

خالد:

حتى الحب يختلف فهمه من شعب لآخر فالحب في بلدي عطاء مفتوح دون التفكير بالمقابل.

أكمل خالد سرد حكايته:

في المساء طلبتُ من أمي أن تتصل بعبير حتى أسمع صوتها وكعادتها استسلمت المسكينة لطلبي رغم خوفها وتحرجها امسكت بالسماعة بعد الحاحي الشديد عليها وراح قلبها يتسابق مع نبض الهاتف بنغمة الرنين.

رفعت السماعة عبير فكانت فرحة أمي كبيرة وهي تسلم عليها دون المرور في نقطة التفتيش الاصعب في البيت (أم عبير)، وكالعادة اعطتني السماعة وانتقلت لمسافة ابعد كي تمنحني فرصة للحديث فوقفت في ابعد نقطة عني والتي تبعد ثلاثة أمتار وهي مسافة كبيرة في بيت لا يتجاوز الخمسون مترا وهي تراقب ملامح ابنها الوحيد بكل فرح متضامنا مع فرح ملامحه التي ما عرفت معنى الابتسامة منذ أشهر.

قبل أن أنطق بحرف همست عبير وهي تتوقع أنها تكلم أمي:

أرجوك لا تعاودي الاتصال بي فغدا هو يوم زفافي وأبلغي أبنك أن هناك طرق أكثر احتراما لقطع العلاقات لا التهرب من الحديث معي لأكثر من سبعة أشهر، لم أكن اتوقع أن قتل قلبي سيكون بهذه القسوة منه.

لم أستطع أن انطق بحرف حيث كانت الحروف تخترق روحي

كالرصاص في المعركة، حتى اغلقت السماعة هي وانتهت قصة حب وانهارت احلام وصلت لعدد كبير من الابناء وبيت كبير وأمي الفرحة بأحفادها، كل تلك الاحلام مرت أمام نظري والسماعة في يدي وأنا مصاب بحالة من التجمد، وأمي تراقب تغير ملامحي فتتغير ملامحها معي تدريجيا لأن قلبها الطيب قد عرف أن خطبا ما قد حصل.

اغلقتُ السماعة واتجهتُ لغرفتي دون أن التفت لأمي التي أمسكت بيدي وهي تسألني ما الذي ازعجني.

كان الباب هو السد المانع الذي منحني فرصة الانكسار دون أن يراني قلب أمي حيث أن من الصعب جدا البكاء أمامها.

بعد ساعات استعدت فيها كل تلك اللحظات المؤلمة التي قضيتها بأشهر من الخدمة العسكرية اكتسبت من خلالها الكثير من الجلد فوجدت أن خسارة عبير أهون بكثير مما مررت فيه من قتال وحرب نفسية وكانت تلك أول الحسنات التي لمستها من الجيش فقررت أن أذهب لأمي كي تطمئن علي وما إن فتحت الباب حتى وجدت أمي تجلس خلفه، حيث أننا بقينا نتقاسم جانبي الباب طوال تلك الساعات، أنا اعاني الانكسار من زواج حبيبتي وهي تعاني الانكسار لألم ولدها الحبيب، ما اقساني في ذلك الموقف الذي ...لن أغفر لنفسي ابدا ما حصل لأمي بسببي.

انهضتها من الأرض وكانت متعبة جدا واحتضنتني وهي تبكي وتقول:

أوجعتني بغيابك وأوجعتني أكثر بحضورك.

كان الألم ألمان ألم عبير وزواجها وألم أمي بخيبتها رؤية أبنها حزين، وكان الوقت كعادته ضدي في كل المواقف، حيث مر بطيئا جدا يجلدني بثواني الذكريات أيام الجامعة مع الفتاة الوحيدة التي عرفتها.

عندما حل المساء لم استطع تحمل الأمر فتوجهت مباشرة لبيت عبير فوجدت جمعا غفيرا من الناس متواجدين في بابهم مما سهل اندساسي بينهم وعند الباب صادف خروجها تتأبط ذراع رجل آخر وتخفض رأسها ولم أعرف السبب، أحياءاً كان؟ أم إحباطا، وصعدت السيارة وغادرت بسرعة وسط الهتافات والاهازيج وصوت الطبل والموسيقى، بينما راح نبض قلبي يعزف لحنا فوضويا من النبض كالفوضى التي دارت في راسي وعواطفي.

دخلتُ البيت وأنا بالكاد أحتمل ما جرى وما رأت عيني فاحتضنتني أمي التي كانت تنتظرني عند الباب وقالت بصوت يجهش بالبكاء:

هي الخاسرة يا بني فلا تحزن.

أجبتها بحزن وألم وأنا أخفي رأسي بين ذراعيها وصدرها:

خاسرة؟؟؟ على ماذا ... فمن أكون أنا حتى تخسر تلك الشابة الجميلة، لست من الاغنياء ولا من كبار القوم، نحن نكرة يا أمي، حتى لا اقارب لنا كي يزورونا لأننا فقراء، أخبريني بالله عليك أنا من شهور لم أتمتع بإجازة واحدة هل جرب أحد الاقارب البحث عني والسؤال عن حالي؟.

فتغيرت لهجتها بلحظة وقالت:

عليك أن تؤمن بنفسك يا ولدي فالمال زائل والجاه زائل إلا الثقة

بالنفس فهي من تأتي بالمال والجاه، ثم لما يسأل عنك اقاربك وأنت كنت تعيش في نعمة غير كل الجنود اقرانك.

فتحت عيني من شدة المفاجأة وكررت بعدها بصيغة الاستغراب (نعمة)؟

تركتني واسرعت لتخرج علبة من الكارتون وفتحتها فإذا بها عشرات الرسائل، لتضعها أمامي وهي تقول:

هذه الرسائل وردتني منك تخبرني أنك بألف خير وكانت خير معين لي في غيابك الذي بلغ الشهور.

التقطتُ واحدة من تلك الرسائل وقرأتها بدهشة والتي بعدها ومن ثم رحت اتتبع التواريخ التي ارسلت فيه فسألتها باستغراب:

من كان يوصلها لك؟

ردت علي وبنفس درجة الاستغراب:

جارتنا أم حسين عن طريق أبنها أحمد الذي كان معك في نفس المعسكر ومن ثم تكفل بالأمر أبنها الكبير النقيب حسين حفظه الله، جزاه الله خيرا.

أخذت الرسائل بيدي واتجهت مباشرة إلى بيت جارتنا الذي لا يبعد عن بيتنا الصغير سوى بيتين لكنه، بالتأكيد يختلف تماما عنه، فرغم أنهما في نفس المنطقة إلا أن فرق الحالة المادية واسع جدا، ابتداء من مساحته التي هي ضعفي مساحة بيتنا وبطابق ثاني وواجهة رائعة تظهر مدى مستواهم المادي العالي نسبة للجيران.

استقبلتني بالتقبيل والسلام وهي تحمد الله وتثني عليه لعودتي سالما لأمي الطيبة والمسكينة وأخذتني من يدي وهي تسحبني باتجاه

غرفة الضيوف الجميلة والكبيرة وأجلستني وهي تصيح على أبنائها بصوتها العالي المعروفة به وبلهجتها البغدادية الأصيلة:

أولادي عندنا ضيف عزيز تعالوا للترحيب به.

ومن ثم تعود فتقبلني وتقول الحمد لله على سلامتك.

ثم تعود فتصرخ على بناتها:

بنات أعدوا العشاء ولنحتفل اليوم بزيارة أخيكم خالد.

فمسكتُها من يدها مقاطعا إياها أرجوك يا خالة لا داعي لذلك لا تتعبوا أنفسكم فقط كنت أحب أن استفسر منكم عن شيء هو...

وقبل أن أكمل كلامي دخل أحمد وسلم علي وهو فرح بي وجلس يسألني عن حالي وعن المكان الذي نُسبتُ إليه وأنه كان يتأسف على المعاملة السيئة التي كان ينتهجها آمر المركز اتجاهي فقلت له بهدوء كمن لم يكن يسمع ما يقول:

من أين كل تلك الرسائل التي كانت تصل لأمي في غيابي؟

وقبل أن يجيب دخل النقيب حسين وهو يكبرني بخمس سنين كما وقد تعلمنا الاحترام العسكري فوقفت له احتراما دون شعور ولا أعرف بما أخاطبه؟ بإسمه أم بنقيب حسين فسلم علي وطلب مني الجلوس وقال بصوته الرخيم الواثق:

يا أخي... أنا من كان يكتب تلك الرسائل لوالدتك، فقد كنت أرقبها وأنا أنزل من السيارة العسكرية التي تقلني يوميا وهي تنتظرك في الباب، كان ذلك المنظر يؤلمني جدا، فقررت بالاتفاق مع أمي أن نرطب جفاف قلبها الطيب ببعض الاكاذيب البسيطة حتى تنهي فترة التدريب وتعود إليها، وخصوصا إن ما كان يردنا من أخبار عنك وأنت في مركز

التدريب لا تبشر بأي خير، أما عن كثرة الرسائل فالسبب غيابك الطويل ولفترة أشهر عدة فما كان أمامنا إلا أن نستمر بخدعتنا أطول فترة لأن الانقطاع سيقلق أمك الطيبة.

أكمل أحمد كلام أخيه وهو ينظر إلي بحزن:

كم ألمتني طريقة تعاملهم السيئة معك وحجم الظلم الذي وقع عليك لكن كان الالم الأكبر هو أن أكون قريبا منك ولا أمتلك القدرة على محادثتك خوفا من آمر مركز التدريب.

فجأة سمعنا صوت بكاء وكأن احدا ما يكتمه لتظهر أمي وهي تقول:

لا أدري أأغضب منكم أم أشكركم، فمن حقي الغضب على خداعكم لي، فلو اخبرتموني بما يحصل لوحيدي ربما كنت قد قدمت له شيئا من المساعدة ولزرته في المركز وتوسلت لذلك الظالم كي يكف عنه اذاه، واشكركم على تلك الرسائل التي منحتني كل تلك الفرحة والاطمئنان على ولدي فلولاها لتوقف قلبي عن النبض إلى الأبد شوقا وخوفا.

ساد الصمت المكان فالكل لا يجد ما يقول أمام ذلك السيل المنهمر من عيني أمي الطيبة من الدمع حتى كسرته أم حسين بطريقتها المعهودة وصوتها العالي:

يا بنات ما أخبار العشاء؟ أما أن يكون هنا خلال دقائق أو أتي اليكن أكسر رؤوسكن.

لم تفلح كل محاولاتنا في مغادرة المنزل فقد كانت للخالة كلمة الفصل وراح الطعام يصف على أرض الصالة حتى أخذ ما يقارب ربع مساحتها.

قاطعته ماري قائلة:

ولما تضعونه على الارض؟ ولما هذه الكمية الكبيرة من الطعام؟

ضحك خالد وأكمل سرد قصته:

نضع مفرش من النايلون ويرتب عليه الطعام ويحيط به مجموعة من الافرشة الخفيفة ويطلق عليها باللهجة العراقية بـ(الجودلية) ليجلس عليها الضيوف، هذه عاداتنا، أما بالنسبة لكمية الطعام... فالعراقيين معروفين بكرمهم.

لا أخفي عليك كانت تلك الأمسية كحبوب مهدئة من حالة الاحباط الذي كنت أعيشه ولم تكن تلك البنات اللاتي كن يرمقنني بنظرات الأعجاب، حيث كانت النساء آخر ما أفكر به، بل الخالة وهي توجه مدفع لسانها الرشاش على الجميع بأسلوبها المرح والمضحك حتى أني ضحكت عدة مرات رغم أنف حزني، وهي تطلق النكات على الجميع وخصوصا أبا حسين الذي ما كان ينقصه دهاء، فالرجل يعرف كيف يستفزها حيث يرميها بحجر من فمه فتتساقط الثمار من فمها كلمات.

بيان البيانات...
(فرحة العراق الكبرى)

في اجازتي الثانية بعد شهر من تلك الاجازة التي خسرت فيها عبير كانت الساعة قد قاربت على الثامنة والربع وكنت مستلقٍ على الأريكة الخشبية الوحيدة في البيت، بينما راحت أمي تعد العشاء لنا نحن الاثنين، فسألتها إن كانت تود المساعدة؟ فردت علي بابتسامة كلها فرح بالرفض وأن تعبي راحة لها.

نهضتُ من مكاني بغية مساعدتها في اعداد السلطة وتوجهت إلى تلك البقعة الصغيرة والضيقة التي نسميها مطبخ، سمعنا صوت اطلاق نار كثيف لا نعرف مصدره وكأننا في معركة، فخرجت من البيت رغم محاولات أمي بمنعي خوفا علي مما يجري في الخارج، فوجدت الناس كلها قد خرجت إلى الشارع وهم يرقصون كالمجانين حتى ان أحدا منهم لم يجبني على سؤالي من شدة الفرح.

فجأة رشقني جاري الكبير بالسن بدلو من الماء وهو منفجر من الضحك وهو يتقفز مع أحفاده وكل منه يحمل الماء بطريقة مختلفة، فأصابني بالعجب من تصرفه الغريب، كيف لهذا الرجل الوقور يفعل ذلك الفعل الجنوني، تركني ودخل يملأ الدلو ثانية وأنا متسمر في مكاني مع دهشتي الكبيرة.

احتضنني أحدهم من الخلف ورفعني وألقاني على الأرض وهو يصرخ بوجهي كالمجنون، وأنا مستلقي على ضهري اكتشفت أنه أحمد

جاري فصرخت به مالكم جننتم هكذا؟

صرخ بوجهي:

لقد توقفت الحرب يا رجل.

لم أصدق ما قاله أحمد في أول الأمر لكن بعد لحظات كنت احمل دلوا من الماء وألقي به على جاري الكبير بالسن بتصرفات تثبت أني أصبت بفايروس الفرح والجنون.

قاطعته ماري:

ألهذه الدرجة كانت الفرحة؟ اكاد لا أصدق ما تقوله، على ما يبدو أن الشعب العراقي جن.

نعم وأكثر... بعد ثماني سنوات من الحرب التي مورس فيها كل أنواع القتل والدمار بل وحتى جرائم الحرب ففي يوم الأول من كانون أقدم الايرانيون على اعدام الاسرى العراقيين ليكون يوم الشهيد العراقي وفي يوم آخر سقط صاروخ سكود على مدرسة بلاط الشهداء للأطفال في منطقة الدورة وأحدث كارثة إنسانية بعد أن فارقت أروح الصغار اجسادها الغضة، كان الموت يحاصرنا في كل مكان في جبهات القتال ويهدد عوائلنا في كل أنحاء الوطن، وبالمقابل ما حصل في العراق حصل ايضا في ايران تحت مسمى حرب المدن حيث نجح العراق بتطوير صواريخ سكود الخاصة به لتصل للعاصمة الإيرانية طهران وصار وابل صواريخنا يطالها وبقوة حتى غدت مدينة أشباح، ولكِ أن تتخيلي حجم الموت والدمار في الجانبين من الأبرياء والعسكر، ولكِ أن تتخيلي مقصلة قد تتهاوى على رقبتك لتفصل روحك من جسدك وفجأة أخبروك أن ذلك الكابوس قد انتهى، كان يوم الثامن من آب يوم ولادة للشعبين العراقي والايراني على السواء.

ليس كل الوداعات محزنة...
بعضهن ولادة جديدة وعودة للحياة

دخلت إلى مقر الفوج فاستقبلني الرائد جودت بسعادة، وراح الفرح يرسم بفرشاته الملونة ملامحه على وجه ذلك الانسان الراقي، فسألته:

أدام الله الفرح عليك سيدي، لكني احب أن أعرف السبب؟

الرائد جودت:

هناك سببان لذلك... الأول تم ترقيتي لرتبة مقدم بعد أن خيرت بين العودة للتعليم أو الثبيت كضابط في الجيش العراقي، ولأني مقاتل من ثمانية أعوام ما عدت أستطيع ترك هذه المهنة الشريفة.

احتضنه وقلت له مبارك أيها الضابط الانسان، والثاني؟

الثاني... هو أن مدة خدمتك كجندي في الجيش العراقي قد انتهت رسميا وسنبدأ بترويج معاملة تسريحك أيها الجندي الأنسان.

صرخت دون شعور وعدت احتضن الرائد جودت مع القفز الشديد وكأني مجنون حقيقي، بينما صار الكل يصفق ويضحك عليّ غير مصدقين ما أفعل من تصرفات.

استلمت كتاب تسريحي من الجيش في اواسط عام ١٩٩٠ وكنت فرحا به جدا، ودعت زملائي المقاتلين إلا الرائد جودت ...عفوا (المقدم جودت) فقد تحول لأمرة لواء في منطقة أخرى من الجبهة.

كان هذا الوداع الأجمل في العالم، إذ لطالما كان الوداع مصحوبا بالحزن إلا في حالة مغادرة السجن أو المستشفى وأنا قد غادرت الموت والبُعد والقسوة إلى الابد.

عكس كل المرات في عودتي كنت اختصر وقت الطريق بالنوم كي أتخلص من تأثير الثواني القاتل لعناق أمي، إلا هذه المرة فقد كنت أحصي كل تفاصيل الطريق وكأني ألقي عليها تحية الوداع، أحببت ذلك الشعور بالقوة وأنا أضع قدمي في بغداد لأول مرة فقد حفرت تلك الحادثة التي ألقى بها الانضباط العسكري عليّ في وجداني على شكل رعب لا ينفك أن يغادرني حتى اليوم، ولكن يبدو أن الورقة التي بين يدي من الوحدة تحمل صك الحرية والخلاص من عبودية الجيش القاسية منحتني كل تلك القوة، لو تعلمين يا ماري ما ألذ طعم الحرية.

كان الفرق شاسعا جدا بين الحياة المدنية عن تلك التي عشتها في الجيش، فشتان بين قلة والطعام وبين طعام أمي اللذيذ والوفير، لكن المضحك هو علاقة الحب التي نشأت بيني وبين ثلاجتنا البسيطة، رغم قدمها لكنها كانت نعمة كبيرة بالنسبة لي حتى أني احيانا كنت أقبلها بعد أن اتذوق مائها المثلج وأحمد الله واشكره.

قدمت لوظيفة في احدى الصحف الكبيرة في العراق آنذاك وبالفعل تم قبولي كمترجم فيها للغة الانكليزية وبالفعل تم قبولي بسرعة فنظامنا الاشتراكي كان يعين الشباب كلهم دون استثناء، فمنحتُ مكتبا صغيرا وكرسي وآلة طابعة ومن حولي الزملاء والزميلات الجميلات.

رغم أن الراتب الشهري كان بسيطا لكن طعم استلامه لأول مرة في حياتي لا يوصف حيث توجهت للسوق واشتريت الكثير من الاغراض

ودخلت البيت محملا بها بعد أن أجبرت سيارة التكسي الولوج في زقاقنا الضيق لكثرتها.

كانت فرحة أمي كبيرة جدا لدرجة لا أستطيع وصفها بالكلمات فسألتها:

لم أكن أعلم أن الراتب الشهري سيسعدك إلى هذا الحد!

نظرت بعيني وراحت تتأملهما وقالت:

بل ما أفرحني هو فرحك يا نور عيني،... يا ولدي ما أن نرى أولادنا حتى ترتبط لحظات السعادة عندنا بهم، فنحزن اضعاف حزنهم، ونفرح أضعاف فرحهم، لكن يا ولدي احضرت الكثير من الأشياء لي وللمنزل، لكني لا أجد فيها شيئا لك؟

أجبتها بعد أن قبلت يدها المتصلبة من عمل البيت والخياطة:

خمسة وعشرون عاما وأنت تشترين لي ولا تشترين لك شيء، سأحتاج خمسة وعشرون عاما حتى أرد دينك.

تحركت ستائر القلب بعدما داعبتها رياح المشاعر

ضحكت ماري قائلة:

أف... اخيرا ظهر شيء ما يفرح في احداث قصتك أيها الحزين، لكن أخبرني ألم يداعب قلبك الحب اتجاه احدى زميلاتك الجميلات في الجريدة، أم أن طيف عبير ما مازال يلاحقك؟

أبتسم خالد ابتسامة حزن ساخرة ورد عليها بتثاقل:

في احدى الأيام تحركت ستائر القلب بعدما داعبتها رياح المشاعر عندما رأيت أحدى الزميلات التي كانت تتودد لي حيث كان طولها الفارع أحد أهم عوامل الاعجاب المباشر.

ماري وهي تضحك:

أيها المخادع ها أنت تبدأ من جديد مع فتاة أخرى؟ وتقول لي لم أعرف غير عبير!

قاطعها خالد بود وقال:

لم أجد الوقت الكافي كي أعشق من جديد.

ماري باستغراب ابتسامة:

وهل يحتاج العشق لوقت يا رجل؟ ...وكم يا ترى يحتاج قلبك المدلل ليعشق؟

تنهد خالد بحرارة وقال:

في نفس العام الذي تسرحت فيه من الجيش اندلعت حرب الخليج الثانية بعد أن دخل العراق الكويت وعلى الفور تشكل تحالف دولي

لحرب العراق بقيادة الولايات المتحدة الامريكية، مما دعا بالجيش العراقي لاستدعاء قواته من الجنود الاحتياط، ومن المؤكد كان أسمي ضمن الأسماء.

قاطعته ماري باستغراب أشد:

لكنك تركت الجيش من فترة قصيرة، كيف تعود له ؟ أليس في العراق غيرك من رجال ليدافع عنه؟

تحشدت ضدنا ثلاثون دولة بقيادة امريكا القوى الأكبر في العالم مدججة بآخر ما توصل له العالم من وسائل التدمير على دولة من دول العالم الثالث، كانت الحرب بالنسبة لهم كمناورة يجريها الجيش الأمريكي ولكن بعدو حقيقي ودماء واسرى وصراخ جرحى.

قاطعته ماري:

لكنكم قمتم بنفس الفعل مع دولة أصغر منكم وأقدمتم على احتلالهم ومن ثم ضمهم لدولتكم.

سأختصر الجواب بقول رئيس المخابرات الفرنسية

(الكويت... الفخ الذي لابد من الوقوع فيه).

ماري:

لكن هذا لا يغفر.

خالد:

ومن قال أني أدافع عن نظام حاكم؟ لكن لو رغب الامريكان انهاء المسألة بطريقة دبلوماسية وسياسية لفعلوا، لكنهم استغلوا المشكلة بين العراق والكويت ليوقعوا بالعراق في شرك كبير وخطير.

أنتظرك في عتمة مشاعر
لا تنجلي إلا بظهور وجهك

كالعادة تم تنسيبي لمكان هو الأسوأ مقابل مدينة الخفجي السعودية، حيث بدأت العمليات الحربية عندنا حتى قبل أن تبدأ في الجبهة كلها، حيث اقدمت خمسون دبابة عراقية بدوران أبراجها عكس القوات الامريكية وتوجهت إليهم فظنوا أنها تود الاستسلام فلم يطلقوا عليهم النار، وحين دخول تلك الدبابات لمواقع العدو أطلقت وابل قذائفها عليهم فأوجعتهم جدا وكبدتهم خسائر كبيرة وأجبرت البقية على ترك المدينة لقواتنا التي لم تدم فرحتها بالانتصار طويلا، فقد أبادتها الطائرات الامريكية بعد ساعات فقط.

كانت الحرب غير متكافئة تماما فقد دمر جزء كبير من الجيش العراقي لكنه بالمقابل أظهر شجاعة كبيرة وخصوصا من قوات الحرس الجمهوري التي تم تنسيبي إليها مما أجبر الامريكان على وقف لإطلاق النار لينهي المعركة بعدما تيقن تماما أنه سيدفع بالكثير من الخسائر لو توجه لبغداد، ولكن تلك الحرب استمرت لثلاثة عشر سنة من خلال حصار قاتل حظر للطيران العراقي.

ماري:

لا تقل لي أنك لست محظوظا فقد نجوت من هذه المعركة الشرسة دون أي اصابة.

ضحك خالد من قلبه:

بالتأكيد لست محظوظا كي أنجو من هكذا معركة فقد وقعت أسيرا لإصابتي بجرح جراء القصف الجوي على مواضعنا، حيث كان انتقامهم منا شديد القوة، ولشدة القصف علينا لم يتمكن رفاقي المقاتلين من اخلائي مع بقية الجرحى فسجلت شهيدا في الحرب، بعدها سقطت مع مجموعة من رفاقي المقاتلين اسرى بيد الجيش الامريكي في نهاية المطاف.

ماري:

يا إلاهي... من أنت وما هذه القصة الحزينة؟ أرجوك أحكي لي ما حدث لك في الأسر.

حاول خالد التكلم بعد صمت كأنه يحاول التهرب من الذكريات الحزينة لكن لا مناص من الاعتراف بكل تفاصيل القصة فقد شعر أنه بحاجة ماسة للتخف من أعباء ما يحمل من ذكريات:

بعد وقوعي في الأسر عرض علي الصليب الأحمر اللجوء إن كنت راغبا باللجوء الانساني لكني رفضت ذلك.

قاطعته ماري وقالت بحرقة:

لما اضعت هذه الفرصة التي قاتلت للحصول عليها بعد تسعة عشر عاما، كان حريا بك الموافقة والهرب من جحيم العالم الثالث إلى جنة الغرب المفعم بالراحة والأمان.

نفس التساؤل كان قد بدر من بعض زملائي اللذين وجدوا وقوعهم في الأسر فرصة كما قلتي أنتِ، لكن كيف أترك أمي وأنا وحيدها وعينيها التي تراني بهما؟

ماري:

كان عليك التفكير بنفسك أولا فأنت الحاضر والمستقبل وأن لا تقيد مستقبلك بسيدة عجوز، قد أفلَ نجمها وأني لأعجب من تفكير شخص متعلم أن يقيم الأمور بهذه النظرة الضيقة!

رفع رأسه عن صدرها ونهض بنصف جسده وأنزل رجليه من السرير وادار ظهره لها معربا عن غضبه ومنزعجا من كلامها.

وضعت يدها على كتفه وسألته:

هل في كلامي ما أزعجك؟

أدار وجهه باتجاه وجهها دون أن يدير ظهره وقال بصوت كله اصرار بنكهة الغضب:

أتعرفين ما يعني أن يكون رد الجميل لشخص أفنى حياته في سبيل أن أكبر كل يوم بأن أتركه؟ أتعرفين ما يكون شعور شخص اختزل كل احلامه وطموحاته في خرقة يقيس كل يوم فيها طولي وأنا أكبر؟ تلك المرأة جعلت حياتها بحياة وحيدها الذي رؤيته فقط تعدها نعمة من الله يستحق أن تحمده كل يوم، أتعرفين معنى أن تودعني امرأة في السابعة صباحا وتنتظرني ثمان ساعات في عتمة المشاعر ولا تشرق إلا بحضوري، تلك المرأة هي أمي.

ماري:

لا أخفي عليك... رغم رغبتي للعيش بحرية دون أن يقيد أحدا ما تصرفاتي أو أن يكون حاكما علي، لكني أحسدك على حب الأم ورعايتها لك، وخوفها الشديد عليك، فعوائلنا تفتقد هذا الترابط القوي والشعور المفعم بالإخلاص.

صمتت ماري قليلا وراحت تستعيد بعض الأحداث من رفوف ذكرياتها

واكملت كلامها:

علاقتي بوالدي كانت سطحية جدا ولم نكن نحمل هذا الانتماء للبيت والأسرة لأننا كنا نقضي أغلب الوقت في المدرسة، حيث أغادر في السابعة والنصف وأعود في الخامسة، فأتجه لغرفتي قبل أن يعود من عمله الليلي كممرض منهك جدا لذلك لم نكن نرى بعضنا إلا نادرا.

خالد:

ما أكثر من فقد والده في العراق بسبب الحروب، لكن امهاتنا كانت البديل الناجح دائما في التعويض عن الآباء لذلك نحن مرتبطون فيهن عاطفيا جدا، بالتأكيد أمك كانت خير عوض عن غياب والدك.

ماري:

تركتني أمي بعد ولادتي بثلاث سنوات اثر شجار مع والدي حيث كانت على علاقة بزميل لها في العمل، ومن تلك اللحظة لم أراها أبدا.

نزلت دمعة من عين تلك السيدة المبتهجة لأول مرة فمد اصبعه ليمسحها بعدها ضمها لصدره.

غيرت ماري مجرى الحديث :

لا بد أن اللقاء بوالدتك كان يحمل ضجة أكبر من تلك التي حدثت حين عودتك من الجبهة في ذلك اليوم الذي أخبرتني به؟

رد عليها خالد بصوت خافت

أنا أيضا كنت أتخيل أن يكون اللقاء كما تصورته أنتِ، لكن للأسف كان بشكل آخر تماما.

أشاح وجهه عنها وأخفض رأسه وأكمل كلامه:

عندما وطئت قدماي بداية الزقاق بعد أربعة أشهر من الأسر، راح

الجميع يسلم علي بلهفة مشوبة بالحزن والحذر، فلا (الهلاهل) التي تخيلتها ولا علامات الفرح، لكن أكثر ما اثار استغرابي هو استقبال الخالة أم حسين بالدموع وراحت تحتضنني وتبكي بحرقة تختلف تماما عن الفرح، فسألتها بخوف:

هل حصل شيء لحسين أو أحمد؟

سكتت دون إجابة لكن ظهور أحمد بيد واحد أعطاني الإجابة، فتركتها واحتضنته عندها بكيت وبحرقة، ولم أتخيل شعور أن يفقد شاب جزء من جسده في حرب لا يعرف اسبابها الحقيقية، تركته واتجهت إلى بيتي ورحت اطرق الباب دون أن يُفتح فألتفت إلى الجميع وسألتهم بعيني أين أمي، فجاء صمت الجميع ودموعهم جوابا حاسما على رحيلها.

قفزت ماري واحتضنته من الخلف بينما أجهش هو بالبكاء بعدما اطاحت أمواج الذكريات بتصبره كرجل شرقي يأنف البكاء.

ماري:

أبكيتني على تلك المرأة التي لم أعرفها، وعلى سوء حظك.

كذلك فعل زرادشت عندما سردت له ما استجد من قصتي.

فتحت عينيها وقالت:

زرادشت الجندي الايراني؟

خالد:

بل الفنان الإيراني فأنا وهو لم نكن جنودا أبدا في يوم من الأيام.

خالد:

دعك من هذا وأخبرني كيف ألتقيت جندي العدو بعد أن انهيت الخدمة العسكرية قصتك ضرب من الخيال.

حياتي من دونكِ
سجن من الذكريات يقتلني كل حين

عدت لعملي السابق كمترجم في نفس الجريدة لكن بلا فرحة التعيين الأول، ولا سعادة استقبال أمي لي، حتى الدار التي أعيش فيها تحولت لفندق للمنام فقط، حيث تحول المكان الوحيد الآمن لي لسجن من الذكريات يقتلني كل حين، فلكل زاوية ومكان فيه ذكرى مع أمي.

كنت أعود إليه في آخر الليل بعدما أنهي أعمالي وأعمال غيري متهربا من تلك الجدران الآمنة التي تحولت لسجن لي ولروحي المسكينة.

حاولت ماري مشاكسته واضافة بعض المرح للحديث:

وتلك الزميلة التي داعبت رياحها ستائر قلبك؟

– من بمثل سوء حظي لا يستطيع الاحتفاظ بالأشياء الجميلة، فقد اختطفها من كان بوضع مريح أفضل مني، أضيفي لذلك أني كنت منشغلا بحزني على أمي، فلم أعد ارى من حولي سوى العمل الذي انغمست فيه وبقوة.

– لكن لحد الآن لم تخبرني كيف ألتقيت زرادشت وما دار بينكما؟

تنهد خالد وكأنه يستعد للولوج في قصة جديدة

بعد فرض الحصار الاقتصادي على العراق عام ١٩٩٠ عانى العراق ما عانى من نقص حاد في الدواء والغذاء خصوصا أن حرب الثلاثين دولة ضده كان موجعة جدا حيث ضربت كل البنى التحتية في العراق من محطات توليد الطاقة الكهربائية ومحطات ضخ وتنقية المياه والعديد

من الجسور مثل الجمهورية والمعلق وكذلك في مختلف محافظات العراق، كان الجوع يضرب كل البيوت العراقية دون استثناء، نقص لقاحات الأطفال وشحة الحليب سبب مقتل أكثر من ٥٠٠ ألف طفل عراقي، اضطرت الدولة لإيجاد نظام صارم لتوزيع المواد الغذائية لتلافي المجاعة ومنع تجار الحروب من استغلال الشعب، وللتاريخ أذكر أنه كان نظام في غاية الدقة والعدالة فقد ساوى بين جميع افراد الشعب دون تميز.

مرت السنوات الست الاولى كارثية، فقد اضطرت الدولة لاستبدال الطحين بخلطة من القمح والشعير والذرة بل وحتى نواة التمر، حُرِمَ الشعب من كل كماليات الحياة بل وحتى الحلويات والمشروبات، فقد منعت وبشدة محلات (الايس كريم) واوقفت معامل المشروبات الغازية بجميع أنواعها.

ماري:

لكن تلك العقوبات كانت من قبل المجتمع الدولي على العراق.

خالد:

المجتمع الدولي؟؟ أي مجتمع حقيقي الذي يرتضي ضميره بقتل أكثر من مليون مواطن عراقي نصفهم من الأطفال ونصفهم الآخر من كبار السن بجريمة يندى لها جبين الانسانية، ومن قال أن الأمم المتحدة تمثل المجتمع الدولي؟ فالكل يعلم أنها اداة لحكم العالم من قبل الأمريكان لا غير.

ماري:

لن أدخل معك في جدل سياسي، أكمل قصتك المثيرة التي تجاوزت

قصص أجاثا كرستي تشويقا، أريد معرفة المصادفة التي جمعتك بزرادشت وكل منكما يسكن بلدا ما فتئ يعادي البلد الآخر.

عاد خالد لطبعه الهادئ ثانية بعد زوبعة خفيفة من الحدية:

في عام ٢٠٠٠ كلفت من قبل الجريدة بتغطية مؤتمر مهم في لبنان حيث بدئت قبضة الحصار على العراق تخف تدريجيا مع تململ الدول من ذلك الحصار الجائر، وبنفس الوقت كانت تلك فرصة لرؤية العالم خارج حدود العراق.

ماري:

أيعقل أنك بلغت الخامسة والثلاثين ولم تتعرف على العالم خارج بلدك؟

خالد:

هذا حال أغلب العراقيين من مواليد الستينيات والسبعينات في العراق فقد مُنعنا من السفر لانشغالنا في الحرب مع إيران لمدة ثماني سنوات بعدها بسنتين تماما دخل العراق في حرب الخليج الثانية التي كانت وطأتها شديدة جدا نفسيا وماديا وصحيا، على كل حال سأكمل ما بدأت به... كان علينا السفر أولا إلى عمان برا لأن العراق كان تحت الحظر الجوي، بعدها نستقل الطائرة من عمان إلى بيروت مع صديقي المحرر، وكم كانت تجربة الطيران رائعة رغم قصر الوقت، لك أن تتخيلي شعبا يعتبر أن السفر بالجو انجاز يتباهى به ويتفاخر.

من حسن حظي هذه المرة أني كنت بجانب النافذة المطلة من الطائرة، مما أعطاني فرصة رائعة للتمتع بجمال بيروت التي تشع سحرا في المساء، وعندما اقتربنا منها راحت الطائرة تدور حول

ساحلها للتهيؤ للهبوط حيث كانت المباني تُطرزُ جبالها التي ما عاد فيها متسع لأي بناية أخرى لشدة تلاصق البنايات، كل شيء كان باهرا لي، وأنا الذي عرفت الجبال مظلمة ومرعبة في الجبهة وتحمل الموت والكمائن في طياتها وخلف صخورها، ها هي نفس الجبال قد نشرت الحياة والحب والسعادة.

كان زميلي المحرر تعب جدا من السفر الطويل الذي استمر قرابة الأربعة وعشرين ساعة من بغداد إلى بيروت في حين أن رحلة الطائرة لو كانت مباشرة بين المدينتين لا تستغرق الساعة والنصف، أما أنا فبعد أن وضعت حقائبي نزلت على الفور لأتمشى على منطقة الكورنيش أو كما يسمونها في بيروت (الروشة) حيث رحت اتطلع في أناس مختلفين تماما عما عرفتهم طوال عمري فشتان بين من يعيش الموت حربا وجوعا وبين من يمارس الحياة، نساء ترتدي الشورت وتهرول لتكتسب جسما جميلا رغم أن جسمها رائع بكل المعاير الجمالية، شيوخ تهرول ببطء متمسكين بالحياة بينما راح البعض يقود الدراجات الهوائية، الكل هنا مختلف تماما عن المكان الذي جئت منه، حينها عرفت كم نحن طيبين في العراق، فرغم كل المآسي نفرح ونضحك ونتزوج وننجب ونحارب ونموت ولا ندري أننا كنا ميتين أصلا في الحياة ولا ندري. أنها لفظتنا من رحمتها منذ أول يوم في الحصار

في الصباح نزلنا مطعم الفندق وكان الفطور (بوفيه) مفتوح وتسطرت كل أنواع المأكولات الصباحية رحت أسير خلف زميلي المحرر واراقب ما يقوم به من تصرفات وكأني أتبع التعليمات منه دون شعور رغم أني أكبره بعشر سنوات، كان الفطور شيئا لم أتناول مثله في

حياتي رغم أن أغلبه معروف في العراق، لكن الجو المحيط من سيدات جميلات رحن يغردن كالبلابل بلهجتهن اللبنانية الجميلة والمكان الأنيق جعلت ملائكة الجن يدرن حولي.

توجهنا إلى السفارة العراقية في بيروت ومن هناك رافقنا أحد الموظفين الأنيقين إلى مكان المؤتمر في وزارة الخارجية اللبنانية وهي في أحد مناطق بيروت الراقية جدا وانيقة فدخلنا قاعة ملئت بالإعلاميين ومراسلي القنوات فظهر وزير الخارجية الانكليزي ونظيره اللبناني وكانت مهمتي هي ترجمة ما يقول لزميلي المحرر ليصوغ هو السؤال الذي يريده وحسب مجريات الحوار، لكن قبل اللقاء وقعت عيني على شابة يبدو عليها أنها في الثلاثين تلبس قميص أحمر من الستان وتنورة قصيرة فوق الركبة بحوالي العشر سانتيمات وقد فتحت الزر العلوي للقميص

ليضيف سحر الشعر الاصفر بريقا ذهبيا على بشرة وجهها البيضاء الجميل الملامح، دون شعور شغلت كل مشاعري الذكورية، كانت صاحبة حضور اخاذ رغم وجود عدد هائل من الجميلات ومن كل الجنسيات تقريبا.

كاد أن يكتمل المؤتمر الصحفي بعد ساعة من بدئه وكنت مستغربا جدا فلم يذكر أسم العراق ولا قضية الحصار فبادرت بسؤال وزير الخارجية الانكليزي:

ألا يقع على عاتق الدول الأوربية مسؤولية انسانية في انقاذ الشعب العراقي من هول الحصار الجائر عليه، خصوصا وأن بريطانيا عضو دائم في مجلس الأمن الدولي، والمفروض أن من يدافع عن حقوق

وحرية الفرد في المجتمع الأولى به أن يدافع عن حياة شعب بأكمله يباد دون ذنب أو جريمة.

فجأة علا التصفيق لي في كل القاعة بما فيهم تلك الشابة الجميلة التي تحدثت الفرنسية بطلاقة، ولا أخفي عليك كان تصفيقها أكثر ما همني .

أنتهى المؤتمر وكنت محط انظار الجميع وجاء الجميع يصافحني ويقدم لي الدعم المعنوي لي ولشعب العراق بما فيهم تلك الشابة فتقدمت ومدت يدها تصافحني وهي تقول بلهجة لبنانية كلها أنوثة:

(يسلم تمك يا بطل).

مددت يدي لأصافح تلك اليد الناعمة كالغيم واجبتها بملامح لا تخفي انبهاري بها:

هل أنت عربية، لطلاقة لغتك ولكنتك الفرنسية المتقنة توقعت أنك باريسية بامتياز.

غمزت بعينها الواسعة وقالت:

أنا من أب لبناني ومن أم فرنسية كما وأني درست الاعلام في فرنسا وحاليا أعمل مراسلة في أكبر قناة فضائية في الوطن العربي.

لم أجد ما ارد به عليها فقد كان ملمس يدها الرقيقة وغمزة عينيها فعل الخمر على رأس رجل لم يتذوقه طوال عمره.

سَحبت يدها من بين احضان يدي وكأنها كانت تسحب روحي من جسدي وقالت:

أعجبني دفاعك عن أبناء شعبنا في العراق، فقد تكلمت بما تمنت روحي النطق فيه قبل شفتي لكن أنت تعرف سياسة الفضائيات الكبيرة

والتقيد بها عُرف أعلامي.

هززت رأسي موافقا دون أن أرد بحرف واحد، فقد أصابت لباقتها كل خلايا دماغي بالشلل.

فجأة تدخل أحد زملائها مناديا لها وهو يدعوها للمغادرة

فأكملت كلامها معي قائلة وهي بعجالة من أمرها:

تكريما لك ستكون أنت وزميلك ضيفي اليوم على العشاء في مطعم وكازينو (نصر) في الساعة الثامنة مساءا فلا تتأخر أرجوك.

تركتني وغادرت فرحت دون شعور أسير خلفها ببطئ مبتعدا عن جوقة من دار حولي يتكلم معي وأنا ارقب هذا الملاك السماوي يغادر المكان.

فجأة أرتطم بي شخص مسرع فسقطت أوراقي وأوراقا كان يحملها بيده فقال بلهجة عربية متكسرة:

أنا أعتذر جدا فقد كنت في عجلة من أمري.

كان الصوت والنبرة كزجاجة عطر تحتوي رائحة قوية تستخدم لإفاقة أحد الأشخاص المغمى عليهم، بينما جثى هو على إحدى ركبتيه يجمع أشلاء حزم الأوراق المتناثر على الأرض، حينها نَطقتُ حروف أسمه بقوة وبطئ: (زرادشت)؟

للحزن والانكسار هيبة
لا يعرفها إلا من عاشها واحس بوطئة ثقلها عليه

رفع الرجل عينيه إلى الأعلى ونظر إلى وكأنه لا يصدق ما رأته عينيه وصرخ بصوت عالي(خالد)

دون شعور أعاد رمي كل تلك الاوراق التي جمعها وقفز يحتضنني بقوة وهو يضحك بشدة، وأنا كنت بمثل ما يفعل من الفرح والدهشة.

سألني:

ما تعمل هنا؟

فأجبته ليس هذا المهم، المهم أن نلتقي اليوم لأني مسافر في الغد عصرا إلى عمان، لذلك أنا أدعوك لتناول طعام الغداء معا.

زرادشت:

لا...لا أعتذر جدا لدي اعمال كثيرة في وزارة الخارجية اللبنانية أعطني أسم الفندق وسأتصل بك اليوم.

أخبرته أسم الفندق وخرجنا أنا وزميلي وموظف السفارة العراقية وتوجهنا إلى أحد المطاعم لتناول الغداء بعدها كان الفندق وجهتنا الثانية وقمنا بتوديع الموظف الذي قال أنه سيكتب ما حدث كله بتقرير كي تكرم من قبل القيادة في العراق.

كنت في غاية الزهو لدرجة أني لم أكن أصدق ما جرى تصفيق وشابة تدعوني للقائها وألتقي صديقي زرادشت وهذا الموظف في الخارجية يعدني بتكريم من القيادة في بغداد وفوق هذا كله هناك فرق مادي

في مبلغ الرحلة كان سيعود علي بمبلغ كبير في العراق، كل هذا في يوم واحد.

حلت الساعة السادسة مساءا فقلت لزميلي المحرر:

ألا تغير ملابسك لدينا موعد في الثامنة أم أنك نسيت؟

لكنه أعتذر عن الذهاب معي بحجة أنه موعوك قليلا ويحب الراحة قبل السفر كما وعليه اعداد التقرير الصحفي الخاص باللقاء وتسليمه لموظف السفارة كي يرسلوه عبر الفاكس للجريدة، فقلت له مرعوبا:

وكيف لك أن تتركني لوحدي مع تلك التحفة البشرية قد أموت مختنقا غرقا بكل ذلك الجمال.

رن جرس الهاتف فإذا به زرادشت يطلب مني أن نلتقي في تمام الثامنة، شعرت بالإحراج قليلا ثم قلت له:

هل تعرف مطعم (نصر)؟

فأجابني نعم هو مطعم معروف جدا في بيروت.

قلت له وبفرح:

أذن سيكون موعدنا في تمام الساعة الثامنة لأني مدعو من قبل شابة في غاية الجمال هناك.

أغلقت الهاتف وكلي فرح فأعتذار زميلي قد أنقذ اللقائين معا.

استأجرت سيارة التكسي وأعطيته أسم المطعم فوضعني في بابه في تمام السابعة فقد كانت رغبتي باللقاء أكبر من أن أنتظر لغاية الثامنة، استقبلني موظف المطعم بكل احترام وأناقة وقال:

شرفتنا أستاذ تفضل على الرحب والسعة.

قلت له بكل وقار وزهو :

عندي موعد مع الإعلامية زينة العربي في مطعكم.

انفرجت أكثر شفتاه وهز براسه احتراما وقال:

تفضل معي استاذ فطاولتكم محجوزة منذ ساعات.

قادني الموظف إلى الطاولة الأنيقة المطلة على البحر في منظر مدهش للغاية فجلست اتأمل هذا المنظر المهيب حيث أمتد البحر إلى ما لا نهاية البصر، وبعد نصف ساعة اكتملت الدهشة بحضور الآلهة عشتار متمثلة بتلك الشابة الرائعة الجمال وهي ترتدي فستان اسود مفتوح الكتفين جزئيا وجلست أمامي وسألتني إن قاموا على ضيافتي بطريقة جيدة؟ فأجبتها بالإيجاب عندها طلبت فنجانين من القهوة وسألتني:

بأي طعم تحب أن تكون أركيلتك؟

أجبتها وكأنها كانت تعرض علي نوع من المخدرات.

لاااااا أبدا لا أدخن.

ردت علي بطريقة حنونة.

هي أركيلة يا رجل، وهل تحلو السهرة بدونها سأطلب لك أنا على ذوقي.

دون شعور نهضت من مكاني وأنا أحرك يدي بالرفض القاطع:

لا... لا أريد أرجوك.

قوست فمها تعجبا وقالت بهدوء وهي تضحك:

هون عليك لم أطلب لك نوع من الممنوعات لتتصرف هكذا، اجلس أرجوك.

قبل أن أجلس لمحت زرادشت وهو يلوح بيده فرحا لأنه وجدني،

ورحت ألوح أنا إليه بيدي ايضا، وما إن اقترب منا حتى عرفته على الشابة التي كانت تضع رجل على رجل وقد انكشف جل فخذها:

إعلامية عربية وهي تعمل في أكبر محطة عربية.

وتوجهت بيدي إليه وقلت:

زرادشت صديقي إيراني الجنسية.

حركت رأسها بدهشة واستقامت بجلستها وقالت:

عراقي وإيراني أصحاب، مفاجئة غير متوقعة، أين اجتمعتم وأنتم في حرب وقطيعة منذ عشرون عاما؟

جلسنا الاثنان قرب بعض وطوقت يدي خلف ظهره فقد كنت أنا الأضخم وقلت لها وأنا أمارس دوري بإدهاشها:

في جبهة القتال.

كررت بعدي ما قلت:

- في جبهة القتال! هذا غير معقول... كيف وما الذي جمعكما.

- ما جمعنا هو احترامنا للحياة وكرهنا للقتل وحبنا للإنسانية وكرهنا للحرب.

- ما أغرب ما أرى وما أسمع.

كانت تلك الليلة تحمل كل معاني السعادة في نفسي، كنت مزهوا لدرجة الثمالة ما هي إلا لحظات وأصبحتُ محط الأضواء حيث راحت ترمقني الشابة بنظرات الاعجاب بينما تسمرت عيناي بنظراتي التي لا تفارق وجهها وتصرفاتها الرائعة خصوصا طريقة تدخينا الأركيلة ونفثها للدخان في الهواء، كان تفكيري ذكورا بحتا بعيدا عن التحفظ.

استمرت سهرتنا إلى الواحدة ليلا عندها استأذنت منا الأنسة بعد

أن تبادلنا أرقام الهواتف وسألتني عن بريدي الالكتروني فقلت لها لا أملك فهزت برأسها وقالت:

في أي عزلة أنتم تعيشون للأسف، كانت بغداد في الثمانينات كما يخبرنا عنها الأكبر منا سنا عروسا للعواصم العربية، ومركز اشعاع حضاري وثقافي.

لم لا تحيا انتصاراتهم إلا بموت أحلامنا

غادرنا جميعنا المطعم لنكمل أنا وزرادشت المسير على أرجلنا على البحر فقلت له.

– أتذكر يا زرادشت عندما كنا نلتقي وكل ما حولنا مظلم كأفراخ الدجاج عندما توضع في صناديق من الكارتون المغلق لتباع في الشارع فيما بعد تعتصرها أيدي الأطفال لتموت خنقا؟

– أتذكر عندما كنت أضع يدي على فمك عندما تعلو بضحكتك في عين الماء خوفا عليك من الجنود الايرانيين؟

– أعلو بضحكتي؟ أو تسمي تلك ضحكة؟ وصوتها علو؟

عندها صرخت بأعلى صوتي:

زرادشت... زرادشت... زرادشت صديقي زرادشت.

احتضنني عندها ورحنا نصرخ معا بأسماء بعض ونضحك كالأطفال المجانين لكنه استوقفني لحظة كمن تذكر شيء مهم وقال:

لابد أنك تزوجت عبير، وكم طفلا عندك الآن؟ أخيرا تحقق حلم أمك المسكينة.

سكتُ للحظات واغرورقت عيني دون أن تسقط دمعة وتركته وجلست على أقرب مسطبة فجلس بعدي وهو يقول:

ما بك يا رجل أقلقتني، هيا أخبرني بسرعة.

أجبته بصوت هادئ ساخر :

لا تزوجت عبير ولا أنجبت الاطفال ولم تفرح تلك الأم المسكينة بزواج

وحيدها ولا برؤية أطفاله، بل ماتت من حسرتها عليه ظنا منها أنه قتل في الحرب.

ساد الصمت المكان فللحزن والانكسار هيبة لا يعرفها إلا من عاشها واحس بوطئة ثقلها عليه.

قطع الصمت بسؤال زرادشت:

كيف حصل ذلك؟

أجبته بغضب حد الانفجار:

كيف لا يحصل ذلك ونحن نعيش في بلد لا تعد ولا تحصى حروبه، يحاربه العالم كله كي لا يكون قويا، يحاربه المسلم ويحاربه العربي وغير العربي، بلد لا يمل من الحروب، يقاوم الهزيمة معتقدا بانتصاره وهو يعيش الهزيمة كل يوم بموت أطفاله جوعا ومرضا، يدعي النصر على اعدائه وهو يدفع ثمنا لذلك النصر الوهمي ارواحا طاهرة من شبابه بلا سبب ولا قضية حقيقية، لما يعتبر قادتنا أن عِظَمَ النصر في كثرة عدد موتانا؟ لم لا تحيا انتصاراتهم إلا بموت أحلامنا، ثرواتنا تُنفقُ على شراء السلاح، نقتلُ ونُقتل كأطفال صبيان لا يجيدون أي نوع آخر من الالعاب، غير تلك التي تحتوي المسدس والبندقية، نحن نقتل أنفسنا من أجل أن يكتسب الآخرون مجدهم عبر صفحات التأريخ، نحن نخنق أنفسنا بكلمات مقدسة ونحملها ملا تطيق، أنا لا أريد أن أكون بطلا ولا شجاعا ولا قويا ولا قاتلا ولا غنيا ولا صاحب سلطة أو نفوذ، أريد أن أحيا فقط كإنسان، كان حلمي أن أرد الجميل للمرأة التي ربتني عمرا كاملا تنتظر فرحة تزويج وحيدها كي ترى أطفاله.

وألتفت إليه وتوقفت عن الصراخ:

هل هذا حلم صعب لهذه الدرجة يا زرادشت؟ ومن المستحيل تحقيقه؟

هل يهدد أمن العالم وقادته؟ أم هو مكلف يستنفذ ميزانيات الدول المرصودة لأسلحة القتل والدمار؟

احتضنني زرادشت ورحنا نبكي معا تلك الليلة والبحر يزمجر معنا غاضبا، أو ربما كان يبكي حالنا فلطالما وصلتني بعض القطرات من أمواجه يخبرنا بها أنه حزين ويبكي لأجلنا.

وصلنا لباب الفندق الذي أقطن في تمام الخامسة فجرا فسألت حينها زرادشت:

كم أنا أناني يا صديقي، تكلمت عن حالي ونفسي ولم أسألك شيئا، وما الذي أتى بك إلى بيروت؟

زرادشت:

على مستوى الوطن ما زال حفنة من الملالي الأغبياء يحكموننا ويتغنون بنصر وهمي على جارهم العراق المسلم ليعيشوا حالة من ازدواجية المبدأ، حيث قال الخميني في خطاب موافقته على قرار وقف أطلاق النار (كأني أتجرع كأس السم)، تخيل يعتبر حقن دماء الأبرياء (كأس سم)، ومازالوا يحلمون بالوصول إلى كربلاء والنجف وأحلامهم التوسعية على حساب المواطن الإيراني نفسه وحياته اليومية التعيسة، نعش في ظل حكمهم حالة من التراجع الثقافي والعمراني حيث انتهت الحرب وخمس وتسعون بالمئة من البنية التحتية الإيرانية مدمرة تماما، مع هذا كله ما عشته أنا لا يساوي نقطة من بحر حجم حزنك وآلامك، لذلك لن أخبرك به، أما عن سبب تواجدي هنا في بيروت فأنا أعمل في السفارة الإيرانية ضمن الملحقية الثقافية.

عندها شعرت بالخوف وقلت له:

الحمد لله أن زميلي لم يحضر العشاء معنا وإلا لكانت هناك كارثة كبيرة.

بعض الأحلام الجميلة تكون قاتلة
تمنحنا جرعة سعادة تبقى غصة للأبد

شعرت بيد زميلي توقظني بهدوء، عندها نظرت إلى الساعة المعلقة على جدار الغرفة حيث تعانق الميلان على الساعة الواحدة ظهرا بعد تلك السهرة الجميلة مع الشابة البيروتية الأصل فرنسية الطباع، وصديقي الوحيد تقريبا زرادشت، كان شعوري كمن تناول الخمر حد الثمالة وعاش نشوة لم تخطر بباله حتى استفاق على وجع الراس والواقع المرير، فقفزت من السرير وقلت له غاضبا:

لما تركتني انام يا رجل كنت اتمنى أن اتمش على البحر صباحا.

ضحك من قلبه ورد علي ساخرا:

ولما رجعت للفندق اصلا إذا كانت تلك رغبتك؟ فقد اشرقت الشمس بعد عودتك بنصف ساعة فقط، قم وأغتسل فلم يبقى أمامنا سوى ساعة نتناول فيها الغداء ونتجه إلى المطار.

جلست في المقعد الخلفي لسيارة التكسي التي توجهت بنا الى المطار، وأنا منزلق على مقعدها الخلفي كطفل انهى عطلة جميلة وعليه التهيؤ للدوام المدرسي الممل، رحت اراقب تلك العمارات الجميلة والنساء الجميلات والشوارع الجميلة و و و كل شيء هنا مختلف حتى الشمس لا تحرق البشرة، فهناك في بلدي نتجنبها خوفا أن تصيبنا بضربتها أما هنا فيتعرض لها الجميع كي تصيبهم بسمرتها المثيرة.

انتقلنا الى عمان بالطائرة ومنها انتقلنا لبغداد بالسيارة برا حيث كان هذا الجزء الاصعب فالطريق طويلة ومملة جدا.

قاطعته ماري وهي تمازحه بسخرية:

اف .... اخيرا هناك لحظات فرح في قصتك الحزينة، اقسم أني توقعت أن تسقط الطائرة أو تنقلب بكم السيارة فأنا أعرف حظك البائس.

راحت تضحك ماري من صميم قلبها بينما هو ينظر إليها بصمت مما اثار استغرابها فهدئت تدريجيا حتى تحولت للجد وقالت له متسائلة:

يبدو من خلال وجهك الغائم حزنا ستمطرنا كلمات مؤلمة؟

ومن كان سيتحمل أن يرفض
طلب آلهة من السماء تقضي معه ساعات

أسند خالد رأسه إلى الوسادة ووجهه إلى سقف الغرفة وقال بحزن:

بعد ستة أشهر تم استدعائي من قبل جهاز المخابرات العراقي وباشروا بالتحقيق معي.

ماري بكل برود:

وهل يستحق ذلك كل هذا الحزن، يا رجل توقعت حصل لك شيء خطير.

خالد:

أنت تضعين الأمور بمعيار دولتك لا بمعيار دولة من العالم الثالث، هناك الشرطي يحي ويميت فما بالك بجهاز المخابرات،

ماري:

أخبرني بما ارادوا معرفته منك؟

خالد:

كان التحقيق حول اللقاءين الذي جمعني بزرادشت والاعلامية العربية.

ماري:

أخبرهم الحقيقة، فأنا أأمن أن النجاة في الصدق، لكن الأهم كيف عرفوا بذلك؟

نظر إليها نظرة ساخرة وقوس شفتيه وقال:

وهل كان بالإمكان الكذب على جهاز مخابرات يعتبر من أقوى الأجهزة المخابراتية في العالم، فقد كان المحققان مجهزين بعشرات الصور التي رصدت كل تحركاتي من الصدفة التي جمعتني بزرادشت وحتى لحظة الاستجواب.

كان صمت ماري أبلغ من كلامها ودهشتها أوضحت ما تشعر به لكنها سألته:

مع هذا انت لم تقم بشيء مخالف للقانون.

خالد:

وهل مقابلة ضابطة مخابرات فرنسية غير مخالف للقانون وموظف في السفارة الايرانية في لبنان شيء طبيعي واعتيادي؟

ماري:

أما الموظف في السفارة الإيرانية فقد عرفته، فمن تلك الضابطة ومتى التقيتها وأين؟

خالد:

أتضح إن الإعلامية الفاتنة زينة العربي هي ضابطة في المخابرات الفرنسية ومن العناصر المرصودة من قبل المخابرات العراقية.

ماري:

أخبرني وما حصل بعدها.

كان أمر زينة هين لو كنت ألتقيتها منفردا إذ يكفي معرفتهم بجهلي بمن تكون كافيا لإقناعهم ببراءتي لكن المصادفة التي جمعتها مع موظف السفارة الإيرانية كان يحمل ألف علامة استفهام، والأكثر

من ذلك عناقي له وبقوة جعلهم يتابعوني لستة أشهر دون أن أعرف ليعرفوا اتصالاتي بهم.

ماري:

شكرا للرب أنك لم تتصل بأحد منهم.

خالد :

نعم زرادشت الاتصال به كان مستحيل تماما، أما بالنسبة لزينة فقد اتصلت بها مرات عديدة من هاتف الجريدة وقد عَرضت علي أن نلتقي ثانية في سوريا أو لبنان لنقضي بعض الوقت معا، لكني رفضت متحججا بأني مشغول جدا وفي الحقيقة كان السفر مكلف جدا وراتبي لا يغطي نفقات شابة تسكن في الفنادق الفاخرة.

ضربته ماري على بطنه وقالت:

كنت ستذهب للقاء تلك العاهرة لو كنت تمتلك المال، ليتك ذهبت وتمكنت من تجنيدك كي تسجن إلى الأبد أو تعدم كجاسوس.

خالد:

ومن من الرجال كان سيتحمل أن يرفض طلب آلهة المتعة لتقضي معه ساعات كي اتحمل أنا رفض ذلك، أقسم كنت سأوافق لولا العوز المادي، مع أنها عرضت أن تتحمل تكاليف الرحلة والمصاريف هناك، لكني كرجل شرقي رفضت وبقوة، وكان الرفض ذلك ما انجاني من حبل المشنقة، لكن المصيبة التي لاحقتني هي قصتي مع زرادشت، فبعد شهرين من الاعتقال أخبرني مسؤول المحققين أنه كان من الممكن أن يجندوني كعميل مزدوج للعب دور مهم في خداع الاعلامية ومن ورائها كعميل مزدوج، لكن وجود رجل السفارة الإيراني وقصتي الغير مقنعة

أضعفت ثقتهم بي.

صرخت ماري بقوة:

شهرين وأنت محتجز؟ وعملك وحياتك؟

خالد:

أفزعوك الشهران؟ ترى ما ردت فعلك لو اخبرتك أني بقيت محتجزا لمدة قاربت السنتين داخل أحد سجون المخابرات، حتى دخول القوات الامريكية إلى العراق في عام ٢٠٠٣

ماري:

يا إلاهي.... ولما كل تلك المدة، ألا تقول أنه جهاز قوي، بالتالي كان يمكن له معرفة إن كنت بريئا أو مذنب.

وهل هناك على هذ الأرض
من لا يعادي العراق

لأول مرة يُقصفُ العراق منذ أن بلغت سن القتال وأنا لست جنديا في الجبهة يستقبل رصاص العدو مع رفاقه المقاتلين ويدافع عن بلد رغم اتساع أراضيه من الجبل حتى الهور لا يملك فيه شبرا واحد، لأول مرة ينتابني شعور بعدم الخوف والاهتمام معا، لأني فقدت أمي الوحيدة بسبب تلك الحروب التي بدأت قبل الميلاد ب٧٠٠٠ سنة ومازالت مستمرة دون توقف، نعم مللت كل شيء كما ملت أرض بلدي من استقبال وابل القنابل كل عام وكفرتُ بكل شيء.

قصفت الطائرات الامريكية (المعادية) السجن الذي كنت فيه وهو تابع لجهاز المخابرات لتمنحنا تلك الطائرات الحرية والتفويض للهرب من سجن نبتت لي فيه جذور لمدة سنتين بلا ذنب سوى أني عانقت مواطنا من بلد آخر.

ترددت كثيرا بالخروج من السجن خوفا من عدم سقوط النظام ويعتبروونني هاربا وعندها يكون الاعدام مصيري المحتوم، فرفضت كل دعوات زملائي المساجين، لكن فجأة وجدت نفسي أركض باتجاه شخص من المخابرات كان يتلوا من الألم وهو ينزف. فلم أستطع أن أقاوم الإنسانية في داخلي وحبي للحياة فلو تركته سيموت، فحملته بين يدي باعدا إياه عن النار وتوجهت لأحد سيارات الاسعاف التي هرعت إلى مكان القصف دون سابق تخطيط، وها أنا أتوجه إلى المستشفى

مع الجريح وهو يمسك بيدي بقوة، فشعرت بانسلاخ روحه من جسده بعدما تراخت تلك اليد قليلا حتى ارتخت تماما.

وجدت نفسي بعد سنتين أقف خارج المستشفى حافي القدمين لا أعرف إلى أين أتجه، في داخلي صوت العقل الذي يطالبني بالعودة للسجن خوفا من عواقب هروبي الوخيمة وروحي التي تتوق لنيل الحرية من سجن لم أذنب فيه، لكن العقل أنتصر أخيرا أو لنقل الخوف وقررت العودة للسجن ومددت يدي لسيارة التكسي فتوقفت احداهن وقلت للسائق مخاطبا بارتباك وحرقة بعدما جلست في المقعد الأمامي:

أرجوك خذني الآن إلى سجن المخابرات.

نظر الرجل الكبير بالسن إلي نظرة غريبة وقال بتعجب حيث ظن الرجل من شكلي أني رجل مخابرات متخفي بهيئة رجل رث الحال:

وأين يقع ذاك السجن فأنا لا أعرف مكانه، دلني على الطريق وسأوصلك بأسرع ما تقدمه هذه السيارة المتواضعة.

كان ردي صادما له عندما أخبرته أني لا أعرف المكان ولا الطريق إليه. فكرر سؤاله الذي جال في خاطره:

- وما عملك في سجن المخابرات؟
- أنا سجين هناك منذ عام ٢٠٠٠.
- هل تعلم في أي عام نحن؟
- في عام ٢٠٠٣ على ما أعتقد.
- هذا يعني أنك سجين منذ ثلاث سنوات هناك.
- لا... لا... فقد سجنت في نهاية عام ٢٠٠٠ مما يعني أنها سنتان فقط.

ضحك الرجل من قلبه ورد علي ساخرا:

- أنت أمين حتى مع سجانك يا بني...أخبرني ماكنت تعمل وبأي تهمة سجنت؟ فلا يبدو عليك الإجرام.

- كنت مترجم في صحيفة كبيرة وذهبت في ايفاد لأحد الدول العربية ألتقيت بصديق هناك وكان يعمل في أحد سفارات الدول المعادية للعراق وسجنت على إثر ذلك.

هز الرجل المسن يده وقال متهكما:

وهل هناك على هذ الأرض من لا يعادي العراق؟... أخبرني أين تسكن؟

فأجبته بصوت واطئ وخجل:

كنت استأجر بيت ومن المؤكد أنه قد سُكنَ من قبل غيري.

سأل الحاج بصوت أشد حدة :

أهلك ... أقاربك ...صديقك أي أحد أذكر لي أحد؟

هززت رأسي (بلا) أحد دون كلام.

ضرب الرجل كفيه ببعض وقال:

- وأين أخذك الآن؟

- ألم أقل لك إلى السجن يا حاج.

- أي سجن والدبابات ستدخل بغداد خلال يومين أو اكثر، وستضطر للخروج ايضا إن لم تقتل حينها.

تحرك الرجل بسيارته المتهالكة التي بالكاد تسير واتجه إلى بيته في أحد الأحياء الراقية في بغداد وقال أنزل يا ولدي سأستضيفك اليوم وننظر ما نعمل في الغد.

قلبي..
أمين حتى مع من ظلمه

قالت ماري بصوت هادي:

يا إلاهي... ما هذه القصة المؤلمة، أرجوك أخبرني ما حصل لك وكيف لرجل يعمل سائق تكسي بسيارة متهالكة أن يسكن في حي راقي، قصتك تزداد تشويقا كل لحظة؟

وضعت يدها على فمه وقالت مسترسلة في كلامها:

ما رأيك أن أعمل لنا كأسين كي أمنح توتري بعض الهدوء فحماسي لسماع باقي قصتك الخرافية يذهب بنشوة الخمر في رأسي.

نهضت ماري بجسدها الممتلئ حبا ولحما وراحت تعد كأسين من النبيذ وخالد لا يصدق نفسه كيف لتلك المرأة التي ظهرت في حياته فجأة أن تمنحه كل هذا الأمان والسحر، أيعقل أن يكون ما يشعر به الآن سحر الحب، لكن هذا الشعور يختلف تماما عما عاشه مع عبير حبيبته العراقية.

ناولته الكأس وانحنت عليه ببشرة البيضاء ووجهها المائل إلى الحمرة وعينين كبيرتين مدورتين يميزهما الزرقة الباهرة، وسألته:

هناك ما تفكر به واقرأه في عينيك، لكن أقسم لن تنال شيئا حتى تكمل قصتك هذه.

هز رأسه موافقا إياها وأكمل:

أدخلني الرجل إلى بيته وهو يشجعني ليزيل التردد عني والخجل

الذي أغرقني وكتم أنفاسي، استقبلتنا زوجته وهي سيدة وقورة جدا ترتدي حجاب ابيض وقالت له بخوف شديد:

يا رجل أقلقتني عليك كل هذا القصف وتتركنا أنا وبناتك وحدنا لا نعرف أين ذهبت؟

أبتسم بوجهها عكس حماسها وخوفها عليه وقال لها بكل ود وهو يسلمها كيسان من المواد الغذائية:

أعدي لنا ما تفضل به علينا الله فلدينا ضيف لم يرى بغداد من ثلاث اعوام.

فبادرته أنا بسرعة بل عامين يا حاج.

فضحك من قلبه بكل وقار ورد علي:

لا تغضب أيها الشاب الطيب لا تغضب، دعنا ندخل ونسترح وبعدها نحصي أيامك في السجن بدقة.

نظرت لي الحاجة بطريقة حذر لكن لا تخلو من نكهة العطف وهي تراني حافي القدمين وقالت:

يا ولدي أنت بحاجة لحمام فتفضل أرجوك.

كان العشاء وسط هذه العائلة الطيبة نعمة من الله بعد أن انضمت لنا بناته الثلاث واللاتي كن اقمارا، حيث لم أعش هذه الحميمية بين الأخوة فما بالك بالبنات فكن هادئات ورائعات وعلى مستوى عالي من التهذيب، فقد افتقدت هذا الامان منذ أن غادرتني أمي.

دعاني الحاج لشرب الشاي في غرفة المكتب وقال:

سأعرض عليك تحفتي وقادني من يدي، فتوجهنا معا إلى تلك

الغرفة الكبيرة والراقية فلمحت صورة كبيرة للحاج وهو يرتدي البزة العسكرية وعلى كتفه رتبة عميد في الجيش العراقي وقد رصت على صدره مجموعة من أنواط الشجاعة، مع ذلك حاولت أن لا ألفت أنتباه الرجل، حتى توقفنا أمام مكتبة امتدت على طول جدار الغرفة الواسعة، حيث كانت ابعادها قاعدة خمسة أمتار وبارتفاع فاق الثلاثة أمتار، بمنظر كله فخامة وسألني عن أي المواضيع التي تستهويني؟ فأخبرته:

الحقيقة يا حاج لم اقرأ كثيرا خارج دراستي حتى عملت في الصحيفة فقد ترجمت كل ما يُطلبُ مني فصرت اقرأ في كل المواضيع وشتى الأخبار ولم أتخصص بصنف من القراءة.

راح الرجل يستعرض كل العناوين التي أمامنا مع نبذة بسيطة عن أهمية الكتاب وكاتبه بالتزامن مع صوت القصف القوي، وهو لا يرتد له جفن وكأنها العاب نارية لا أصوات الموت بصورة قصف شديد، فسألته مقاطعا:

هل هذه صورتك يا حاج؟

واشرت بيدي لصورة الضابط الشاخصة ،فاستدار قاطعا استرساله في الكلام ورد علي بزهو:

نعم هو أنا. ثم أستدار يشرح لي باقي العناوين فعدت مقاطعا اياه :

كيف تعمل سائق تكسي وأنت برتبة رفيعة؟

أغلق الكتاب الذي بين يديه وأعاده إلى مكانه وجلس على الأريكة ووضع رجله فوق الأخرى وقال مخاطبا زوجته:

عاشت الايادي يا شريكة عمري.

ألتفت فإذا بالحاجة قد احضرت الشاي وجلست تشربه معنا.

فقال الحاج:

أنا العميد ركن متقاعد، كنت آمر لواء في الجيش العراقي، وتعرف يا ولدي أن الراتب التقاعدي بعد كارثة الحصار الاقتصادي لا يكفي لأسبوع مما اضطرني للعمل بهذه السيارة كسائق تكسي لأسد باقي حاجات البيت فقد تزوجت متأخرا ولم أرزق بولد كي يعينني على أعباء الحياة وما بأيدينا غير شكر الله وحمده كل شيء تمام.

في اليوم الثاني أحتل الامريكان فجأة بغداد وراحت دباباتهم الكبيرة تجوب الشوارع في أزقة المدينة وشوارعها. فطلب مني الحاج قضاء عدة أيام في بيته حتى ينجلي الأمر وخلال هذه الفترة صرت أعمل معه في حديقته الجميلة والواسعة نسبيا، حيث أن بيته كان حوالي الاربعمائة متر. وفي المساء كنا نتناقش في كتبه وطريقة جمعها لها وكيف أنه استغنى عن سيارته الغالية الثمن واستبدلها بهذه السيارة المتهالكة ولم يقبل ببيع كتاب واحد من مكتبته، كان الرجل موسوعة ثقافية حقيقية تسير برجلين.

بعد أسبوع هو الأجمل سألته:

يا حاج هلا وجدت لي عملا كي أعيش منه؟ فمن غير اللائق أن أبقى هنا عالة عليك.

رد علي قائلا:

يا ولدي البلد تحت الاحتلال ولا نعرف ما الذي سيجري لكن سأجد لك عملا أن شاء الله فمعارفي كثيرين.

استأذنت من الحاج استخدام الهاتف فاتصلت بزميل لي في الجريدة الذي طار من الفرح وطلب مني أن ألتقيه في منطقة الكرادة.

فأخبرته أني لا أملك فلسا واحدا ولا حتى ملابس أو حذاء، فقد خرجت من السجن حافي القدمين وبملابس رثة، عندها طلب مني العنوان وسيحضر هو بنفسه إلي ومعه ما أحتاج من ملابس، وبالفعل في اليوم الثاني جاء إلي بسيارته، ومنها توجهنا إلى مقر عسكري لأحد الوحدات التابعة للجيش الأمريكي وقدمني للاستعلامات على أني مترجم بارع وبعد اختبار بسيط تم تعييني بصفة مترجم في تلك القاعدة مقابل مبلغ خيالي بالنسبة لي وهو ألف دولار.

ضحكت ماري ورددت بعده باستغراب:

ألف دولار مبلغ خيالي!

خالد وبحزم:

نعم خيالي حيث كان راتب المعلم الشهري في العراق لا يتجاوز الخمس دولارات شهريا أما العسكري فقد يصل للثلاثين دولار.

عدت فرحا لبيت (الحاج فاضل) كما يحب أن اسميه لا (العميد فاضل) وأنا أحمل خبر عملي الجديد وقد استلمت منهم دفعة خمسمائة دولار محملا بكل أنواع الفواكه والخضار عرفانا مني لهذه العائلة الكريمة التي احتضنتني في اصعب فترة من فترات حياتي.

كانت الفرحة بوجه الحاج وزوجته وبناتهم كبيرة لفرحي بعدما أخبرتهم أني وجدت عملا بمساعدة صديقي القديم لي لكنه بعد أن تجاوز مرحة التعجب سألني:

ولكن من أين لك بكل هذا المال وأنت لا تملك غير مبلغ بسيط دسسته في جيبك عند مغادرتك المنزل مع صديقك؟

أخبرته أن راتبي ألف دولار يا والدي.

انتفض الرجل من مكانه وقال بحدة العسكري المنضبط :

أي عمل يدر عليك بألف دولار شهريا؟ هناك عمل واحد يمكن أن يجني فيه الشخص هكذا مبلغ.

أجبته فرحا:

عملت كمترجم فهذا نفس عملي في الجريدة قبل اعتقالي من قبل المخابرات.

ردد بعدي مستغربا:

مترجم ؟... مع من ولمن تترجم؟

أجبته كمن يخبر والده ببشارة مع ابتسامة كبيرة تكشف قدر فرحي الشديد:

الجيش الامريكي.

صاح بصوت قوي:

وكيف ترتضي على نفسك خدمة جيش الاحتلال وقواته الغازية؟

تغيرت ملامحنا جميعا وقلت له:

ظننتك ضد النظام وقد أخبرتني أنك أحلت على التقاعد لكثرة انتقادك لسياسته الخارجية والداخلية؟

الحاج:

نعم أنتقد النظام على بعض سياساته، لكن أنا أمقت من أحتل بلدي ودمر جيشي ودولتي وقتل أبناء وطني وحولني من سيد يحكم بلده إلى عبد أسير لهم، الأمر مختلف تماما.

أجبته بصوت حازم:

لا أستغرب دفاعك عن ما تسميه بـ(وطن)، فقد منحك ما يستحق

أن تقول بحقه ما قلت الآن فأنت تملك بيتا كبيرا وزوجة طيبة وعائلة جميلة جعل منك ضابطا في الجيش ومنحك راتبا وسلطة، ...نعم أعطاك الكثير، أما أنا حوربت من قبل آمر مركز التدريب ولم احظى بإجازة إلا بعد عدة شهور بتوصية منه كي يساء إلي، وخدته كعسكري جعلتني أعود في يوم زفاف حبيبتي، ونفس من أسميته (وطن) ماتت أمي بسبب حروبه التي لم يؤخذ بها رأي فيها وسقت كالخروف أحارب مرغما عن ارادتي، أصبت بجروح خطيرة وكدت أن أموت في حربه الثانية وعدت له ورفضت اللجوء الانساني عند الغرب لأجد أمي فارقت الحياة بسبب اعتقادها بمقتلي في تلك الحرب الخاسرة، ونفس من أسميته (وطن) اعتقلت وسُجنتُ فقط لأني عانقت شخصا ينتمي لدولة أخرى يكره حكومته أكثر مني ومنك. ويبغض نظامه أكثر منا نحن اللذين نقاتله، سُجنتُ لسنتين وبدون سبب ولم أكن أعرف مدة لتلك العقوبة الغير معروفة، أنا لا أملك شبرا في هذا الوطن، ليس لي أم أو حبيبة أخ أو أختا ولم أنل منه غير الموت والفراق والجراح، لذا لا أستطيع أن أشعر بالانتماء له، ولا أفرق بين العدو والصديق، هناك من سجنني دون ذنب وهناك من يعطيني ألف دولار.

اقترب مني الحاج وقال بصوت حزين:

غادر بيتي الآن فلم تعد ذلك الانسان الطيب الذي عرفته.

استدرت وأنا أهم بالمغادرة فقال مسترسلا بكلامه:

وخذ ما جئت به من اغراض، فلسنا ممن يأكل من مالٍ حرام.

تركته واستمريت في طريقي دون أن ألتفت وكلي خيبة وانكسار وكأنهما قدري اللذان كتبا علي واتجهت لمكان عملي الجديد.

إرهاب ...
كلمة حق يراد بها باطل

بعد أكثر من شهر كلفت بمرافقة دورية قتالية في بغداد وكانت تتقدمنا دبابة نوع (برادلي) وفي أخر الطابور دبابة اخرى من نفس الطراز بينما توسطهما خمس عربات (همر) فجأة فتحت الدبابة النار على سيارة مدنية، بعد ذلك ترجلنا لمعاينة السيارة عندها اصبت بصدمة كبيرة، عندما عرفت أن العميد فاضل مع زوجته هما من كانا في السيارة، ذلك الشخص الطيب الذي آواني يوم كنت بلا ملجأ، توجهت إليهما وصرت أصرخ طالبا النجدة دون أن يهتم أحد لندائي، بينما راح هو ينظر إلي دون القدرة على الكلام وهو يمسك بيدي، وفي تلك اللحظة سأل الضابط المسؤول الجندي الامريكي الذي كان متناولا أحد العقاقير المخدرة عن سبب فتح النار على السيارة ومن فيها فأدعى أنه شك بأنهم ربما يستهدفون الدورية.

بعد دقائق فارق العميد الحياة ملتحقا بروح زوجته الطيبة التي سبقته، عندها أمر الضابط بوضع رمانة يدوية وبندقية كانوا قد استولوا عليها في عملية تفتيش سابقة في السيارة كي يبرئوا جنديهم من الخطأ الذي ارتكبه بحق الانسانين الطيبين.

حاولت أكثر من مرة الوصول لقائد القاعدة التي أعمل بها كي أطلعه على حقيقة ما فعل الجندي وتستر مسؤوله عليه، لكن ضابط الدورية

كان يتابعني وكلف من يعرقل لقائي به حتى ظهر يوما يفتش وحداته العسكرية فتوجهت إليه دون أي ترد لأخبره بحقيقة ما حصل في تلك الحادثة المؤلمة، وبعد أن أستمع لي بكل هدوء رد علي بنفس مستوى البرود الذي كان يستمع إلي به وقال:

في كل حرب هناك خسائر في صفوف المدنيين كما في صفوف العسكر، لذلك عليك أن تتعود ذلك منذ الآن فما بالك برجل كان يحمل سلاحا وقنبلة يدوية ينوي الاعتداء بهما على قوات التحالف.

من شدة استغرابي من رده العجيب أجبته متجاوزا كل الاحترام العسكري:

لكن هذه جريمة بحق أناس أبرياء لا ذنب لهم في الحرب والعميد فاضل كان أنسان حقيقي ومحترم، وأنا شاهد على خلو سيارته من أي سلاح، وما وضعوه في سيارته لم يكن يخصه، وبما أنكم تدعون احترام الإنسانية وحقوقها فلابد من حساب يناله الجناة حتى لا تتكرر مثل هذه التجاوزات.

توقف الرجل وأستدار نحوي وقال بلغة التحري:

وهل تعرف الضحية ومن يكون ؟

أجبته:

نعم هو من آواني في بيته بعد خروجي من سجن المخابرات وقدم لي المساعدة حتى عملت معكم.

أقترب أكثر وحدق بيعيني أكثر:

لما لم تخبر المسؤول عنك أنك على معرفة بالشخص الارهابي وتسكن معه؟

زاد حنقي عليه وحدقت في نظره كما يحدق بعيني وكأن بيننا تحدي أجبت بحدة:

أرجوا أن لا تنعته بصفة (ارهابي) فهو أنسان كريم ومحترم وطيب بالإضافة كونه ضابط حقيقي ورجل مثقف جدا، واتهامه بالإرهاب وصمة عار في جبين الحرية الامريكية.

صرخ بمن حوله:

أيها الحمقى... بينكم من يتعاون مع الارهاب وأنتم غافلون، اعتقلوه فورا وسلموه للاستخبارات العسكرية ليحققوا معه لمعرفة باقي افراد التنظيم ومن يتعامل معهم.

أنا رجلا
يحمل على ظهره كيسا مثقوبا
واضعا فيه سنوات عمره التي تساقطت منه دون أن يعرف.

صرخت ماري أيها المسكين، لن أقول أنك سيء الحظ فحتى سوء الحظ له حد ويتوقف عنده، أما أنت فرجل منحوس جدا، لكن تحملك سجن العراقيين سيجعل منك مؤهلا لتحمل سجن الأمريكان فهم مقيدون بضوابط حقوق الأنسان.

اتكأ بضهره إلى رأس السرير الصغير واجابها بحجم الانكسار الذي في داخله:

كان التعذيب جسدي ونفسي كي أعترف على التنظيم الذي أنتمي إليه، ذلك التنظيم الذي لا أعرفه ولو بالخيال، وعن علاقتي بالعميد فاضل والجماعة التي ينتمي لها، كنت سأعطي أي أسماء من شدة الضغط لكن أنا حتى لا أعرف أسماء اعطيها لهم، كانوا يربطوننا عراة أمام بعض إلى السرير بأيدينا وارجلنا لساعات لدرجة أني كنت اعتقد أن كتفيّ قد خلعا، جاءت المسؤولة عن السجن في أحد الأيام تحمل عصا كهربائية ونحن مربوطين بتلك الحالة وراحت تصعقنا واحدا تلو الآخر من عوراتنا وتنفجر ضاحكة على ارتعاش اجسادنا العارية جراء مرور تيار عصاها الكهربائية فيه ليفقدنا السيطرة على اعصابنا المتحكمة في اجسادنا لينتج عنها حالات مأساوية مثل الحروق ومهينة مثل التبول

وأحيانا حتى التغوط، كانت تصرفاتها تشابه ساحرة شريرة كتلك التي صورها لنا الأدب والسينما في القرون الوسطى.

في يوم من الأيام ربطوني لأنبوب كبير وراحوا يطلقون علي كلب كبير ومتوحش عدة مرات يريد أن ليلتهمني لكنهم يوقفوه في اللحظة الأخيرة، ورغم منعه من الوصول لي بأنيابه لكنهم يسمحون له بالوصول إلي بمخالبه فتنال من وجهي وجسدي .

أيقن الامريكان تماما عدم ارتباطي بأي تنظيم مسلح بعدما تأكدوا بأنفسهم أني كنت مسجونا في المخابرات العراقية حتى دخولهم للعراق، فأرسل إلي القائد للمعسكر ليعتذر عما أصابني من ضرر معنوي وجسدي، وأنه ورفاقه كانوا يمارسون عملهم الذي أنيط بهم، وعرض علي اطلاق سراحي مقابل عدم أثارتي لقضية مقتل العميد فاضل وزوجته رحمهما الله وعدم ذكري لما جرى لي من تعذيب في الاعتقال فأجبته بسؤال:

ألم تقل الآن أنك ورفاقك تؤدي واجبك؟ فما أسباب التعتيم على ممارساتكم في أداء الواجب؟

نظر إلي بتركيز وقال بهدوء:

يبدو أنك لم تفهم بعد، ربما علينا اعادة ترويضك ثانية.

طلب من الجندي الذي كان يرافقني بحزم أقرب منه للصراخ بإعادتي إلى السجن حتى أشعار آخر.

ماري:

نعم عرفنا بكل ما وصفته بعد ذلك عبر الإعلام بما سميت بفضيحة ذلك السجن .... لا أذكر اسمه.

أجابها خالد بوجع:

(أبو غريب) ذلك هو أسم السجن سيء الصيت الذي ظهر في الإعلام لكن التعذيب والتنكيل والممارسات اللاإنسانية لم تتوقف في باقي الأماكن والسجون السرية. سواء لقوات الاحتلال أو لمن جاءت بهم من عملاء و شذاذ الآفاق.

ماري:

أتركنا من كل ذلك... أخبرني ببقية القصة أرجوك.

خالد :

بعد فضيحة سجن (ابي غريب) لم يعد لسجني أي أهمية، فقد ظهرت الحقيقة وكُشفت كل ممارساتهم والطريقة السيئة التي كانوا يعاملون فيها المعتقلين وكل شيء في الإعلام العالمي فأطلقوا سراحي في عام ٢٠٠٦. ومثل لعبة (الحية الدرج) ها أنا أعود للمربع الأول حاملا معي خيبة كبيرة واهانة أكبر لي ولاحترامي.

أول مكان زرته بعد خروجي هو بيت العميد فاضل للاطمئنان على بناته، لكني فوجئت بوقوف رجال مسلحين ذو ذقون كثة ولما سألتهم عن العائلة التي تسكن البيت رد علي أحدهم بطريقة همجية تنم عن مستواه الفكري المتردي:

كان هذا منزل أحد رجال النظام السابق وهو برتبة عميد وقد أخذنا داره وقمنا بتحويله كمقرٍ لنا.

سألته وقد ظهر الخوف على ملامحي المتعبة:

وبناته الثلاث؟ أين ذهبن؟ وأين يعشن الآن؟

نظر إلي الرجل ومن معه نظرة غريبة وقال بطريقة أقرب

للتحقيق:

أكنت تعرف العميد فاضل وعائلته؟

عندها عرفت ما قصده من السؤال وما يروم معرفته فالسجن الطويل علمني مهارات الحذر أو لنقل (الجبن والخوف) للأسف، ورغم محاولاتي في اخفائه إلا أنه كان واضحا على ملامحي وأجبته:

نعم أعرف الرجل ... فقد كنت جاره في السابق وقد انتقلنا منذ مدة طويلة ولم نلتقي به من حينها.

رد علي بطريقة لا تختلف عن سابقتها:

وما غايتك في السؤال عنه؟ هل كنت زميلا له في خدمة النظام؟

أجبته:

ابدا يا سيدي... كنت مارا من هنا واستغربت لوجودكم فقط لا أكثر هذا كل ما في الأمر.

وضع يده في صدري وقال بصوت عال:

غادر المكان الآن ولا تعد هنا ابدا وإلا.....

وقبل أن يكمل كلامه قلت له وأنا أبتعد:

أبدا يا سيدي وأعتذر جدا لإضاعتي وقتكم الثمين.

قاطعته ماري:

أيعقل أن من كان لا يخاف الموت ويتحدى قانون حكم صارم ويواجه سلاح العدو في الجبهة بالابتسامة وينتصر عليه كما فعلت مع زرادشت، يصبح جبانا وخائفا من عصابة مسلحين وهو في وطنه؟ أي مفارقة هذه!

خالد:

نعم يا انستي... (الترويض) كما وصفه قائد القاعدة الامريكية، السجن المتكرر والتعذيب جعلاني أعيد التفكير بحالي وما أنا عليه فرجل في الواحد والأربعين من عمره وما زال لم يحقق شيء في حياته، حتى الشحاذ أحسن منه حالا فهو يعرف بما يبدأ يومه وبما ينهيه، أما أنا فرجلا يحمل على ظهره كيسا مثقوبا واضعا فيه سنوات عمره التي تساقطت منه دون أن يعرف.

تحول اخضرار بغداد لإصفرار
كما هو وجوه أهلها

راح الحزن يهاجم ملامحي والتعب فقررت العودة لحي القديم علي أجد بعض الامان في ذكرياتي القديمة، فتلك المنطقة تحمل عبق أمي رحمها الله.

كان وجه بغداد تغير جذريا بعد خمس سنوات من الاحتلال، فقد ملأته العوائق الكونكريتية وكثرة السيطرات العسكرية بعضها أمريكي وأخرى للجيش العراقي المتشكل حديثا بأسم (الحرس الوطني) وبعضها للشرطة وأخرى لمليشيات طائفية وأخرى لمجاميع من القاعدة وكل تلك النقاط تحتاج لكم هائل من الحظ لتتجاوزه بسلام دون أن تقتل أو تعتقل، كثرت المزابل والسيارات وعوادمها، تحول اخضرار ساحاتها لاصفرار كما هو وجوه أهلها الطيبين، كثرت النفايات والفضائيات التي تبث سموم الفرقة بين أبناء الشعب الواحد وقَلَتْ الخدمات تدريجيا حتى انعدمت، ما عدت وحدي مخاصما الشعور بالوطنية، فقد اخرستها الأمراض التي زرعها المحتل، (الطائفية.. القومية .. المناطقية .. القبلية) فنتج عنها تقيح شديد أسمه (الفساد).

دخلت سوق الحي الشعبي الذي كنت أسكنه والذي لم أزره من نهاية عام ٢٠٠٠ كان متغيرا تماما فقد كثرت الأبواب وازدحمت بسبب تقسيم الدور.

ماري:

لم أفهم هذه الأخيرة... ما تعني بتقسيم الدور؟

خالد:

بسبب زيادة السكان وقلة الدور عمد البغداديون لتقسيم الدار الواحدة لدارين بل وحتى أربع دور لإستيعاب العدد المتزايد من العوائل خصوصا بعد نزوح الكثيرين من محافظات العراق نحو بغداد لشحة العمل هناك باحثين عن رزقهم في العاصمة.

اتجهت إلى باب بيتنا القديم ورحت أشمه باكيا فقد تعودت منذ الصغر أن تطل أمي براسها مبتسمة من بابه الضيق والقديم كي ترقب عودتي من المدرسة وحتى تخرجت من الجامعة، بعدها جلست متكئا على جدار البيت ورحت أبكي بحرقة طفل يحتاج أمه بشدة، فجأة خرج أحد الشباب حوالي في العشرينيات من عمره من بيتنا القديم وراح يسألني عن سبب جلوسي ببابهم، ولأني كنت بحالة صعبة تأخرت بالرد عليه فقام بضربي برجله وصرخ بي، وما أن وقفت حتى وجه لي مسدسه وهو يقول:

سأقتلك الآن إن لم تفصح عن هويتك ومن بعثك لتتجسس على الحي.

تلعثمت بالكلام وراحت يداي ترتجف من شكل هذا الشاب الأقرب للشيطان فقد اطلق لحيته وأصبح شكله كرجال تنظيم القاعدة، وبلحظة وقف بيننا النقيب حسين وهو يرجوه أن لا يطلق النار عليّ وراح يوضح له من أكون وما أهمية هذه الدار بالنسبة لي، فصرخ بي بصوت عال:

ومن يضمن لنا أنه ليس بجاسوس للقاعدة وجاء ينقل أخبارنا لهم؟

رد عليه النقيب حسين:

أنا أكفله يا سيد وأضمن لك سلامة نيته فهو جار العمر.

اقتادني حسين وادخلني لبيته وأغلق الباب وبعدها زفر الهواء الذي بداخله وقال:

ما أسوء حظك يا أخي ألم تجد غير (السيد) لتجلس ببابه؟

شعور الامان خلف جدران باب الخالة أم حسين انطق لساني أخيرا فقد اخرسني الخوف كثيرا قلت له:

ومن هو السيد ليخاف منه النقيب حسين؟

رد علي بصوت يحمل الألم بل العميد حسين يا خالد.

ابتسمت وقلت له فرحا، مبارك يا أخي يعني أنت الآن ضابط كبير، فكيف تخاف من (السيد) وهو شاب في العشرينيات من عمره؟

رد علي حسين وهو يهز يده ساخرا

أنا متقاعد الآن ولا حول لي ولا قوة، وهذا (السيد) مسؤول أحد المليشيات في الحي ويده العليا، وهو قاتل بدم بارد، وحتى إن كنت في الخدمة فلم يعد هناك أي احترام للمؤسسة العسكرية، بل صارت القوة والنفوذ تتقاسمها مليشيات الأحزاب التي جاءت من خارج البلاد وتنظيم القاعدة، وحكومتنا حكومة بائسة وخانعة تحمل النفس الطائفي والمحاصصة المقيتة.

درت برأسي وقلت له مبتسما:

أفتقد صوت الخالة أم حسين فليس من عادة هذا البيت أن يكون

هادئا بفضل صوت ضحكاتها أحيانا وصوت شجارها أحيانا أخرى.

تنهد وقال بصوت حزين:

الحمد لله أنها وأمك لم يبقيا ليرين العراق وما آل إليه حاله من ضعف وضياع.

طُرقت الباب فأصابني الفزع دون شعور، فأشار لي حسين بيده وتبسمت شفتاه وقال لا تخف هذا أحمد فأنا أعرف طريقة طرقه للباب.

ما عدت امتلك روحا... أنا جثة بلا قبر

كان العشاء بارد الحماس والمتعة رغم سخونة الطعام وكثرته، عكس ذاك العشاء، فغياب أمي والخالة أم حسين أصابني بوجع أضيف لكل الانكسار الذي في داخلي،

سألني أحمد بعد ما التقط كوب الشاي الساخن بيده اليمنى الوحيدة فاحتار أين يضعه لأن فقد يديه الأخرى أعجزه عن تبادلهما كي يخفف من حراجة الموقف فأسرعتُ ألتقط منه الكوب الساخن واضعه قريبا منه، فقال مبتسما:

لا تحزن يا خالد فكل منا خسر الكثير وما علينا إلا أن نبدأ من جديد دائما والحمد لله أنك لم تخسر جزءا من جسدك كما خسرته أنا، فكل الخسارات تعوض إلا خسارات الجسد.

نظرت إليه بحزن وقلت له بصوت ملؤه الانكسار:

أنا خسرت الكثير يا أخي، وأشد خساراتي حجم الانكسار الذي أعيشه وخوفي من كل من حولي، ما عدت أمتلك روحا أنا جثة بلا قبر تسير في شوارع بلد تحول لمقبرة.

اقترب مني واحتضنني بيده الوحيدة وضمني الى صدره وقال بحماس:

سأكون عونك وأخاك ولن اتركك بعد اليوم لوحدك أعدك بذلك يا اخي.

أنتما وجهان... لإجرام واحد

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ايقظني أحمد وهو يقول بحماس:

- أنهض أيها الكسول فأمامنا عمل.

سألته وأنا نصف نائم:

- أي عمل... أبهذه السرعة؟ يبدو إن إجاد العمل صار سهلا للغاية.

رد علي وهو يسحب الغطاء مني:

- لا.. بالتأكيد ليس سهلا، لكنك تمتلك توصية من رجل مهم سيجعل تلك مهمة سهلة.

فتحت عيني بصعوبة وسألته باستغراب:

- ومن ذاك الرجل المهم الذي أوصى بي؟

أحمد وهو يبتسم ويمسك بالزر في ياقة قميصه ورافعا رأسه بفخر:

أنا ذلك الرجل المهم، أم أنك لا تعترف بي؟

عندها سحبت الغطاء منه بقوة وقلت له ساخرا:

- لو كنت رجلا مهما لما ايقظتنا في السادسة صباحا وحدهم المساكين من يستيقظون باكرين، اتركني من مزاحك السمج فقد بلغنا الثالثة والاربعين يا مراهق.

عاد ساحبا الغطاء مني وقال بحزم:

- أنهض الآن وإلا ستخسر وظيفتك وأقسم لن ينفعك حتى العميد حسين كي تسترضيني كواسطة.

نهضت وتوجهت معه إلى حيث يريد وهو يرفض أن يدلي بأي معلومة عن نوع العمل ومكانه، وبعد ساعة كاملة من الطريق المزدحمة وصلنا لبناية كتب عليها:

(شركة VIP لتوزيع المنتجات الغذائية)،

دخلنا مباشرة لغرفة المدير الذي بالكاد رد علينا السلام دون النظر إلينا فقلت لأحمد مشاكسا وأنا بالكاد أكتم ضحكتي:

- الآن تأكدت أن معي توصية من رجل مهم.

عاد فهمس لي بصوت واثق:

- الأمور بخواتيمها أيها المتشائم، أصبر وسترى من أكون.

أقترب من المدير الذي راح يقلب الأوراق والايصالات الكثيرة التي أمامه وقال له:

- أحضرتُ السائق الجديد الذي طلبته وهو أبن خالتي وأنا أضمنه.

في داخلي أصابني الرعب من كلمة (السائق الجديد) ورحت اسأل نفسي:

ما يفعل هذا الأحمق أي (سائق)؟ كم أنا غبي لأني أسلمت نفسي لأحمق مثل هذا بالتأكيد سيورطني بأمر ما.

قطع حديثي مع نفسي صوت المدير وهو يسألني:

- هل تمتلك اجازة قيادة؟

قبل أن أجيبه راح يغمز لي أحمد بعينه ويعض شفته، لكنه ولترددي بالإجابة أسرع هو وقال:

بالطبع يملك اجازة قيادة وإلا ما أحضرته أصلا للمقابلة.

رفع المدير راسه ونظر الي وراح يفكر بشيء ثم طرد فكرة التردد بلحظة

لشدة انشغاله وقال مخاطبا أحمد:

أذهب مع أبن خالتك واملأ له استمارة التعيين ولكن بشرط، أن تكون أنت من يكفل السيارة التي سيقودها لا هو.

فرح أحمد عكسي أنا الذي تملكني الخوف والاحراج معا، فقبلَ المدير من رأسه الذي ابتسم للطافته وأتجه نحوي مباشرة واقتادني من يدي واتجه إلى الادارة، لكني أوقفته في الممر الصغير وقلت له:

– هل أنت مجنون... إلا تعرف أني لا أجيد القيادة؟

رد علي مبتسما وهو يعود ليسحبني هذه المرة:

– لكن أنا أعرف القيادة وسأعلمك تحرك الآن ولا تكن جبانا، فالحياة فرص وعليك انتهازها لا الوقوف والتفرج عليها.

– وهل تضمن أن أكون معك دون غيرك؟

– نعم أضمن ذلك فأنا المندوب والسائق الذي معي ترك العمل.

في غضون ساعة استلمت سيارة حمل نوع (KIA) واحد طن وبعد أن غادر المسؤول عن السيارات قفز أحمد وجلس خلف عجلة القيادة وقال هيا بنا بسرعة، وبالفعل خرجنا كالهاربين من مقر الشركة واتجهنا لشارع خلفي قريب من الشركة وتوقفنا هناك وقال:

تعال مكاني.

حاولت الرفض لكنه قال:

إذا كنت أنا بيد واحدة وتمكنت من قيادتها فبالتأكيد ستتمكن أنت من ذلك يا صاحب اليدين الاثنين، فقط تمتع بروح التحدي وواجه المخاطر.

في نهاية النهار كنت قد اكتشفت أن قيادة السيارة ليست بالمهمة الصعبة وخلال أسبوع واحد أصبحت سائق رائع جدا.

تنفست ماري الصعداء وقالت بفرح:

أف ... أخيرا هناك بعض الراحة.

نظر إليها نظرته الساخرة التي تسبق دائما الأخبار السيئة، فقال وهي تؤشر بيدها:

– أرجوك أبعد هذه النظرة فقد خبرتها كالهدوء الذي يسبق العاصفة، أنا متأكدة أنك عملت حادث اصطدام والشركة قامت بطردك على الفور؟

سكت للحظة واجبتها:

– ليت هذا ما حصل،

وضعت يدها على فمها وقالت بخوف:

– وهل هناك ما هو أسوء من ذلك؟

أجابها بوجع:

نعم... هناك ما هو أسوء من ذلك، ففي يوم توجهنا لأحد الأحياء وكان أحمد المندوب وأنا السائق نحمل بضاعة قد تم طلبها من قبل أحد محلات المواد الغذائية، فاستوقفتنا مجموعة مسلحة تبين بعدها أنها من القاعدة، وبعد تحقيق سريع أطلقوا سراحي فقط واقتادوا أحمد لأنه من طائفة أخرى وأخذوا معهم السيارة والبضاعة التي فيها تاركيني لوحدي في الشارع بعدما أبلغوني أنهم سيتصلون بذويه بخصوص فدية لإطلاقه.

ضربت ماري على وجهها وقالت:

يا الاهي لم أكن أتوقع هذ؟ أكمل أرجوك.

أكمل خالد حديثه:

أبلغت الشركة بما حصل واتجهت للبيت أبلغ العميد حسين بما جرى لي

ولأخيه، فجن جنون الرجل وقال:

لن يفلتوه هؤلاء المجرمين أنا متأكد أن أحمد لن يعود.

وبعد ساعة كان أغلب رجال الحي في البيت يواسونه على ما جرى لأخيه وفجأة رن الهاتف وراحوا يطلبون منه مبلغ كبير كفدية مقابل اطلاق سراحه، وبعد أن اغلقوا الخاطفين الخط، توجه لي (السيد الذي كان من ضمن الحضور):

لِما أسروا أحمد وأطلقوك أنت؟.. ألا ترى أن في الأمر شيء من الغرابة؟

أجبته دون تفكير:

بعد أن سألونا عدة اسئلة اقتادوا أحمد وأبلغوني أنهم سيتصلون لاحقا بخصوص الفدية.

أعاد السؤال ثانية وبصوت عالي أسكت جميع من في الغرفة:

لِما لم يأخذوك أسيرا مع أحمد؟

أجبته بارتباك واضح:

لا اعرف!

ألتفت بوجهه إلى العميد حسين وقال بصوت يحمل رائحة الموت والخبث:

ألم أقل لك أنه جاسوس وأنت من رفض ذلك، وها أنت الآن وأخاك أول من يدفع الثمن.

أجابه العميد حسين بشيء من التوتر:

لا مستحيل... بيننا وبين هذا الانسان عشرة طويلة ومن المستحيل أن يصدر منه فعل خيانة فنحن عائلة واحدة حيث كانت أمه وأمي رحمهما

الله كالأخوات.

السيد:

هذا كان قبل عام ٢٠٠٣ أما الآن فالوضع تغير وملأ الدم كل شوارع بغداد منا ومنهم، وتحول الحب لكراهية والمودة لقتل وتهجير ودمار نحن اليوم أناس مختلفون.

وجه كلامه لشخص كان يرافقه:

خذه إلى المسجد لنحقق معه.

تدخل العميد حسين وقال له:

أرجوك أتركه فلا ذنب له بما حصل.

السيد:

بعد التحقيق معه ستندهش من إجرامه وحجم المهام التي قام بها لتنظيم القاعدة.

لم تفلح كل توسلات العميد حسين لتركي حيث اقتادوني إلى المسجد ليتم التحقيق معي والكلمة الأدق لـ(تعذيبي وقتلي فيما بعد).

ماري:

لحظة من فضلك... أليس المسجد للصلاة وعبادة الرب كالكنيسة؟ فما دخله والتحقيق؟

خالد:

الأحزاب الاسلامية عندنا كمحاكم التطهير التي عندكم في القرون الوسطى، كلاهما استخدم دور العبادة للسيطرة على الناس حولوها لمراكز للاعتقال والتعذيب.

ماري:

أكمل أرجوك.

خالد:

أدخلوني للمسجد وكانوا قد اتخذا من الحمامات زنزانات اعتقال فوضعوني في حمام أبعاده متر في متر وربع أقضي ليلتي كلها واقفا وفي اليوم الثاني عند المساء، وبعد صلاة المغرب بساعة بدء التحقيق معي مستخدمين كل أنواع التعذيب من حرق وضرب وجلد وقلع للأظافر وبقيت على هذا الحال لمدة أسبوع كامل، وفي الآخر قرروا قتلي انتقاما لمقتل أحمد الذي قتله تنظيم القاعدة الارهابي ورموا جثته في أحد شوارع بغداد.

صكت ماري على أسنانها وأحكمت قبضتها على يده وقالت:

ما هذا الإجرام وأي رجال دين يحكمونكم.

بعد صلاة المغرب اقتادوني لساحة الحي وقرروا تنفيذ حكم الاعدام وهم بذلك يرعبون الحي وسكانه من خلال اظهار قساوتهم واجرامهم، ومن ناحية اخرى تقديم أنفسهم على أنهم حماة المذهب والطائفة والقوى التي لا مناص من تقبلها لأنها الوحيدة القادرة على الوقوف بوجه اجرام وقوة الطائفة الأخرى التي هي بمستوى اجرام وارهاب هذه المليشيا.

راح الشيخ يلقي خطبة حماسية بعدها أعطى الأذن للـ(السيد) بالتنفيذ، عندها سألني وقال هل من كلمة تقولها للناس:

فقلت بصوت عالٍ (أنتما وجهان لإجرام واحد) فكما القاعدة تقتل العراقيين الأبرياء ها أنت تقتلون مثلهم العراقيين الابرياء.

عندها ضربني بأخمص المسدس على رأسي لفرط غضبه ففقدت وعيّ من هول والضربة .

وطني...
كتب علي الخوف فيك
وكتب علي الحنين بعيدا عنك

فتحت عيناي وأنا داخل سيارة ذات صوت خشن جدا كأنها سيارة حمل، ورحت أتسأل مع نفسي...هل أنا جثة هامد ويحملونني كي يتخلصوا مني في أحد المزابل كما يفعلون دائما؟ لكني فوجئت بصوت يقول لي (الحمد لله على سلامتك) .

رفعت رأسي فإذا به شخص يتكلم العربي باللهجة اللبنانية فقلت له ساخرا من حالي:

الآن تأكدت أن لهجة الملائكة لبنانية.

أنفجر الرجل ضاحكا وقال لي:

يسألك الضابط في أي وحدة للجيش الأمريكي تعمل؟

أجبته:

وهل للملائكة ضباط مثلنا، على ما يبدو سيبدأ مسلسل العذاب السماوي بعد أن حانت آخر حلقة من مسلسل العذاب الدنيوي

رد علي المترجم وهو يضحك:

أيها الغبي نحن قوات التحالف، جاءنا بلاغ بأن أحد المليشيات ستنفذ حكم الاعدام في شخص يعمل كمترجم لدى قوات الامريكية فانطلقنا على الفور لإنقاذك.

سألته:

ومن ذلك الشخص.

أجابني بلهجته اللبنانية اللطيفة:

(وأنا شو عرفني يا رجل هلا طالعين ونتعرف عليه)

بعد عشرين دقيقة وصلنا إلى المقر الموجود في المنطقة القريبة فإذا بلحظة نزولي من السيارة يتم إنزال (السيد) الذي أراد قتلي مقيدا بيديه وهو يقول:

لم يخطئ حدسي فأنت جاسوس كان علي قتلك من أول يوم رأيتك فيه.

لم أعر لكلامه أي أهمية واتجهت مع ضابط الدورية لغرفة القائد المسؤول عن الموقع عندها صدمت بالعميد حسين واقف بانتظاري فاندفعنا باتجاه بعض متعانقين وكلانا يبكي حاله وحال أحمد المسكين.

وسألته:

كيف تعرض نفسك وعائلتك للخطر يا أخي؟

العميد حسين:

ترى ما سيكون ردي لخالتك أم حسين وهي تعاتبني لتقصيري بإنقاذ ولدها الثالث خالد، أو ما سأعتذر للخالة أم خالد في عدم انقاذ وحيدها من قتلة الأبرياء .

عندها ضحكت رغم كل الخوف والحزن:

يعني أنت لم تنقذني حبا بي؟

العميد حسين:

بالتأكيد لا... لكن خوفا من لسان أمي السليط بعدما ألتقيها في العالم الآخر.

تدخل الضابط الامريكي قائلا:

بعد التحري عنك تبين أن لك سجلا سيئا في العمل كمترجم لكن القائد قرر التغاضي عن ذلك وأمر بإنقاذك كتعويض عما أصابك من ضرر في سجن أبي غريب.

عندها أجبته:

أن أربع سنوات اعتقال بلا ذنب كنت خلالها أموت كل يوم من حجم الاهانات والضرب لا يفي حقها انقاذي من رصاصة رحمة تطلق على رأسي أنظر لأظافر يدي واقدامي ولظهري وحجم التعذيب، هل برايك أن الموت كان الشيء الاصعب فيها؟

بدت ملامح الغضب على وجه الضابط الأمريكي فقال بصوت غاضب:

أتلومننا لأننا أنقذناك معرضين حياة رجالنا للخطر من أجلك ؟ كم أنت جاحد.

توجه العميد حسين للضابط الامريكي مخاطبا ليستدرك الأمر وبطريقته المحترمة:

من المستحيل أن يعيش خالد بعد الآن في العراق لذلك أتمنى منكم اخراجه من العراق وقبوله كلاجئ أنساني انقاذا لحياته وبذلك ستكونون قد قدمتم التعويض المناسب لرجل سيخلق عمله معكم عدوا له كل يوم.

وبالفعل بعد سنة من التخفي والاختباء كنت أضع قدمي على الأرض الأمريكية هنا في ولاية مشكن الأمريكية كلاجئ أنساني تاركا وطنه لشذاذ الآفاق يسرقونه ويحرقونه ويقتلون أبنائه في كل يوم وبشتى الأسباب

نحتاج في حياتنا إلى...
نقطة انتقالية نحرق فيها ماضي مؤلم ونستقبل مجهول جديد

عند الرابعة مساءا فتح خالد عينيه وهو متعب جدا من ليلة صاخبة الأحداث والذكريات، فقد تلاطمت أمواج الماضي ومفاجئات الحاضر في سويعات كن بمثابة نقطة تحول لا عودة بعدها، فكلنا نحتاج أحيانا نقطة انتقالية نحرق فيها ماضي مؤلم ونستقبل مجهول جديد مهما كانت نتائجه، فهو خير من العيش مع ذكريات تغرس أنيابها في روحنا أو كبعوضة تمتص من مشاعرنا الفرح كل حين.

مد يده يتحسس المرأة التي أعطته ما أعطته أمس من أكسير الحياة، وكانت له الحبيبة والشريكة ومستودع نفايات ذكرياته الحزينة إلى الابد، نعم فقد أقسم بحلمه أن يمتلك أسباب السعادة وأن لا يجتر ألمه كل ما حاول من الفرح، تلك المرأة التي أعادته إلى قيد الحياة وحولته من كائن يأكل ليعيش فقط رغما عنه إلى كائن يأكل ليحيا، وفتحت أبواب الحياة على مصراعيها أمامه من جديد بمفتاح أسمه الحب.

لكن أصاب خالد الريبة، فالجسد الذي بجانبه تغيرت تظاريسه، وتحول من الليونة والانوثة إلى القوة والقسوة، راح يحدث نفسه بحيرة:

أيعقل أني ما زلت نائم؟ أم أن الخمر التي أكثرتُ منها أمس جعلتني فاقدا للحقيقة وصارت تلعب بذهني وبعثرت جوارحي؟

فُتحت باب الشقة فدخلت آنسة تحمل كيسا واستدارت تغلق الباب، يا إلاهي هذا جسد ماري ولكن ما أغباني، سأكرر على نفسي أن هذا فعل الخمر وخصوصا أني اتذوقه للمرة الأولى، لكن المفاجئة الأكبر هو وجه ماري عندما استدارت وألقت عليه التحية فنهض بنصف جسده كي ينهي مهزلة ما يستنتج خياله الثمل بقطع الشك باليقين، نعم هي ماري تروم ترتيب شيء ما، لكن من هذه الجثة التي بجانبه؟

سأتمنى لك في هذا العام أمنية غريبة...
فقدان ذاكرة تام .
كي تولد من جديد بذاكرة جديدة

راح يتحسس الجسد الملقى بجانبه ليتعرف ما هو ومن يكون، فإذا به رجل لا امرأة:

يا إلاهي من هذا عرفت أن الفرح عندي لا يدوم، هذه مصيبة أخرى لا أعرف من أين أتت،

دون شعور وهو يتحسس الجثة فإذا الجثة تتحرك وتصرخ:

من تظنني أيها الحقير أبعد يديك القذرتين عني.

كان الصوت صوتا مألوفا لديه، نعم هو صوت جلال رفيقه في السكن، لكن ما الذي أتى به الآن فقد كان من المفروض أن يأتي بعد ثلاثة أيام.

ارتمى بجسده المتعب جدا على السرير وحمد الله وشكره لأن هذه الجثة التي بجانبه قد عادت لها الحياة من جديد.

بعد نصف ساعة كان الثلاثة غارقين في الضحك بينما راح جلال يسرد ما حصل له بطريقة تتلاءم مع شخصيته المرحة جدا والفكاهية

وصلتُ في الساعة السادسة فجرا وفتحت باب الشقة فأصابتني الدهشة للمنظر الذي رأيته، فقد وجدت أن شكل الغرفة الصغيرة قد

تغير تماما، فقد دمج السريران مع بعضهما ليسعا جسدا رجلا وامرأة والكثير من الفوضى التي تدل على حدوث حفلة صاخبة قبل ليلة من المرح، فتوجهت إلى الحمام مباشرة كنوع من الاحترام لخصوصيتكم دون ايقاظكم وحاولت كسب بعض الوقت وإثارة الضجة لتصحوا من نومكم وتجنبونني وأنفسكم الحرج.

أكملت حمامي ومددت راسي فوجدتكم تغطان بنوم عميق رغم كل تلك الضجة المفتعلة، مما دعاني إلى مناداتك بإسمك أكثر من مرة لكن دون جدوى، بعدها اضطررت للبقاء في الحمام جالسا على المقعد فأخذني النوم بسبب التعب جراء السفر.

عندها....

قاطعته ماري وهي بالكاد تستطيع التكلم:

دعني اسرد هذا الجزء من الحكاية أرجوك.

سكت جلال عن الكلام لكنه لم يتوقف عن الضحك المستمر، فأكملت ماري وهي تقهقه الكلام:

في السادسة والنصف استيقظت من النوم كي أتهيئ للذهاب إلى عملي فتوجهتُ وأنا شبه نائمة إلى الحمام وما إن فتحتُ الباب حتى فَتحتُ عيني أكثر وصرخت بأعلى صوتي(حرامي)، مما أصاب جلال الذعر وراح يبحث عن شيء يحاول ستر نفسه به فقد كان عاريا تماما، أما أنا فقد أضفت للصراخ بـ(حرامي) بعض الضرب ايضا،

هنا قاطعها جلال ضاحكا:

ولا تنسي الركلات فقد كانت موجعة:

أكملت ماري وهي غارقة بالضحك:

هو يحاول الدفاع عن نفسه وسترها في ذات الوقت، بعدها تعبت من الصراخ لكني لاحظت أن هذا اللص لا يضربني بل يتجنب ضرباتي فقط فأحسست بشيء خاطئ فسألته وأنا ألهث:

أيها السارق اللعين ألم تجد من هو أفقر حالا من هذا المسكين كي تسرقه؟

كان جواب جلال لاهثا مع الضحك:

أيتها الغبية وهل سيسرق اللص وهو عاري الملابس؟

ازدادت موجة الضحك حتى أدمعت عيني جلال وخالد

بينما استرسلت ماري في سرد قصتها عليهم:

سقط كلامه كضربة مطرقة على رأسي جعلتني اصحو من ثمالة النبيذ والحب معا:

وما تفعل هنا إن لم تكن لصا؟

فأجابني هذا الماكر:

أنا جلال رفيق الغبي الذي تطارحينه الغرام والذي لم يصحو لحد الآن.

وضعت يدي على فمي تأسفا وأشحت بنظري عن جسده النصف عاري وقلت له معتذرة:

أنا آسفة جدا وأعتذر منك.

واسرعتُ بالخروج وأنا أحاول إيجاد الكلمات المناسبة للاعتذار مجددا بعد خروجه، لكني اسرعت بإيقاظك يا خالد لكنك بالكاد تمكنت من فتح عينيك بلا وعي ثم عدت إلى النوم ثانية دون فائدة.

فأسرعتُ بتغيير ملابسي والخروج من الشقة قبل حتى أن يخرج

جلال من الحمام، والذي بدوره كان يعاني من نفس الحرج الذي أعانيه لذلك شعرت بتعمده التأخر في الخروج لأكثر وقت ممكن.

قال خالد:

كل ذلك وأنا أشعر إن ما يدور كالحلم الصاخب بسبب كؤوس النبيذ التي أجبرتني على شربها كي أبوح لك بقصتي أيتها الماكرة.

وضعت ماري يدها فوق يد خالد وقالت وهي تنظر إليه بحب:

اليوم ليلة رأس السنة وأريد أن أحتفل معك بها وغدا سيكون أول يوم من عام ٢٠١٠ وسأتمنى لك أمنية قد تراها غريبة نوعا ما... سأتمنى لك فقدان ذاكرة كامل كي تبدأ من جديد حياة ملؤها الحب والأمل.

ساد الصمت المكان وخالد ينظر لعيني ماري الجميلتين بجمال هذه اللحظات الساحرة، فأن نحظى بشخص يفكر في إسعادنا تلك هي الجنة بعينها، بينما راح جلال خافضا رأسه وناظرا للطاولة خجلا وكي يمنحهما شيء من الخصوصية ولو بنظره فقط.

حاول جلال الانسحاب من تلك الجلسة التي يفوح منها راحة الحب الحقيقي، وما أن توقف يريد الخروج حتى أمسك خالد وماري كل بيد من كلتا يديه وراحوا ينظرون إليه وقال خالد:

ستكون الليلة معنا لنودع عام هو الأجمل بتعرفي عليك وعلى ماري ولنستقبل عام مليء بالحب والفرح.

كم أتمنى أن يخطأ حدسي على يديك

جلس الصديقان في الحديقة العامة وهما يراقبان ماري تلعب وتتدحرج كالأطفال، عندها قال خالد:

لم أجد من بطيبة هذه الشابة طوال حياتي، ولكن العجيب فيها أنها بألف حالة، تارة تجدها أم حنون وتارة أخرى تجدها طفلة، ومرة تجدها أنثى نارية غجرية الرغبة والاثارة، ومرة تجدها مفكرة وعاقلة وتتصرف بالمنطق ولا تمتلك قلبا.

التفت جلال إليه وراح يتأمل عينيه اللتان يشعان حبا لها وقال:

ألم يحن الوقت لترتبط بها رسميا كزوج وزوجة؟

أخرجه مقال جلال من حالة التأمل تلك والتفت ينظر إليه مباشرة ورد عليه مستغربا:

زواج؟...وهل هذا ممكن؟

جلال:

ولما لا يا رجل بعد علاقة لمدة تسع سنوات من الود والتفاهم لدرجة أن البنت أتقنت اللغة العربية حبا بك، ما الذي يمنع من الارتباط رسميا ونحن الآن نجني مالا وفيرا من شركة النقل التي نملكها نحن الثلاثة وصار لنا بيت كبير.

خالد:

وما الفرق فنحن نعيش معا بلا ذلك الارتباط؟

جلال:

الفرق أنكما بحاجة لأسرة تتكون من أطفال، لتكتمل فرحتكما ولتكونا أسعد أثنين على هذا الكوكب الشاسع.

ضحك خالد ساخرا:

أنا أنجب أطفالا؟... نحن في العام ٢٠١٨ وبعد غد أول يوم في العام ٢٠١٩ يا رجل.

جلال:

وما دخل الأعوام بالإنجاب؟

خالد:

يعني سأدخل في سن الخامسة والخمسين أيها الطيب وستكون ماري قد أتمت الثامنة والثلاثين.

جلال:

أيها الذكي ما قلته يجب أن يكون دافعا للاستعجال في الارتباط وتكوين أسرة حتى نحظى بأطفال نشعر معهم بطعم الحياة.

خالد:

إذن تزوج أنت من حبيبتك اللبنانية وأنجب منها ما تشاء فأنت بالكاد ستتم الأربعين عاما والحياة أمامك مازالت طويلة.

نظر جلال بوجه صديقه وقال بصوت أقرب للهمس:

وأمنية أمك رحمها الله... ألم يحن وقت تحقيقها، فقد انتظرتك طويلا وأنت تعود من الجامعة و انتظرتك طويلا كي تعود من الجبهة فلا تجعلها تنتظر أطول لرؤية أطفالك فكأني أراها تستحثك على الزواج وتراقبك من السماء فقد ملت الانتظار.

خالد:

وهل تريد أن أورث أبني سوء الحظ الذي يلاحقني، لا أخفي عنك أن ثقتي بنفسي مهزوزة جدا.

جلال:

فقط عليك أن تغير زاوية الرؤيا للأمر وسترى الأمور بصورة مختلفة، فمن النادر أن يمر أشخاص بكل التجارب التي مررت بها ويخرج سالما لو لم يكن محظوظ جدا فهناك الملاين من العراقيين قد فارقوا الحياة بواحدة من الحوادث التي مررت أنت بها.

طال صمت خالد وجلال هذه المرة وكل منهما ينظر للأخر حتى أنقطع على صوت ماري وصديقة جلال اللبنانية ليال وهن يلهثن فوقهما من الركض واللعب فقالت ماري:

مالي أراكم صامتون، وكأني بكما تُعدانِ مقلبا بنا أيها الماكران.

أدار خالد وجهه إليها وراح يتأمل تلك البشرة البيضاء التي تحولت للاحمرار بسبب الركض والوجه الطفولي الجميل وقال بصوت واضح وبلا مقدمات:

هل تتزوجينني؟

انفجرت هي وليال ضاحكتين والتفتت ماري إليها وقالت:

ألم أقل لك أن هذين الماكرين يعدان مقلبا، فأنا لم يخب حدسي مرة في حياتي.

لم يضحك هو ولا جلال كعادتهما في المقالب بل بقيا يعيشان لحظة قدسية من التفكير في هذه الخطوة المصيرية، فسكتت الآنستان ونظرتا لهما فمدت ماري يدها لوجه وقالت:

هل تعاني من مرض ما؟ فتصرفاتك ليست بالطبيعية.

نهض من مكانه وقال لها:

معك حق... حدسكِ لم يخطأ يوما ولن يخطأ أبدا وأنا بذلك من الشاهدين.

وتحرك مغادرا المكان، فنهض جلال وضربها على يدها وقال لها يا مجنونة لم يكن يمزح فلا تفوتي الفرصة.

فأسرعت تعدو خلفه واستوقفته وقالت له بلهجة عربية جميلة بمداتها الغير المحسوبة:

(كم أتمنى أن يخطأ حدسي هذه المرة على يديك)

احتضنا بعضهما وكل منهما في غاية الفرح واشار لجلال الذي يبعد عنه ثلاثة أمتار لا غير بلهجة عراقية:

(وروح أمي ما أتزوج أذا مو أني وياك بنفس اليوم)

فاستدارت ماري وقالت له بلهجة لبنانية رائعة:

(وحياة أمه أذا غير رأيه بسبب بلادتك بدي أقتلك).

لنشرب نخب ثمرة حب حقيقي
وِلدَ بين أثنين مختلفين بكل شيء...
إلا إيمانهما بالحب والإنسانية

كان الزواج مليئا بالفرح حد تخيل أن الدنيا أمطرت سعادة على كل الحضور، وأقيم الحفل بوجود كم من المحبين والأصدقاء وموظفي الشركة التي يملكها الثلاثة.

لم يبخل الثلاثة على ليلة عمرهم بل كانوا كرماء للغاية مع الجميع، حيث أقيم الحفل في الفناء الكبير لمنزلهم الذي جمعهم أربعتهم حيث أتفقوا أن تستمر علاقتهم كما كانت قبل الزواج، لكن ذلك لا يمنع أن تكون ليلة العاشر من آذار ليلة تحول في حياة خالد الذي راح يسحب أنفاسه فرحا وكأنه تجاوز عقدة خوفه القديمة من القادم.

في صباح اليوم الأول بعد ليلة الزفاف أقترح جلال على الجميع أن يقوموا برحلة لأحد الدول الأسيوية أو الأوربية، لكن خالد رفض رفضا قاطعا وقال له:

نحن في وسط بدايات كساد وعلينا أن نكون حذرين حتى لا نخسر ما حققته شركتنا من أرباح ومنجزات رائعة.

لكن ماري وليال اصطفتا مع جلال وصار الكل يلح عليه حيث لم يجد خالد غير الضحك حلا للهرب من ضغوطهم عليه، فنهض وهرب وتبعه الثلاثة يرشونه بالماء

مرت الأيام جميلة وهادئة، والجميع ينعم بسعادة وفرح، حتى جاء

الخامس من أيلول من العام ٢٠١٩ حيث قررت ماري دعوة الجميع على عشاء خارج المنزل، وبعد أن استفسر الجميع عن سبب الدعوة أبلغتهم أن الدعوة بمناسبة حدث مهم وتحب أن يكون له ذكرى خاصة تليق بمستوى الحدث الجلل.

جلس الأربعة وهم يتبادلون أطراف الحديث عن العمل وما حولهم من أحداث تخص الاقتصاد الامريكي وتأثر شركتهم بنتائجه، عندها قاطعت ليال الجميع ورفعت كأس نبيذها وقالت:

دعونا نشرب نخب من دعانا لهذا المكان الرائع ولنتمنى أن تستمر هذه الصحبة الجميلة لآخر العمر.

عندها قال جلال:

نخب السيدة التي كانت لنا أختا وأما رغم أنا الأصغر عمرا بيننا.

فضربت يده ليال وقالت وهي تضحك:

تكلم عن نفسك فأنا أصغركم.

ضحك الجميع ورد عليها جلال ساخرا:

أيتها الماكرة أنت تكبرينني بسنتين وأنا أكبر من ماري بسنتين فلا تتذاكي علينا فرشاقتك ونعومتك لا تكفيان لتغلبي تجار مثلنا.

رفعت ماري حاجبيها استهزاء بكلامه وقالت:

أنا أقصد الأصغر فيكم روحا وعاطفة فأنا طفلة وأنتم مراهقين.

عاد الجميع للضحك إلا خالد الذي أخذ يد ماري وقبلها وقال:

وأنا أشرب نخب السيدة التي كان صدرها وطني وأمان لروحي، وأخذت بيدي من عالم الخوف إلى عالم ملؤه الامان والسعادة.

كان الكلام بينهما والعيون في العيون لا ترمش وكل منهما يستقي من

عيون شريكه الحب لا النظر.

عادت ليال لتضرب جلال ثانية على يده برقة وهي تهمس له:

تعلم يا رجل طـرق المعاملـة أولست من نفـس الأرض ونفـس الشعب، وتتحدث نفس اللغة، مالك لا تنطق بالغزل ولو مرة.

بلحظة استفاقت ماري من ثمالة الحب ونهضت وقالت:

أما أنا فأشرب نخب ثمرة حب حقيقي ولد بين أثنين مختلفين بالدين والثقافة واللغة والموطن وما جمعهما غير أيمانهما بالإنسانية العابرة لكل تلك الحدود الغبية التي خلقها البشر ليضعوها في طريق فطرتهم التي خلقها الرب لهم،،، أنا الآن أعلن أن بين أحشائي قلبا صغيرا ينبض لا ليدفع دما بل ليضخ حبا لا ينتهي حتى بعد الموت.

راح جلال وليال يصفقا ويهلالا فرحا بينما تسمر خالد بنظره إلى تلك الغيمة البيضاء الواقفة أمامه وهي تنظر إليه بفرح غامر وقال بصوت بالكاد يخرج من فمه ليتأكد مما قالته:

ما تقصدين بكلامك أيتها الملاك؟

انحنت قليلا ومدت يدها لتلاعب رأسه الأصلع ونزلت للحيته وقالت:

أنا حامل يا صغيري بطفلك الذي كنت تنتظره طوال عمرك.

احتضن خالد زوجته من بطنها وراحت دموع الفرح تنزل من عينه، تنزل معلنة أنه تجاوز الفرح احتمال روحه الطيبة، وقال أخيرا ستتحقق أمنية أمي التي اقتنعت عشرات السنوات من عدم القدرة على تحقيقها، أخيرا ستشعر أمي بالفرح وستفرح معها السماء كلها.

جلست على الكرسي وقالت:

فرحتك عندي بالكون كله يا صغيري.

لحظة واحدة
تكفي لتعيد ترتيب ذاكرة اعتقدنا أننا نسيناها

فتح جلال باب غرفة مكتب خالد المنهمك بالعمل وقال له:

أترك ما بيدك فحبيباتنا بانتظارنا لننعم بسهرة جميلة فقد سبقتنا زوجاتنا ليعددن العشاء لنا.

ترك خالد ما بيده والتقط سترته السميكة وراح يرتديها بسرعة وهو ينظر لحجم الأوراق التي أمامه وهو يتحدث معها:

لو بقيت لشهر لما انتهت هذه الفوضى التي أمامي، دنا نذهب ولنترك الغد للغد فقد تعبت جدا اليوم.

ضحك جلال وقال ممازحا:

أي غد أيها المجتهد؟ اليوم آخر يوم في الأسبوع وغدا وبعده عطلة ولن تخدعني مثل كل مرة وتأتي بي لمقر الشركة نزاول العمل فيها، فإن كانت زوجتك لا تمانع وتريد التخلص منك، أنا زوجتي تعشقني ولا تريد التفريط بي.

دفع خالد صاحبه وراح يغلق الباب وهو يقول:

وهل هناك في الكون زوجة تحب زوجها كما تحبني ماري.

وفي باب الشركة فتح خالد باب سيارة جلال ودخل وسط استغرابه فسأله:

- هل ستترك سيارتك هنا؟

- نعم... لا مزاج لي بقيادة السيارة لمدة نصف ساعة أشعر بالتعب

من العمل.

- وكيف ستتركها هنا.

- و ما المشكلة ؟ المكان آمن وعندنا في البيت ثلاث سيارات

- معك حق حتى إن وجود أربع سيارات في باب منزلنا الكبير يجلب عيون الحساد.

ضحك خالد من قلبه وقال وهو يبحث في موجات الراديو عن نشرة الاخبار:

كعادتك منذ عرفتك تغير كل شيء إلى هزل، الحمد لله أنك صديقي فلولاك لكنت الآن ميتا من الحزن والكآبة.

جلال:

أخيرا اعترفت أن سبب فرحك هو نكاتي وروحي المرحة، لا تلك البدينة ماري التي تتغزل بها طوال الليل حتى أن زوجتي الرشيقة تعيرني بك كل يوم وتطلب مني أن ألقي قصائد غزلا بها وبخصرها المشوق.

فجأة أسكته خالد وقال أنصت أرجوك ودعنا نستمع لهذا الخبر الهام.

راح المذيع في الراديو يذيع تقريرا عن احتجاجات شعبية واسعة في العراق وأنها تُقمع بشدة من قبل الحكومة وهناك عدد كبير من الشباب المتظاهر لقي حتفه جراء استعمال الرصاص الحي.

أنقطع صوت المذيع فجأة بعد أن اغلق جلال المذياع وهو يقول:

دعنا من العراق وأخباره التي لا تأتي إلا بالغم.

نحن شعب...
يعمل سارقيه في مباني حكومية

كان الجميع مرحا مثل كل مرة إلا خالد الذي شُغلَ جل باله عند ما سمعه من أخبار عن العراق ومقتل شبابه برصاص القوات الحكومية، فطلب من ماري أن تُعدُ له فنجان قهوة وترك الآخرين دون أن يكمل عشاءه وتوجه إلى غرفة المكتب وشغل التلفاز وراح يتابع القنوات العالمية بحثا عن أخبار العراق.

سألت ماري جلال مستفسرة عن سبب قلق زوجها فأجبها أنه كان على ما يرام ولا يوجد ما يثير القلق.

دخلت ماري تحمل فنجانين من القهوة وجلست بجانبه على الأريكة الوفيرة وقالت له بعدما قدمت له فنجان القهوة ولاحظت أنه يبحث في الأخبار السياسية:

تعودت أن تتابع أخبار الاقتصاد وتكره أخبار السياسة.

وقبل أن تكمل أشار لها بيده وهو يضع فنجان قهوته أمامه حيث شده تقرير جديد عن الوضع في العراق وكان يحمل صورا للاحتجاجات العارمة التي عمت أغلب محافظاته حيث ركز على الطريقة اللاإنسانية التي تعاملت به قوات ترتدي زي مكافحة الشغب مع المحتجين، دون سابق إنذار هاج الشعور الوطني في عواطفه وراح يفرك يديه بقوة ألما وحرقة على طفل يحمل راية خضراء أصابه قناص بطلق ناري في رأسه

وسقط فورا على الأرض بينما ركض عليه شباب وصبية ليحملوا جثته وسط الهتاف:

(بالروح بالدم نفديك يا عراق)،

لم يصدق ما تراه عيناه من منظر مؤلم. على شاب اخترقت رأسه قنبلة دخانية أو قنبلة مسيلة للدموع بينما حمله رفاقه وهم يرددون نفس الشعار.

دخل جلال ممسكا بخصر ليال وهو يطلق النكات ويخاطب ماري:

لم أعهدك بهذه الأنانية، تعدين القهوة لك ولزوجك وتتركين أخيك.

راح الثلاثة يتبادلون المزاح كعادتهم بينما كان خالد يفرك بيديه بقوة حتى أنفجر عليهم وقال غاضبا:

كيف تتبادلون المزاح وهناك أطفالا تموت أمام أعينكم بهذه الطريقة الإجرامية، هل قوبكم من حجر حتى لا تشعروا بالألم؟

ساد الصمت للحظات بعدها تحدث جلال بطريقة جادة:

قلوبنا ليست قاسية يا أخي، لكن على ما يبدو إنك نسيت العراق وما يعنيه هذا الأسم، فأهله يتقاسمون الخوف كالخبز ويتجرعون الموت كل لحظة، أتراك نسيت ما نالك منه من قتلٍ وضربٍ فإن ذاكرتك نسيت، فجسدك لم ينسى، ولك أن تتطلع في المرآة لتشحن ذاكرتك بما مر بك.

واستدار وهو يهم بالمغادرة فنهض خالد من مكانه وأمسك بمقبض الباب قبل أن يفتحه هو مانعا إياه من الخروج ونظر إليه بينما أشاح جلال بوجهه عنه فقال:

وهل تغضب من غبي مثلي وأنت الأخ الذي لم تلده أمي؟

رد عليه:

لست بغاضب.

خالد:

أنا أعتذر منك على ما تفوهت به، ولكن منظر الطفل وهو يقتل بقناص مجرم أثار جنوني.

جلال:

وما الغريب في ذلك فمن يحكم الآن العراق ثلة من السراق والقتلى، والعالم كله يعرف ذلك، بل وحتى شعبك نفسه من منحهم التفويض بقتله، أم نسيت أن في العراق نظاما ديمقراطيا وأن السراق والقتلة جاءوا عبر صناديق الاقتراع.

ارخى خالد يده من قبضة الباب وعاد يرتمي بجسده المنكسر بقوة على الأريكة فعاد جلال إليه، فقلبه الطيب لا يحتمل أن يراه حزينا وطلب من ماري النهوض وجلس بجانبه وقال له برفق:

أنسى أنك عراقي فأنت الآن تحمل الجنسية الأمريكية وقد حصلت على شهادة الماجستير (MBI)وتملك شركة نقل كبيرة وصار يعمل تحت إمرتك العشرات من الموظفين بما فيهم أمريكان، أرجوك أخي أرجوك أمريكا هي وطنك الحقيقي فلا تشغل بالك بقضية خاسرة.

البكاء ليس ضعفا...
بل هو دليل على أننا نملك قلبا

أنسل من الفراش بهدوء كي لا يوقظ زوجته ونزل إلى الطابق الأرضي وقام بتشغيل التلفاز وعاد يتابع الأخبار التي ترد عن العراق وردود الأفعال على الجرائم التي تقع بحق المتظاهرين العزل.

أحست ماري بغياب زوجها بعدما تحسست مكانه وهي التي تعامله كأم تطمئن على صغيرها كل دقائق حتى وهو نائم، نزلت تبحث عنه بهدوء حتى وجدت نور غرفة المكتب مضاء، فاقتربت منه بهدوء وفتحت الباب لتجد زوجها الحبيب وهو يدخن سيجارة بطريقة المبتدئين فما أن يدخل بعض الدخان رئتيه حتى يسعل فاقتربت منه وأخذت السيجارة من يده وأطفأتها وراحت تتأمل وجهه الطيب وقالت له بهدوء ورقة:

أتذكر قبل عشر سنوات عندما تركتُ التدخين أكراما لك لأن دخانها كان يزعجك؟ واليوم أنت تدخن! سأبلغ جلال أن لا يدخل علبه سجائره إلى المنزل بعد الآن خوفا على صغيري من تعلم هذه العادة السيئة... تعال وارتمي بحضن أمك وأحكي لي مثلما حكيت لي أول مرة ما يزعجك قبل سنوات أم أن هذا الصدر ما عاد يراه جبينك كوطن.

وضع رأسه على فخذها واطبق برجليه كطفل يود النوم ولا يعرف طريقا لذلك، بينما هي راحت تمشط لحيته بأظافرها كنوع من

المهدئ لأعصابه، فقد خبرت بذكائها الأنثوي ما يهدئ طفلها الطيب وهمست بأذنه بحب:

ألن تخبرني بما يزعجك ويجعلك في حالة من التوتر الشديد؟

لم يجبها بكلمة لكنه راح يمسك بيدها ويعتصر مفاصل أصابعها كتعبير لا إرادي عن التوتر الذي فيه، فقالت له بصوت هامس:

البكاء ليس ضعفا يا صغيري، بل هو دليل على أننا نملك قلبا طيبا.

ليس كل الابتسامات تعني الفرح...
بعض الابتسامات تعني الاحتراق.

جلس خالد يتطلع لزوجته وليال وهن يعدن السلطة وأشياء أخرى بينما تكفل صديقه بتهيئة النار المخصصة للشواء والجميع فرحين ويتبادلون النكات تارة حتى صاح به جلال:

قم يا جلالة الملك وقدم لنا بعض المساعدة، فرعيتك تتبارك بتواجد ملكهم معهم.

ابتسم خالد وأتجه إليه وأبعده عن صندوق الشواء وهو يقول له:

أقسم أنك لا تجيد أي شيء غير المزاح والسخرية، ها قد أحرقتَ اللحم بسبب نكاتك السخيفة.

جلال:

أيها الناكر للجميل من أوصلك أمس من الشركة إلى هنا؟

اندفعت ماري تحتضن خصر زوجها فرحة بعودته لطبيعته ثانية فقبلته من شفتيه بحب والتفتت إلى جلال وقالت له مشاكسة:

معه حق أنت لا تعرف شيء، حتى أن زوجتك الجميلة تشتكي لي من قلة خبرتك في العلاقات الحميمة.

رمى جلال ما كان يحمل من اداة لتقليب اللحم وهو مندهش وقال فاتحا ذراعيه يخاطب زوجته:

أيتها الناكرة للجميل أنا لا أجيد العلاقات الحميمة!

عاد الجميع للضحك من جديد بينما أندفع جلال للجلوس واضعا

رجله على الاخرى وأشعل سيجارته وقال مشاكسا:

أنا لا أجيد أي شيء سوى الأكل هيا أعملوا أنتم وسأنتظر الطعام.

رد عليه خالد وهو يغمزه بخبث:

بل سترينا براعتك في تنظيف الصحون من بقايا الطعام.

الثورات الحقيقية
متى ما بدأت لا تتوقف أبدا
فهي كموجة التسونامي

دخل خالد غرفة المكتب فوجد جلال منشغلا في متابعة تقرير فجلس بجانبه وراح يتابع نفس التقرير لكنه أصيب بالدهشة بعد ثواني، فسأل صاحبه:

ألم تلمني قبل أيام على متابعتي تقارير خاصة بالاحتجاجات في العراق، وها أنت تتابعها بالخفاء أيها الماكر.

جلال:

كنت أتابع هذا التقرير بالذات لأنه يثبت صدق نظريتي التي أخبرتك بها، فها هي الاحتجاجات تلفظ أنفاسها الأخيرة حيث أعلن الشباب توقفها لغاية انتهاء زيارة اربعينية الأمام الحسين (عليه السلام).

أيقن خالد صحة كلام صديقه فقد كان يتابع كلام المراسل الذي يتوافق مع كلامه ولكن رغم حجم الخيبة التي أعترت روحه حاول التمسك بأمل زائف:

وما أدراك ... ربما يعودون بالفعل بعد الزيارة حتى يتجنبوا اتهامات البعض بتعطيل أحدى أهم الشعائر الدينية في العراق.

أتكأ جلال على ظهر الأريكة وهو يضحك ويقول بثقة:

تحاول يائسا التبرير، يا صديقي ... هل سمعت يوما في التأريخ كله بهدنة بين ثائر وظالم ؟ الثورات الحقيقية عندما تبدأ لا تتوقف أبدا

فهي كموجة التسونامي تطيح بكل رؤوس الفساد أو تنتهي بالتضحيات والشهداء.

راح خالد يفرك رأسه بيديه فقد كان كلام صاحبه أقوى من أن يدحظه أي تبرير لذلك استسلم له.

الثورة هي نتاج عجز المنطق عن الحلول

أقتحم خالد مكتب جلال وهو يوشر بأصبعه وكله حماس كمن ربح ورقة اليانصيب وهو يقول:

فشل استنتاجك ونجحت نظريتك يا صديقي.

سأله جلال باستغراب أي استنتاج وأي نظرية:

- أي استنتاج وأي نظرية؟

- أما الاستنتاج الفاشل فهو إن الاحتجاجات قد تقطعت أنفاسها وتوقفت والنظرية هي تلك التسونامي التي ستطيح برؤوس الفاسدين والظالمين.

- لم أفهم عن أي شيء تتحدث؟

جلس خالد على الكرسي المقابل له بوضع المستريح وقال:

يبدو أن في العراق تحولات تفوق فهم السياسة والتجارب العالمية الأخرى، فقد شاهدت في التلفاز مشاهد عجيبة من التفاني والإثار حتى أصابتني بالذهول....

وقبل أن ينهي كلامه قاطعه صديقه:

قم وأنهي عملك يا رجل وأترك أرض الصراعات فأنا على يقين أن ما يحصل من مظاهرات هي جزء من وسائل الضغط بين الطبقة الفاسدة هناك للضغط فيما بينها على بعض لأنتزاع بعض المناصب بلي الذراع وليس التأريخ ببعيد عن مظاهرات ٢٠١١ ومظاهرات ٢٠١٤ وفي كلاهما قفزت أحد الجهات لتستثمرها بطريقة جعلت منها

الأقوى نفوذا وراحت تمارس شتى أنواع السرقات حتى صار العراقيون يتمنون أيام الدكتاتورية على ما يعيشونه اليوم من تدمير وتراجع في كل المجالات.

نهض خالد من وتوجه يريد مغادرة الغرفة فتوقف عند الباب والتفت إليه وقال:

أنت تقتل كل أحلام التغير لدي، لكن تذكر جيدا (أن الثورة هي نتاج عجز المنطق عن الحلول)

قلة الاهتمام أول علامات التغيير

أنهى خالد العشاء فشكر ليال التي قامت بأعداده بعدها قبل يد زوجته التي رمقته بنظرات الحب وطلب منها كوبا من الشاي وقال لجلال:

أكمل طعامك وتعال إلى المكتب لنشرب الشاي معا.

بعد دقائق كان الاثنان يخوضان حورا عن العراق وتظاهراته فدخلت ماري تحمل الشاي وبعدها ليال، تغني بصوتها الجميل أغنية للمطربة شيرين وتهز براسها طربا، عند ذلك حاولت ماري تغير مجرى الحديث من خلال تغيير القناة التلفزيونية الاخبارية، وقالت بطريقة دبلوماسية:

سأبحث لنا عن أغنية رومانسية تعيد التوازن لأرواحنا التي أتعبتها احاديث السياسة.

لكن خالد الذي كان مُستفزا من قبل جلال بسبب الحوار الذي يدور بينهما صاح فيها طالبا أن تعيد التلفاز للقناة السابقة لأنها تناقش موضوعا مهما جدا.

كان الصوت والطريق التي صاح بها على زوجته مدعاة للاستغراب مما جعل الجميع في حالة من الصمت، فلم يتعودا هذا التشنج في التعامل بين الزوجين المتحابين، لكن عقل ماري الراجح جعلها تسيطر على أفعالها وتستوعب الصدمة فأعادت القناة الاخبارية رغم التوتر

قد بدا واضحا من خلال رجلها التي راحت ترتجف صعودا ونزولا، بعد لحظات استأذنت جلال أن تأخذ سيجارة من علبته وأشعلتها وراحت تدخنها، عندها قالت ليال:

لا يجوز التدخين وأنت حامل فهذا يضر بالجنين.

عند ذلك تنبه خالد لما فعلته زوجته فقال لها مستغربا ومذكرا:

ألم تتركي التدخين منذ تسع سنوات وكان بيننا أتفاق على ذلك؟

ماري وهي تحاول أن تخفي توترها الشديد:

وقررت العودة له الآن.

ألتقط جلال كوب شايه وغمز بعينه لزوجته واستأذن منهما وغادر الغرفة، لكن الصمت لم يغادر المكان وبقي الحاكم على فم الاثنين إذ راح كل منهما يحاول أيجاد فهم لما حصل، فهذه المرة الأولى التي يصل التشنج بالتصرفات لهذه الدرجة.

أنهت ماري سيجارتها فضغطتها بقوة في منفضة السجائر ونهضت مغادرة الغرفة، لكنه أمسك يدها مانعا إياها من ذلك وطلب منها الجلوس للتحدث وقال مستفسرا:

لما كل هذا التوتر المفاجئ؟

زاد سؤاله لها توترها فقامت هذه المرة وسحبت يدها بقوة وخرجت من غرفة المكتب.

شتان بين من يمسح دمعنا,
وبين من يجعلنا نبكي

أنسل إلى الفراش إلى جانبها وقد أعطته ظهرها فمد يده اليمنى تحت رأسها بينما طوق بالأخرى صدرها وأمتد أصبعه يداعب شفتها والتصق بجسده كله على جسدها وكأنه يعلن الاعتذار عما وصلت إليه الامور، لكن فجأة أحس برطوبة في وجهها فتتبع مجرى الماء حتى أنتهى بعينها، عندها نهض بنصف جسده العلوي وأدار جسدها ليشاهد ما لم يتوقعه، ماري الجميلة والمرحة قد غرقت عيناها بالدمع واحمرت بشرة وجهها من شدة التوتر، فقال معتذرا:

ليتني مت قبل هذا ولم أرى عينيك باكية.

وضعت يدها على فمه وقالت:

- لا أرجوك، إياك والدعاء على روحي.

- شتان بين من يمسح دمعنا وبين من يجعلنا نبكي، فأنت النوع الأول وأنا النوع الثاني.

- قد تغيرت كثيرا هذه الأيام يا حبيبي وما عدت كسابق عهدك؟ أرجوك أبعد الأفكار السلبية عن تفكيرك.

- سأبعد أي أفكار تزعجك.

- المهم أن لا تزعجك أنتَ، فأنتَ صغيري الذي أحب.

- هل عدتِ للتدخين؟

- لا طبعا.. فقط احتجت أن اعبر لك عن مدى استيائي من جهة

وأن أهرب إليها من ظلمك لي وأهانتك لاحترامي من جهة أخرى.

- ما اقسى تصريفٍ وما أغباني.

الجنة الحقيقية...
أن تكون لك زوجة صالحة

كان الصباح مختلفا تماما عما انتهت عليه أحداث الأمس حيث علا الضحك والمزاح وعادت الاجواء السعيدة.

رن هاتف جلال وراح يتحدث مع المتصل بحماس واهتمام وبعد أن أغلق السماعة قال:

اتصل بي صديق من العراقيين المقيمين هنا في ولاية مشكن وهو رئيس شركة صغيرة يطلب مني تقديم الدعم لمنظمة انسانية تعمل في العراق يترأسها صديق لي سبق وأن تواصلنا معه بخصوص تقديم التبرعات له من أجل بعض البرامج التوعوية للشباب والدورات التأهيلية وتغطية بعض من تلك النفقات، هو الآن يملك خيمة اعتصام في ساحة التحرير وقد أتفق مجموعة من العراقيين المتواجدين هنا في ولاية مشكن بدعمه ليستمر اعتصامه.

فتح خالد عينيه فرحا:

هذا تصرف عظيم من العراقيين اللذين في الخارج، على الأقل نكون نحن مساهمين بشيء في دعم الانتفاضة الشعبية، افرحتني جدا.

فجأة تذكر ما وعد زوجته به أمس من عدم التطرق لهذا الموضوع، فنظر إليها فردت عليه بابتسامة جميلة وكأنها تقول... أنها لا تمانع التبرع، عندها نهض وقبلها من فمها قبلة حماسية وقوية وتوجه لعمله،

أما جلال فقد نظر إليها وقال بصوت يوحي بالإعجاب:

ها قد فعلتُ ما طلبته مني تماما وبحثت عن من نعطيه تبرعات ولكن من حقي عليك الآن أن أعرف المغزى من ذلك؟

ماري:

أريد لضمير زوجي أن يرتاح فهو يشعر بالتقصير لأنه أنسان مخلص ووطني وكي أخرجه من حالة التوتر أخبرتك أن تجد من نرسل له تبرعات كي يهدأ حماسه

اقترب جلال وقبلها من رأسها وقال:

ما أرق قلبك وأكثر اهتمامك به، أنت نعمة من السماء حفظكما الله من عيون الحساد.

وأشار بيده لزوجته ليال وأكمل:

وأول الحساد زوجتي اللبنانية الجميلة.

حملت ليال ملعقة الغرف الكبيرة وراحت تركض خلفه وهو يركض أمامها ويلوح لماري بيده مودعا.

عند الثانية ظهرا دخل جلال مكتب خالد ليجده يجري الكثير من الاتصالات وما أن أنهى أخر أتصال حتى سأله ممازحا:

من الصباح وأنت لا تتوقف عن الكلام في الهاتف، وأنت تعرف أننا مقبلين على عطلة رأس السنة الميلادية، فما سر هذا النشاط؟ إن كنت تغازل أحداهن سأقتلك بيدي.

خالد:

وهل تعرف عني أني زير نساء؟ فماري اختزلت كل نساء الكون في

امرأة واحدة.

جلال:

بهذه أتفق معك جدا، أخبرني إذا ما سر هذا النشاط الغريب؟

خالد:

كنت أجري اتصالات بمن أعرف لجمع المال لصديقك.

أرجع جلال رأسه تعجبا:

أي مالٍ وأي صديق؟

خالد:

المال لدعم التظاهرات في العراق، والصديق هو صاحب المنظمة الانسانية، لكن كل ن أتصل بهم يطلبون أسم ذلك الشخص وأشعر بالحرج لعدم معرفته، لكن الجميع تبرع احتراما لنا ولسمعة شركتنا في السوق حتى أني جمعت مبلغا كبيرا جدا.

أحس جلال بحجم المطب الذي أوقع نفسه فيه فبدا عليه التلعثم ولكنه راح يكرر كلمة نعم... نعم دون الافصاح عن أسم الرجل.

إياكم والكذب على من تحبون...
حتى كلمة أحبك الصادقة ستكون محل شك

في المساء كان خالد في قمة النشاط وهو يتحرك في أرجاء المنزل الكبير وهو يتكلم عبر الهاتف دون توقف ماشيا على رجليه وعيون الثلاثة تراقبه وفجأة وضع يده على سماعة الهاتف النقال وتوجه بالحديث إلى جلال وقال:

يا رجل أعطنا حساب أو أي عنوان لصاحبك فالكل يسأل عنه حتى يطمئنوا لمن يتبرعون بأموالهم.

تسمر هو بمكانه رافعا نظره إلى صاحبه دون كلام، فهز خالد يديه غاضبا وعاد يكمل حديثه مع الشخص على الهاتف في الجهة المقابلة.

عاد بعدها يسأل جلال غاضبا:

لم تخفي أسم الرجل؟ منذ الصباح وأنا أسألك فتتهرب مني، قلي ما بك؟

تدخلت ليال وقالت كمن تذكر شيئا فجأة:

هو يخاف عليه من المتابعة من قبل احزاب السلطة في بغداد.

أشر بأصبعه وقال بحماس:

معك حق يا صديقي كم أنا غبي حتى أفصح بإسمه للجميع.

وراح يتصفح حساب (الواتس اب) تاركا الثلاثة في حالة غريبة، حتى إذا أبتعد التفت جلال محدثا ماري أي موقف محرج هذا الذي أنا فيه، من أين سأجد أسم مسئول عن منظمة إنسانية تعمل في العراق.

ليال:

هناك الآلاف منها في بغداد أختر واحدة وخلص نفسك وخلصنا معك.

جلال:

هذا ما فكرنا به نحن الثلاثة عندما طرحنا الأمر على هذا المجنون حتى الصباح، لكن بعد أن راح يجمع المال أصبح حلا مستحيلا.

ماري:

لما أصبح مستحيلا؟

جلال:

كل من تبرع كان يتبرع اعتمادا على سمعة شركتنا على أمل أن يعرف أسم الجهة المتبرع لها بعد حين، وإن أخترنا أي منظمة ربما ستكون ذات سمعة سيئة وما أكثرهن في بغداد فالكثير منهن تمارس النصب من أجل جمع تبرعات ولا تنفقها في مشاريع حقيقية فسيعود علينا بكارثة تنهي سمعتنا هنا في السوق.

ليال:

وما الحل برأيك الآن

جلال:

علينا أن نصارح خالد بالحقيقية حتى لا يورط نفسه ويورطنا أكثر.

ماري:

مستحيل... لن يثق بنا بعد الآن، يا إلاهي طوال معرفتي به لم أكذب عليه، كيف أوقعت نفسي وأوقعتكم بهذا الوضع السخيف.

في هذه الأثناء جاء خالد وجلس بجانب زوجته وأرجع رأسه إلى الخلف فرحا وراح يزفر الهواء الذي في صدره كمن يرتاح من إزاحة هم ثقيل كان يجثم على صدره وقال:

لا أعرف كم ستكون الحياة صعبة دونكم أحبتي.

راح جلال وماري يتبادلان النظرات بينما أخفضت ليال وجهها للأسفل مما اثار استغرابه فأستقام بجلسته وقال بصوت كله شك:

ما الذي يجري لكم، كأن مصيبة على وشك الحدوث.

طال صمت الجميع مع خفض رؤوسهم فأكمل قائلا:

على ما يبدو أن المصيبة قد حدثت بالفعل، فأوقفوا نزف الخوف الذي أعاني منه بسبب صمتكم وأخبروني ما حدث.

بعض الأشياء أذا انكسرت لا يمكن اصلاحها... فشقوق القلب لا ترمم

أنسل إلى داخل فراشه بهدوء وكطفل أصابته الخيبة جمع رجليه وسحبهما وغطى رأسه بيديه وحاول أن لا يفكر بما جرى لكن دون جدوى فقد كان وقع ما حصل عليه من صدمة كسقوط جبل من فوق سبع سموات عليه.

دخلت بعدها ماري بثلاث ساعات منذ أن أخبروه بالحقيقة الصادمة، فهي تعرف أن قلبه الطيب سيهدئ بعد ساعات فلم تسمح لجلال باللحاق به كي يعتذر من صديقه، وقالت له ممسكة بيده:

أمنحه بعض الوقت كي يستعيد توازنه وبعدها سيكون كل شيء على ما يرام.

جلست عند رأسه وهي تعطيه ظهرها وراحت تتكأ بكوعيها على ركبتيها وقالت:

عليك أن تكون متأكدا إن ما فعلناه كي نريح ضميرك أتجاه اولائك الشباب المتظاهرين، وسنعمل مع بعض مثل كل مرة لنصلح الأمر.

خالد وبصوت هادئ:

بعض الأشياء أذا انكسرت لا يمكن اصلاحها فشقوق القلب لا ترمم.

نطقت بعد صمت للحظات تثبت فيها صحة مقاله:

عندما تكذب الأم على طفلها وتدعي أن الدواء الضروري لعلاجه هو نوع من الحلويات فهي لا تكرهه ولا تنوي خداعه، وعندما يعد الأب طفله بشراء لعبة وهو يعلم أنه غير قادر على ذلك فهو لا ينصب عليه، نكذب أحيانا لنسعد من نحب.

انتظرت ردا دون فائدة فاستقامت بظهرها وهي تهم بالوقوف:

معك حق ما كان ينبغي علي التصرف هكذا.

إياك أن تفعل ذلك ... لأني سأموت بعد رحيلك

في المطبخ الجميل والواسع جلست ماري واضعة رأسها بين يديها تحاول إيجاد حلٍ لما وقعوا به من مشكلة، بينما راح جلال يخبر ماري عن استمرار زوجها في الاتصالات بأصدقاءٍ له لجمع مبالغ للمتظاهرين في بغداد طوال اليوم، عندها أخرجت رأسها من سجن يديها وقالت له:

ربما سيجد من يحول المال له، لم يعد الأمر يهمني، ما يهمني هو عودة صغيري إلي فمنذ أربع وعشرين ساعة أشعر كأني خسرت الدنيا كلها.

دون شعور راحت تبكي بحرقة شديدة مما جعل ليال تنهض من مكانها وتتوجه إليها وتحتضن رأسها وهي جالسة فازدادت بكاء وحرقة وهي تقول:

أقسمت عليك هل تناول الغداء في الشركة؟

هز جلال رأسه بقول لا

ماري:

سأموت قهرا فهو لم يتناول فطوره معنا ولا العشاء ربما سيصاب بهبوط السكر الحاد.

ابعدت ليال عنها وراحت تتجه صوب غرفة المكتب وفتحت الباب لتجده يبكي على أحد المشاهد التي توثق قتل الشباب والاعتداء عليهم في ساحة الحبوبي في الناصرية، وهو يفرك يديه بقوة ويقول:

قتلة... تبا لكم أنتم قتلة، أليس بقلوبكم رحمة.

اتجهت أليه وجلست بين رجليه وقالت له:

وأنت أيضا قاتل مثلهم، تقتلني بصمتك وتجاهلك لي، أليس بقلبك رحمة حتى تحرمني منك لأربع وعشرين ساعة.

أشاح بوجهه عنها فنهضت على ركبتيها وامسكت بكلنا يديها رأسه ووضعت عينيها بعينيه وقالت:

لا أطلب منك أن تسامحني، بل أطلب منك أن تأكل شيئا إكراما لي ولتلك السنوات التي جمعتنا معا.

في هذه اللحظة رن جرس الهاتف وما أن قرأ جهة الاتصال حتى رد عليه وهو يحاول أن يخفي مشاعره المنكسرة:

هل حجزت التذاكر؟.... أحسنت صنعا.

أغلق الهاتف ورماه قريبا منه واتكأ على رأس الأريكة، أما هي فقد قاربت على الجنون وهي تسأله:

أي تذاكر تلك التي تتحدث عنها مع ذلك الشخص؟

لم تنتظر صمته للحظات فوقفت على قدميها وهو جالس تحتها وصارت تتكلم بصوت عالي لدرجة أن جلال وليال سمعوها فأسرعوا باتجاههم:

أخبرني بما تنوي فعله وأي تذاكر قطعتها،

وهو صامت لا يتكلم، فتدخل جلال قائلا بينما احتضنتها ليال مهدئة:

أخبرنا أرجوك بما تنوي فعله؟ أولسنا جميعا أخوة؟

أصيبت ماري بنوبة من العصبية لم يسبق أن مرت بها خلال التسع سنوات الماضية وراحت تتكلم بطريقة الشجار:

أخبرني الآن على ما تنوي؟ منذ أصبحنا زوجين ما عدت حرا بالتصرف بنفسك.

نهض عندها خالد يهم بالمغادرة فوقف أمامه جلال وقال بنوع من

التشنج:

قد اعترفنا جميعا بما أقدمنا عليه من خطأ ولم نكذب عليك بأمر يسيء لك أو يضرك، لذا عليك أن تنهي هذه القضية الآن فقد أَخَذَت هذه المشكلة حجما لا يتناسب مع ما تستحق.

خرج خالد من صمته وعاد إلى الأريكة وقال بهدوء:

أنا لا أحمل ضدكم أي ضغينة، إذ يكفي أنكم أصحاب الفكرة الرائعة التي عزمت على تنفيذها، سأسافر إلى العراق بعد غد وسأعمل على إيصال المبلغ وتوزيعه لمن يحتاجه من المتظاهرين وأدعمهم بنفسي.

عادت ماري للهياج ثانية وهي ترتعش حيث تقافز الدمع من عينيها والكلمات من فمها معا:

أي سفر وأي عراق؟ هل أصابك الجنون؟ كيف ترجع لأرض ضربتك وأهانتك، ولأناس حاولوا قتلك مرات عدة أقسم بالرب لن أسمح لك أن تقدم على الانتحار ثانية.

تدخل جلال:

أخي سأجد من يستلم المبلغ في العراق ويقوم بالدعم وأبقى أنت مع زوجتك وطفلكما القادم.

خالد:

ليس القضية قضية مال أرجوك أفهمني... الشباب العراقي يحارب ليستعيد وطنه.

ردت ماري بحرقة وصوت عالي أقرب للشجار:

وما ستفعله أنت مع الشباب، لا تنسى نفسك أيها الشيخ العجوز فأنت في الخامسة والخمسين من العمر.

راحت تشير للتلفاز الذي يعرض صورا للشباب وهم يركضون متجنبين الرصاص وقنابل الغاز وآخرين يحملون أحد المصابين بطلق ناري وقالت والدموع تملا وجهها لا عينيها فقط وتحول وجهها لبركان من الاحمرار:

أتعتقد أنها نزهة تذهب لتلتقط بعض الصور التي تجعل منك بطلا؟ أقسمت عليك بالرب أن تنظر ما يجري هناك، قتل بلا رحمة، كيف ستتحمل ما يجري هناك؟

نهض وقال بغضب وهو يصرخ:

ترين من الصورة ما يعجبك وتتركين ما لا يعجبك، ها قد بلغت الخامسة والخمسين من العمر وتطلبين مني أن أقف مكتوف اليدين بينما يحارب أطفال في العاشرة من العمر بأجساد عارية بنادق سلطة غاشمة، كيف سأعتبر نفسي رجلا بعد اليوم وأنا أقف مكتوف اليدين أمام كل هذه الجرائم.

ماري:

عن أي رجولة تتكلم؟ أنسيت عجزك عن حماية نفسك في العراق فكيف ستحمي غيرك.

خالد:

سأسافر بعد غد ولن تمنعني أي قوة.

هم بالخروج فلحقت به ماري تحتضنه من الخلف وقد تحولت للتوسل:

أولست أمك أختك وزوجتك أم نسيت؟ أولست أحمل في أحشائي طفلك الذي انتظرته عمرا؟ أرجوك أتوسل إليك تبرع لهم بكل ما نملك لكن لا تذهب للعراق، فلا حياة لي بعدك إن حصل لك مكروه فأنت كل عائلتي.

تلك الشفاه الوردية بلا ذنب سوى...
أنها تحمل آثار شفاهه عليها

أرتقى سلم الطائرة وهو يبحث بنظره عن ماري لكن دون جدوى فقد توقع ظهورها في اللحظة الأخيرة، بينما وقف جلال وزوجته يودعانه، مع ذلك كان يأمل أن يراها قبل المغادرة، فقد حُرِمَ من حضنها الدافئ منذ ثلاثة أيام، رغم ذلك كان يشعر بها قريبة منه دون أن يراها.

كان حدسه صحيح فقد كانت تختفي عنه، وبنفس الوقت تختلس النظر إليه والنار تشتعل فيها كحرائق الصيف في غابات أمريكا التي لا تبقي ولا تذر، غادر وعينيها الزرقاوتين تعلنان الحداد وتلك الشفاه الوردية تنال من أسنانها عقوبة العض الشديد بلا ذنب سوى أنها تحمل آثار شفاهه عليها.

احتضنت ليال ماري بينما راحت تتكأ على جلال لصعوبة ما تحمل من ألم لذلك الشرقي فقد أثقل كاهلها بحمل حبه المجنون له، بينما راح يصبرها ويقول:

سيكون كل شيء بخير كوني واثقة.

ماري وهي بالكاد تتكلم وكأنها يغمى عليها من شدة الحزن:

غادرت روحي معه يا جلال، ما أنا إلا جثة بلا قبر.

بغداد...
عاصمة الحب رغم كل الخراب

كان النزول في مطار بغداد عاملا اضافيا لدقات القلب الذي راح ينبض بسرعة متزايدة متجاوزا الحد الطبيعي، فقد تدفق أنزيم الأدرنالين بقوة تتناسب مع حجم المشاعر المختلطة التي أعترت روحه، فبين الغضب الشديد ممن قتل المتظاهرين وبين الخوف من العراق وما علق بذاكرته من أحداث مرعبة.

أستأجر سيارة أجرة من ساحة عباس أبن فرناس وحين سأله السائق عن وجهته رد عليه:

أقرب مكان يحتوي على فندق خمسة نجوم قريب من ساحة التحرير،

توجهت سيارة الأجرة لساحة الفردوس المتفرع منها شارع السعدون الذي تكون نهايته في خاصرة ساحة التحرير مباشرة، مما يتيح له أمكانية التحرك مشيا على الاقدام دون الحاجة لسيارة إذ يتم قطع الطرق أحيانا لمنع المتظاهرين من الوصول للساحة.

توقفت السيارة في ساحة الفردوس وقال السائق:

عليك أن تختار بين الفلسطين مريديان أو عشتار شيراتون فكلاهما أفضل فنادق بغداد.

بعد أن دخل غرفته حوالي الساعة الثامنة مساءا وقبل كل شيء أتصل عبر (الواتس أب) بماري لكن دون جواب فعاود الاتصال بجلال الذي أجابه فورا رغم أن الموعد يقارب الفجر هناك في (مشكن) مما يدل على عدم النوم من شدة قلقهم عليه، وكان أول سؤاله عن ماري لأنها لم تجب على اتصاله عليها، فأجابه جلال:

أنها بخير والحمد لله.

طلب منه أن يكلمها لكنها رفضت ذلك مع أنها كانت تنظر إليه عبر الشاشة الخاصة بالهاتف من زاوية لا تسمح له هو برؤيتها فأعتذر جلال بدلا عنها وقال له:

أنها ممتعضة بعض الشيء وعليه أن ينهي زيارته بأسرع وقت كما وعدهم وأن يعود لهم سالم معافى ليقوم بمصالحتها بنفسه وستعود حياتهما الأجمل مثلما كانت.

قطع الاتصال الفديوي وكله أمل برؤية وجه ماري فقد كان بحاجة لدعمها المتواصل له، حاول النوم قليلا لكنه لم يستطع رغم التعب الشديد جراء السفر الطويل إذ تجاوزت رحلته الأربعة عشر ساعة.

أخذ حمام وغير ملابسه وأتجه لساحة التحرير حيث كانت المفاجئة.

أول عوامل النصر...أن تثق بالنصر بداخلك

كانت الجموع الزاحفة تزداد كلما أقترب أكثر من ساحة التحرير كنهر له روافد كثير حيث يتوافد المعتصمون والمتظاهرون من الأزقة والشوارع لتجتمع بثلاثة شوارع (السعدون) وهو الممتد من ساحة الفردوس باتجاه التحرير، والشارع الممتد من جسر محمد القاسم لغاية ساحة التحرير، والشارع الواصل بين ساحة الوثبة لساحة التحرير مرورا بساحة الخلاني التي سيطر عليها المتظاهرون،

المفاجأة كانت هي برجال الشرطة والجيش والمرور اللذين كانوا عونا لإخوتهم وأبنائهم، بل أن البعض راح يوزع الكمامات للسائرين كي يستعينوا بها على الغاز المسيل للدموع والفلفل الحار، ليشكلوا بذلك التكاتف لوحة جميلة الملامح لشعب يريد الحياة.

كانت الذروة عند ساحة التحرير حتى تحول النفق إلى كرنفال من الفرح والسعادة التلقائية بشعور التحرر من تبعية المواطن التواق لشم نسيم الحرية، حيث صارت أمواج المتظاهرين تسير كمسيرات سعادة غامرة وقد علت أصوات الاغاني الوطنية التي تتغنى بالثورة عبر مكبرات الصوت والاهازيج الشعبية التي تولد من رحمها بكل دقيقة.

وهو يسير يستوقفه الشباب حاملين أصناف الحلويات والعصائر بل وتعدى الأمر لصحون من الرز والمرق العراقي اللذيذ، إذ أخذ أحد الصحون وراح يتلذذ بطعمه الذي يذكره بطبيخ أمه الذي لم يتذوقه منذ ما يقارب الثلاثين عاما.

صار الخوف عنده يختفي تدريجيا مع رؤية النصر في عيون الشباب بل وحتى الأطفال والشيوخ، لكن أكثر ما أثار دهشته في مسلسل الدهشة المتوالي، هو أن النساء والفتيات الشابات يتواجدن في منطقة كان من المستحيل أن يتواجدن فيها صباحا فما بالك في الليل، وهن يسيرن وسط جموع الشباب ومن مختلف الثقافات والاتجاهات دون أن يتحرش فيهن أحد، رغم أن نصفهم من في سن المراهقة وسافرات.

لاحظ طلوع الشمس دون أن يشعر بمضي الوقت، وقرر الذهاب للراحة والاغتسال ومن ثم والعودة فيما بعد فقد بدا عليه التعب فأستوقفه شاب قارب على العشرين وقال له:

تفضل يا عم خذ قسطا من الراحة هنا في خيمتنا فقد بدا عليك التعب.

وقبل أن يرد عليه أسره الشاب وأقتاده من يده ليدخله خيمته مع أصحابه اللذين كان بعضهم ينام والآخر يتبادل النكات.

نهض الشباب مرحبين ووسعوا له مكان بينهم، وقدموا له مختلف أنواع الفاكهة والطعام والمشروبات الساخنة والباردة وكان يرفض فقد امتلأت بطنه من كل شيء وهو يضحك فقال لهم:

أنا كنت أشاهد التلفاز كل يوم وأبكي على المشاهد التي تنقلها الفضائيات العالمية وتصورت أن حالكم يرثى له، وها أنا لا أصدق ما أرى.

فسأله أحد الشباب:

وما ترى يا عم؟

أجابه خالد والابتسامة تملأ جل وجهه:

أفراح بالنصر تغطي أحزان الموت، وكرم العطاء يغطي على الحاجة والعوز.

تكلم الشاب الوسيم الذي دعاه للخيمة سائلا إياه:

تتكلم وكأنك لست من العراق ولا تعرف أهله وطيبتهم وكرم موائدهم.

خالد:

أنا من العراق وتحملت ما لم يتحمل منه أحدٍ من أبنائه وظُلمت من جميع من مر به، وقصتي معه إن قصصتها لكم لن تصدقوها، حتى عام ٢٠١٠ سافرت لأمريكا مهاجرا والحمد لله أنا مستقر هناك الآن وأملك مع زوجتي وشريكي العراقي شركة نقل يعمل بها العشرات من الموظفين والميكانيكيين وسائقي مختلف السيارات من الصغيرة حتى الشاحنات الكبيرة.

قال الشاب الذي دعاه:

وما سبب مجيئك للعراق وسط هذه الأوضاع السيئة، أليس كان من الأفضل أن تأجلها حتى نطيح بحكومة السراق لترى العراق ملونا بالنصر كما هو ملون بالحب.

خالد:

- ما أسمك يا بني؟

- أسمي زيد وأنا طالب في الجامعة التكنولوجية وهؤلاء رفاقي في الدراسة وهذه خيمة جامعتنا وأسميناها خيمة وطن، حيث تستقبل الجميع ومن كل أبناء الوطن.

راح خالد يتأمل تلك الوجوه الجميلة والفتية واحد واحد وقال:

وهل هناك أنسب من هذا التوقيت، جئت عابرا محيطا هو الأكبر وبحرا هو الأوسع كي أقدم المساعدة لأبنائي وأخوتي حاملا معي مبلغ كبير سأعطيكم منه عندما يصل لي من أمريكا.

أنفجر الجميع ضاحكين بسخرية وسط استغرابه فقد تصور أنهم سيهتفون فرحا بخبر كهذا مما دعاهم للسؤال عن سبب الضحك؟

زيد:

يا أستاذ... آخر ما نحتاجه هنا المال فكل ما تراه هنا هو بفضل تبرعات الناس لأبنائهم المتظاهرين، كي ينتصروا ويديموا زخم التظاهرات، تخيل بمنشور واحد على وسائل التواصل الاجتماعي قال فيه أحد الأبطال أنه يشعر بالبرد وهو على (جبل أُحد) في نفس الليلة توافد الجميع يحملون البطانيات والمفارش والأغطية بمختلف أنواعها واستمرت قوافل المتبرعين حتى وصلت الأغطية بالآلاف.

هنا قاطعه خالد مستفسرا:

(جبل أُحد)؟ لم أعرف مكانا في بغداد من قبل بهذا الاسم.

ضحك من في الغرفة وقال أحدهم:

(جبل أُحد) هو بناية المطعم التركي المتروكة والمهملة منذ سنوات، قام بتحويلها الشباب لمقر للصمود فقد أستقر القناصين في أول أيام الثورة وقاموا بقنص الكثيرين من الأبرياء، فقررنا أن لا نمنحهم هذه الميزة ثانية وقد سيطرنا أيضا على بناية (كراج السنك) أيضا ولنفس السبب.

قال خالد وهو كمن حصل على فكرة جيدة لأنفاق المال:

أذن سأشتري بالمال طعاما لكم وأرزاقا جافة.

عندها رد أحد الشباب:

والطعام أكثر وفرة من الأغطية وها أنت ترى بعينك حجم ما في الخيمة من طعام.

أستأذن منهم وخرج ومعه زيد يودعه عندها سأله:

أين تسكن يا أستاذ ألك أقارب تنزل عندهم كضيف خلال مدة بقائك في العراق؟

خالد:

كلا إنما أسكن الفندق.

زيد وكله حماس:

هناك خمسمائة خيمة هنا في التحرير وكل واحدة لا تنقص أختها في الكرم، وكل خيمة بمن فيها يتمنون تقديم الخدمة لشباب المحافظات لأنهم ضيوف وأنصار لهم، وأنت قادم من أمريكا وتبات في الفندق؟ أي كلام هذا؟ سأسمح لك بالذهاب اليوم فقط كي تحضر حقيبتك فقط ومن الغد ستكون ضيفينا.

ضحك خالد وقال:

كم أنا فخور بكم يا ولدي، تتكلمون بثقة كان يفتقدها جيلي وجيل من بعدي، وكأنكم المعلمين ونحن تلامذتكم فأي نصر هذا الذي نعيشه الآن.

أفراح النصر تغطي أحزان الموت

ما إن دخل الفندق حتى صارت رنات الواتس آب تأتي تباعا كسرب من الحمام الزاجل المحمل بالرسائل، ففتحها وإذا بها كلها من جلال بين اتصال وبين رسائل تطلب منه التواصل معهم فورا، فأنتابه القلق فأتصل فورا كي يعرف ما حصل، فرد عليه جلال بقلق بالغ وهو يصرخ بوجهه:

- أين كنت بالله عليك؟

- في ساحة التحرير.

- وما تفعل هناك باكرا الساعة الآن قاربت الثامنة صباحا بتوقيت بغداد فهل يعقل أنك زرتها الفجر؟

- بل كنت فيها منذ الأمس.

عند ذلك فقدت ماري أعصابها وأخذت الهاتف من جلال وقالت:

- أتريد الانتحار تقضي ليلتك وسط الموت والقتل والظلم والدخان المسيل للدموع؟

- بل وجدت النصر الحقيقي في شباب لم يتجاوزوا سن العشرين يستقبلون الطغاة بسلاح ضحكاتهم.

- كلامك يستفزني ويجعلني أجن.

- أقسم أن الأمر غير ما يصلنا فهنا النساء والاطفال والشرطة والجيش يحمون المتظاهرين من رجال الأحزاب ومليشياتهم.

- متى ستعود

- كوني مطمئنة ولا تقلقي أرجوك.

- متى ستعود ولا تراوغ.

- سأحاول أن أعود قريبا.

- اليوم هو الأثنين عليك إنهاء عملك وإيجاد شخصا يقوم باستلام المبلغ والعودة فورا، إن لم تكن هنا في الخميس أقسم أنك لن تراني مجددا.

عندها أعادت الهاتف لجلال الذي كرر جزءا من كلامها:

- جد الرجل المناسب وسأرسل لك المبلغ فورا وعد أرجوك فالوضع ينذر بكارثة.

- هذه مهمة صعبة.

- وما الصعوبة فيها؟ هناك ألف من يتمنى مئة دولار فما بالك بمليون دولار.

- كنت قبل قليل أعرض جزءا منه على طلاب احدى الجامعات وكانوا يضحكون ساخرين من عرضي عليهم بل عرضوا هم علي أن ابات عندهم في خيمتهم المنصوبة في التحرير.

- أنت تتكلم بكلام غير منطقي، العراق بلدي كما هو بلدك وكلانا يعرف حاجتهم للمال فقد وصلت نسبة من يعيشون تحت خط الفقر فيه لـ(٦٠٪) فكيف يرفضوا مبلغا كبيرا.

- لن تعرف العراق الحقيقي حتى تزور التحرير فهو المدينة الفاضلة التي تحدث عنها افلاطون، تخيل بائعة مناديل، توزع كل رأس مالها الموجود في علب المناديل على الشباب كي يحمون أنوفهم من الغاز المسيل للدموع، وتلك سيدة لا تملك غير الخبز وبعض الخضار توزعها

على الشباب كطعام وهي تسكن بيتا في حي من العشوائيات، فما بالك بالتجار الوطنيون والميسورين حالا، يا أخي كل شيء بلا مال حتى أنك لا تمد يدك في جيبك ابدا.

- وما سنعمل بالمال الذي جمعناه هنا؟

- نعيده لإصحابه فمن بساحة التحرير لا يحتاجون مالا من أحد.

- عليك العودة يا أخي فزوجتك ستجن عليك، فأرحم حال تلك المسكينة.

- أنا الآن مطمئن على مصير البلد ما دام هذا الجيل تجاوز عقدة خوفنا من الحاكم، أعدك أني سأكون الخميس في الطائرة المتوجهة لأمريكا وسأحجز من الآن إكراما لها ولك فقط ارجوا منكما الاعتناء بها حتى أعود.

فرق بين...
أن تعطي الوطن وأنت مقيد
وبين أن...
تعطي الوطن وأنت حر

بعد نوم طويل لساعات استفاق عند الثالثة عصرا فأسرع حاملا حقيبته الصغيرة وأتجه من فوره إلى ساحة التحرير مشيا على الأقدام وهو يلاحظ ازدياد الناس فالشمس مشرقة، وأمس كانت زيارته ليلا، تغير المنظر تماما إذ أن للضوء نداء للجماهير الناقمة على ثلة من السراق يسمون أنفسهم (سياسيين).

الميزة الرائعة هي المشاركة الكبيرة للمرأة مع أخوتها الشباب، متناسين أنهم ذكورا واناث وما عادت ذاكرتهم تحمل غير العراق أسما ومعنى وانتماء، حتى خُلقوا خلقاً جديد، بعيدا عن شهوات الجسد الحيوانية، وارتفعوا حتى صاروا ملائكة حقيقين، فالكل أخوة في النضال ضد القتلة والسراق، حيث امتزجت ألوان العلم العراقي مع الصوت الهادر لهتاف الثوار (بالروح... بالدم... نفديك يا عراق) ليُحي ذلك الهتاف شعبا من رقاد الصمت نافضا غبار الصبر في وجه الطغيان ثورة بدأها شباب جيل لا يعرف الخوف، ثورة لن تنتهي لأنها ثورة وعي بالحقوق وانتقاما لكرامة أهينت عقودا طوال.

شعر بزهو عجيب وهو يخترق المجاميع الهاتفة ويصيح معهم بصوت

عالي (بالروح بالدم نفديك يا عراق)، كمتزلجي الأمواج يخترقها من البداية ويخرج من نهايتها، ومع كل اختراق كان يولد من جديد، بلا خوف يعتصر روحه أو رعب يجعله يتلفت حتى كان يصرخ وهو رافعا رأسه للسماء بحجم حاجته لتلك الحرية في أن يصرخ على أرض العراق،

وصل لخيمة وطن فوجد زيد واقفا في باب الخيمة مع مجموعة من الشباب منشغلين بعمل شيء فسلم عليهم فصرخ زيد:

سيكون الاستاذ أول من يجرب هذا العمل الجميل.

راح يبتسم وسأل الجميع ما هذا العمل ؟ما أراه هو خارطة العراق العظيم وفيها نهريه الخالدين دجلة والفرات.

زيد:

هو أكثر من خارطة يا أستاذ، نعم كما وصفته خارطة على شكل العراق وفيها نهران يلتقيان أخيرا في شط العرب وهذان النهران عبارة عن مساران مائيان حقيقيان، ولتشرب الماء عليك أن تعلن ولائك للعراق حتى تستق مائه المبارك.

ضحك خالد وقال بصوت يملؤه الفضول:

وكيف أعلن ولائي أمام جهازكم الرائع؟

قدم زيد قدح من الزجاج وقال له:

ضعه عند نهاية شط العرب وقل (ولائي للعراق) بصوت عال.

فعل خالد ما علموه إياه وقال (ولائي للعراق) فتدفق الماء من شط العرب ليملأ كأسه بالماء وسط تهليل وصراخ الشباب لنجاح التجربة

وأنفجر الجميع يردد شعار الثورة

(بالروح بالدم نفديك يا عراق).

صار زيد دليله في ساحة التحرير فهو يعرفه على الخيم وشبابها الأبطال وسط فرحه الشديد بما يرى من روح وطنية ونصرٍ يتألق في عيون الشباب، وبينما جلسا على أحد الأرصفة وهما يأكلان (لفة الفلافل) كما يسمونها في العراق وعلبة من الكولا وبعدما أنهيا ذلك اسرع زيد بكوبين من الشاي الحار وكل ذلك مجاني ببركة العراق والتحرير، حينها راح يفكر خالد بصوت عال:

ترى ما الذي يجبر ذلك الشاب على أن يوزع الشاي من الصباح حتى المساء دون توقف، وهو ينفق من ماله وصحته دون مقابل.

زيد:

- الوطنية.

- كنا نحمل الوطنية، لكن ما يحصل غريب.

- فرق بين أن تعطي وأنت مقيد بين أن تعطي الوطن وأنت فرح مستبشر.

- متى تذهب لبيتك، ألا ترتاح قليلا.

ضحك زيد وقال:

- عنواني الحالي مع أخوتي هنا في التحرير أما أمي فلم أرها منذ أكثر من شهرين وهي غاضبة علي جدا.

- ولما تغضب أمك يا ولدي، أذهب وتعال في الغد.

- أمي في أقصى شمال العراق في محافظة دهوك الجميلة فأنا كردي الهوية عراقي الانتماء.

خالد:

أنتم الشباب تصيبونني بالدهشة، من دهوك وثائر في بغداد! أي زمان أعيش في ساحة التحرير، فهنا كل شيء مختلف تمازج الهوية لا يتقاطع مع الانتماء، أنتم تولدون هنا أحرارا من كل ارتباط وجدتم نفسكم فيه دون تخيروا به، فها أنت تختار البقاء هنا في حر بغداد على جو دهوك الرائع، وتختار رائحة الفلفل والغازات المسيلة للدموع على هواء الجبل العليل، وتختار منظر اللون الأحمر للدماء والقتل على منظر اللون الأحمر للزهور والمراعي الخضراء، هنيئا لك يا عراق بهؤلاء الأبطال فهم من أعادوا لوجهك الجميل بياضه الناصع.

نهض خالد وقال لزيد بحماس:

أريد أن أصعد للمطعم التركي.

زيد:

ألم نقل أن أسمه الآن جبل أحد؟

ممازحا إياه:

علي التأكد من ذلك بنفسي.

بعد نصف ساعة كان الأثنين في الطابق الأخير حيث فتح خالد ذراعيه وهو يتمتع بمنظر بغداد العظيمة وهي تسترد عافيتها من جديد وكأن أبا جعفر المنصور قد بُعثَ من جديد يزيح ملامحها المدمرة ويرسم ملامحها المدورة ثانية وتموج بعطر الثورة، وراح يصرخ (عاش العراق).

بعث المنصور من جديد
يزيح ملامحها المدمرة ويرسم ملامحها المدورة ثانية.

كان الصباح جميلا حيث راحت الفتيات الجميلات والأنيقات يقمن بحملات التنظيف، فسأل خالد زيدا:

يا ولدي من هذه الفتيات الجميلات ولما يقمن بالتنظيف وجمع القمامة؟ فهن كما يظهر عليهن الرقي والثقافة.

زيد:

هن فنانات وناشطات مدنيات فتلك الجميلة (آشتي) وهي ممثلة في أشهر برنامج سياسي ساخر (ولاية بطيخ) وتلك السيدة فنانة تشكيلة، أما تلك المجموعة هن طالبات في كلية الطب وتلك دكتور تدرس الأدب في جامعة بغداد.

خالد:

نحن نعيش معجزة لم تحدث في العالم ولن تحدث أبدا.

مسكه زيد من يده وأخذ يسحبه وهو يقول له:

سأريك معجزات أخرى فقط لا تقاومني.

خالد:

لا أقاوم يا ولدي ولكني في الخامسة والخمسين وأنت لم تبلغ العشرين فتريث علي.

فتح عينيه على جمال الرسوم التي زينت النفق وما تحول إليه من

متحف للفن والرسومات بينما راح البعض يستخدم أرصفته كمكان لعرض تحفهم الفنية المتكون من خراطيش وقنابل الغاز الملقاة عليهم من قبل قوات مكافحة الشغب، محولين أدوات الموت لوسيلة فنية تعلم الحياة لمن يحبونها، لكن الحالة الأجمل والتي استوقفته كثيرا هو صعود فتاة على سلم متحرك أتكأ على جدار النفق الداخلي، وهي ترسم جدارية حيث راح الأب يمسكه بحذر كي لا تسقط أبته الطالبة في كلية الفنون الجميلة، والرجل أنسان عادي لا متحرر ولا منفتح، وهناك فتاة أخرى راحت أمها البسيطة تكرر فعلت الرجل وهي ترتدي العباءة العراقية دليل على أنها من أحد أحياء بغداد الشعبية البسيطة.

جاء يوم الأربعاء فكرر خالد طلبه للمرة العاشرة من زيد أن يزور الساتر لكنه كان يرفض بشدة خوفا عليه من الرصاص والقنابل الغازية والمطاطية ويقول له دائما (الشباب يكفون)

عند المساء كان ينهي خالد ليلته الأخيرة في خيمة وطن يتبادلون النكات والحديث فأخبر الشباب أنه سيغادر غدا العراق متوجها إلى أمريكا، وأنه تشرف بمعرفتهم جميعا وهو يتمنى أن تكون زيارته القادمة والعراق محررا من كل تلك القاذورات وعاد لأبنائه الشرفاء، قام شباب الخيمة يسلمون عليه واحدا واحد.

فجأة علا صوت صراخ في الخارج

الحرية ليست هبة
بل غنيمة حرب تنتزع من أيدي الظلمة

فتح أحد الشباب باب الخيمة وهو يقول بحماس:

لقد سيطرت مليشيات مسلحة على ساحة الخلاني وقد قاموا بقتل العديد ممن كان في كراج السنك وعلينا القيام بالهجوم المضاد لاستعادت الساحة والكراج فورا.

هرع جميع من في الخيمة يرتدون خوذهم البلاستيكية وكمماتهم، وكذلك من في الخيم الاخرى لطرد تلك الجماعة المسلحة بكل أنواع الأسلحة الخفيفة بل وحتى المتوسطة، سأل خالد زيد:

وكيف سنقوم بالهجوم المضاد ونحن لا نملك أي نوع من الأسلحة؟

زيد:

يكفي صراخنا بأسم العراق سلاحا وحبنا له درعا.

خالد:

لكن يا ولدي سيسقط منكم الكثيرين، فهم قتلة لا رحمة في قلوبهم ويحملون أسلحة قاتلة؟

توقف زيد وقال له:

الحرية ليست هبة يا أستاذ وإنما هي غنيمة حرب تُنتزعُ من أيدي الظلمة، والحرب فيها موت وتضحيات، ونحن لن نبخل في سبيل حرية البلد.

سحبه حتى أوقفه خلف أركان أحد الازقة وقال له وهو يبتسم:

عليك التوقف هنا ولا تبتعد أكثر ولا تنسى أنك في الخامسة والخمسين فالرصاص يطلق بكثافة، وعلينا أن نوصلك غدا سالما لأمريكا لتروي للجميع ما عشته في ساحة التحرير.

بعد عشر دقائق كان خالد يرمي القتلة بالحجارة وهو يهتف بهتاف الثورة،

(بالروح... بالدم ... نفديك يا عراق)

حاول الشباب ارجاعه لكن دون جدوى حتى سقط مغشيا عليه، حاول زيد رفعه وإخلائه من أرض المصادمة لكنه فوجئ بيده تتلطخ بدماء خالد.

ساحة التحرير
وطن شاسع للغرباء
اللذين ضاقت عليهم مساحة العراق الشاسعة

توقفت على الفور أربع أو خمس من عربات الـ(تك تك) وحملوا خالد وهو فاقدا للوعي وينزف دما من كتفه، ومعه زيد ومجموعة من شباب خيمة وطن.

في غضون ثوان كان في الخيمة الطبية الميدانية حيث راح الكادر الطبي المتكون من أطباء وطبيبات وطلاب كلية الطب بإجراء اسعافات أولية له لكن الطبيب المسؤول قال لزيد وهو يرتجف:

الحالة أكبر من أمكانيات خيمتنا، فالرصاصة فوق القلب مباشرة وعلينا نقله للمستشفى فورا وإلا قد يموت خلال دقائق.

خرج زيد كالمجنون يبحث عن عربة (تك تك) وما إن صرخ حتى تهافت أصحاب العربات يتسابقون فيما بينهم لنيل شرف حمل شخص يحتاج للمساعدة.

كان مسير زيد وجماعته عكس تيار الأبطال الشباب اللذين يتسابقون لنجدة زملائهم في ساحة الخلاني وكأنهم يركضون لنيل جائزة دون ابهين بالموت الرابض في مخازن أسلحة القتلة، مما يضطر للنزول كل مرة لتفريقهم وكأن الطريق صار بعد الأرض عن القمر.

راح زيد يبكي كالمجنون على شخص لم يعرفه إلا من يومين فقط، لكن ساحة التحرير وطن شاسع للغرباء اللذين ضاقت عليهم مساحة

العراق الشاسعة، حيث تجمع الشرفاء هنا من كل أنحائه رافضين كل الانتماءات الجانبية ومتمسكين بانتماء واحد هو حبهم للعراق وطموحهم لنيل حريته.

لا شيء يشغلني بالتفكير (عنك)...
إلا التفكير (بك)

كانت ليال تهز رأسها أسفاً وهي تراقب ماري سارحة مع دخان سيجارتها دون أي حديث، فقد انفصلت المسكينة عن الوجود وعن كل ما حولها وكأنها في عالم آخر، سوى تلك الساعة التي اتخذت من الجدار مسكنا دائما لها لا تبرحه، وحبست معها ماري كإقامة جبرية وهي تحسب الساعات لعودة حبيبها ورجلها الذي لم تعرف بعده رجلا أبدا، ذلك الشرقي الطيب والخجول والطفل البريء.

حاولت ليال اخراجها من صمتها عدة مرات لكن المسكينة لم تفتح فمها أبدا إلا لإدخال عقب سيجارتها المحترقة ببطء مع احتراق الانتظار، فقررت أن تتبع المقولة القديمة (وداوها بالتي كانت هي الداء) لذلك سألتها:

أني لأعجب على مقدار الحب الذي جمعكما، لكن للأسف لحد الآن لم أعرف اللقاء الأول الذي كان بذرة هذا الحب الأسطوري العظيم؟

دون شعور أدارت ماري وجهها باتجاه صديقتها فلا شيء يشغلها بالتفكير عنه إلا التفكير به هو فقط. فردت عليها:

في موقف القطار... نعم كنت عائدة من العمل وهو جلس ممسكا بكتابٍ يقرأ فيه وكانت جميع المقاعد مشغولة، بعد حين انتبه لي وأنا أستبدل رجلي بالتناوب على حمل جسدي وأحركها من شدة التعب، رغم أني لم أكن قريبة منه لكنه نهض بطوله الفارع بكل أدب وطلب

مني الجلوس في مكانه، بصراحة رفضت فورا لأنه تصرف غير وارد هنا في أمريكا فالكل يعش حالة من الأنانية المفرطة حتى مع بيته وأولاده، ابتعد عني وعاد يقف فوق الكرسي الشاغر دون أن يجلس عليه، لأن سيدة عجوز اقتربت في تلك اللحظة وأجلسها مكانه وعاد للاندماج بكتابه، غادر عدد من الجلوس لوصول قطارهم، ليفسح لنا القدر أن نجلس جنب بعض ورحت أسترق النظر لما يقرأ فإذا به ديوان شعري، كانت كلماته تدخل القلب دون استاذان، كالمسحورة رحت أبحر معه في سيل مفرداته الجميلة وروحه المحبة، فجأة نهض الشاب من مكانه ليركب قاطرته ليخرجني من حالة السمو الوجداني التي عشتها مع الكتاب وكلماته، دون شعور لحقته وأنا أقرأ معه فسألته من فضلك لمن هذا الديوان الشعري كي أشتري منه نسخة.

فجأة قدم لي الكتاب هدية وقال لي:

لاحظت انجذابك له ولا ألومك فهو للشاعر نزار قباني أو شاعر المرأة كما نسميه في بلاد العرب.

عندها دعوته لشرب كأس في الحانة القريبة من المحطة القادمة فقد كان آخر يوم في الأسبوع، لكنه رفض وقال :

لم أشرب الخمر في حياتي قط ولم أرتد أي حانة.

عندها عرفت أنه ملاك لم يفقد عذرية روحه في ملذات الحياة ومفاسدها، فاستبدلت الكأس بفنجان قهوة.

كانت ليال مندمجة كأنها تستمع لعزف إحدى قطع موزارت الخلابة أو بتهوفن الجميلة حتى مدت ماري يدها لتسحب سيجارة من العلبة لتمد روحها بجرعة نيكوتين تعينها على الثواني التي صارت تسير

كالساعات لكن جلال أوقفها قائلا:

لم أعهدك سارقة أيتها الطيبة، وأشاح وجهه باتجاه الساعة وقال:

بعد خمس ساعات سيتصل بنا كي نقله من المطار وأريدك أن تتهيئي للقاء حبيبك.

ماري:

هو لم يتصل منذ الأمس،،، أتصل به أرجوك.

أخفض رأسه جلال دون أي كلام لكنه رفعه ثانية وقال بحماس كاذب:

ألم أقل لك أنه بعد خمس ساعات سيتصل... أتراهنين على ذلك؟

نهضت ماري متثاقلة فأمسكت يدها ليال واجلستها وهي تقول:

أبقي هنا معنا وسنكون معا بانتظاره وسينتهي هذا الكابوس بعد ساعات كما أخبرك جلال.

أرتمت في حضنها وهي تبكي بحرقة وقالت وهي تكسر الحروف بسبب البكاء وأنفاسها المتلاهثة:

قلبي يخبرني أنه ليس بخير.

قلبي...
يخبرني أنه ليس بخير

فتح عينيه ليجد زيد جالسا على كرسي بالقرب منه وهو يغط في نوم عميق، راح يجول بنظره وهو راقد محاولا فهم ما يجري، حاول مد يده ليوقظه لكن لم يكن يملك القوة لذلك فراح محاولا بصوته حتى استفاق وكله فرح رغم التعب الذي يعتريه وهو يقول:

بهمس الحمد لله على سلامتك ستأخذ معك ذكرى على مشاركتك في الثورة.

قال خالد بصوت بالكاد يُسمع:

- ما الذي حصل.

- ألا تذكر ما حصل لك؟

- آخر ما أذكر أني كنت أرمي الحجارة معكم على المسلحين محاولين أن نستعيد ساحة الخلاني.

- يعني لم تشعر بشيء غير هذا؟

- لا!

- كم أنت محظوظ يا أستاذ

- محظوظ... أنت ثاني من يخبرني أني محظوظ في هذا العالم، ولكن أخبرني ولا تماطل لأني أشعر بالتعب الشديد.

- لقد أُصبتَ بطلق ناري فوق القلب وقد نجوت بأعجوبة.

- طلق ناري... وما يصادف اليوم

- الأربعاء.

حاول خالد النهوض لكنه لم يتمكن من ذلك وهو يقول:

الحمد لله أني لم أخلف وعدي لماري، لابد أن اتدبر أمر رحيلي في الغد.

أرجعهُ زيد لما كان عليه وهو يقول:

أي موعد؟... سفرك كان في الأربعاء الفائت أي قبل أسبوع من اليوم.

جن خالد وصار يردد بصوت مرعوب ماري... ماري وزيد يهدئه فتذكر فجأة هاتفه وسأل زيد:

- أين هاتفي؟

- عندما نقلناك إلى هنا لم أجده معك ربما سقط أثناء المصادمة.

- وكيف سأتصل بماري؟

- لا تخف سأذهب وأبحث عنه.

- بعد أسبوع! لابد أن هناك من أخذه الآن.

- لا مستحيل... عندنا في ساحة التحرير خيمة للمفقودات، نسلم ما نجد إليهم وهم بدورهم يحفظون الأشياء ويسلمونها لأصحابها، في الغد سأحضره لك.

- يا ولدي أحضره الآن فهناك من يعتقد أني ميت وقد جن جنونه.

كعادته في تسهيل الأمور وانجازها بسرعة قال زيد أعطني مواصفات هاتفك وبعض العلامات المميزة وسيكون الهاتف هنا خلال نصف ساعة.

تعال...
أتنفس بك الحياة حبا

أغلق جلال الهاتف دون أن ينبس ببنت شفه دليلا على خيبة جديدة تضاف لمحاولاته الكثير ولكن دون جدوى، عندها قالت ماري وهي متوترة:

كنت أعرف أنه ذاهب لحتفه

ردت ليال بسرعة:

قد أبلغنا السفارة الأمريكية في بغداد عن اختفائه ولو كان ميت الآن لأخبرونا، أرجوك تحلي ببعض الصبر والشجاعة واستبعدي هذا الاحتمال تماما.

فتحت يديها حيرة وقال :

إن لم يكن ميتا فأين هو؟ لمَ لَم يصل مع أنه قد حجز تذكرة وقد تأكدنا من حجزه بأنفسنا مما يدل أنه كان ينوي العودة.

جلال:

ربما فاتته الطائرة.

ماري:

وهل أنا طفلة لتقول لي هذا الكلام؟ منذ أسبوع لم يتصل، ربما هو معتقل عند القوات الأمنية.

جلال:

مستحيل... السفارة سألت عنه ولم تجده معتقل أو محجوز.

بعد لحظات من التفكير نهضت من الأريكة وقالت واقفة:

سأسافر إلى العراق وأبحث عنه بنفسي.

نهضت ليال التي كانت تجلس بجانبها فزعة بينما اقترب جلال الذي كان على مسافة مترين منها وقال:

هل جننتِ؟ لن أسمح لك أبدا.

ماري:

لابد أن نبحث عنه هناك حيث ساحة التحرير في العراق.

جلال:

سبق وأرسلتُ من يسأل عنه أكثر من مرة دون جدوى، فمئات الآلاف يتواجدون هناك يوما.

فجأة رن هاتف ماري وكان موضوعا على وجهه فلم تعر له أهمية فما بها من هم يجعلها لا تهتم لشيء غير خالد، عاد الهاتف للرنين ثانية فأسرعت إليه وهي تقول سأكسرك أيها اللعين واضمن عدم نباح رنينك المزعج فصوتك ينهش في أعصابي، فأمسكت بها ليال وهي تقول:

أرجوك الأمور لا تحل بالغضب.

عاد الهاتف ليرن للمرة الثالثة وعادت ماري لكسره فوقف جلال فاتحا ذراعيه مانعا إياها من الوصول للهاتف الذي بيد ليال وقال لها وهي تقف خلفه:

أرجوك ردي على الهاتف أنتِ ولنعلم من قليل الذوق الذي لا يمل من الاتصال في وقت متأخر.

فتحت الخط وقالت ليال تفضل بصوت لا يخلو من الغضب.

بعدها صمتت دون كلام، فالتفت إليها جلال وقال:

ما بالك أصبتِ بالذهول؟ أخبريه أن يحترم نفسه وأن يعاود الاتصال غدا صباحا.

راحت شفتيها ترتعش وهي تحاول الرد لكن دون جدوى فأنزل يديه جلال وأخذ منها الهاتف عندها صرخ بأعلى صوته:

خالد ... أين كنت وما الذي حصل لك.

لم يكن قلبي ليخطأ...
فهو رفيق رحلتك الوفي

التقطت ماري الهاتف غير مصدقة ما يحصل وهي تتلفظ الحروف بحرقة مع الدموع:

لن أسامحك على ما فعلته بي، وأقسم سأطلب الطلاق منك فور وصولك ولن تراني ثانية.

عندها أخذ الهاتف منها جلال بينما راحت هي تلعن وتسب وتشتم وتهدد، واتجهت للدرج للصعود إلى غرفتها وهي تنوي جمع اغراضها ومغادرة المنزل لكنها توقفت في وسط السلم بعدما سمعت جلال يقول:

وفي أي مستشفى أنت الان.

عادت راكضة إلى جلال وأخذت الهاتف منه وقالت:

ما بك يا حبيبي ، هل أنت مريض؟ أجبني أرجوك.

خالد:

وعكة صحية وما إن أتعافى سأركب الطائرة فورا باتجاه المنزل.

سألته ماري بعدما استعادت وعيها وهي الذكية والماهرة في استدراجه:

لِمَ تتصل من رقم غير رقمك؟

خالد:

لا توجد شبكة هنا وهذا هاتف شخص طلبت منه اجراء مكالمة عبر

الواتس اب

عندها أغلقت الخط فأسرع إليها جلال يسألها:

لما أغلقت الخط أريد أن أعرف في أي مستشفى هو، فقالت:

له أصبر قليلا ، سنعرف كل شيء بعد دقائق.

بعد دقائق عاودت الاتصال بنفس الرقم وسألت صاحب الخط بلغة عربية تحتوي مفردات انكليزية عن شخص أتصل قبل قليل عبر خطه عليها فقال:

نعم أنا الطبيب المعالج للسيد خالد وقد طلب الاتصال بكم

فسألته عن مدى اصابته فأجابها:

أنه أصيب بطلق ناري فوق القلب مباشرة وأنه نجى بأعجوبة وهو يحتاج البقاء في العناية المركزة لأسبوع على الأقل، لأنه فقد الكثير من الدماء حتى وصل المستشفى.

عندها صارت تصرخ وتقول:

عرفت أن أمرا خطيرا أخره فقد كان احساسي بمكانه، لابد أن أسافر للعراق وأعود بصغيري سالما.

كيف أغفو...؟
وصغيري ينزف شوقا ودما.

وضعت أقدامها في أرض مطار بغداد وهي تعاني الرعب حد الموت، فشكل العراق في نظر العالم قطعة من قعر الجحيم، دون شعور تأبطت ذراع جلال الذي كان ينوء بحمل الحقيبتين معا، لتعلن عن خوفها الشديد فقال لها مشاكسا:

إذا كنت خائفة بهذا القدر لما أجبرتني على اصطحابك معي في القدوم إلى بغداد.

توجهوا إلى الفندق نفسه الذي سكنه خالد، وكان الطريق من المطار مختلفا عن الفكرة التي رسخت ببالها، حيث كان طريقهما عبر جسر الجادرية وقد تجمع الناس فوق النهر متفرجين على ساحله الممتد تحته بمقاهيه ومتنزهاته الجميلة، فسألت السائق بلغتها العربية الجميلة والتي تحمل موجات صوتية مربعة لا منحنية: هناك شوارع جميلة وسيارات حديثة وجسور كبيرة نسبيا عكس ما يوحي الإعلام، بيوت للتجاوز وأناس فقراء وواقع سيء جدا.

رد السائق:

نعم سيدتي يوجد هنا كل شيء، قبل عام ١٩٨٠ كان العراق يعيش نهضة عمرانية كبيرة حتى أنه تصدر دول العالم لأربع سنوات متتالية كأكبر نمو صناعي، وكذلك تصدر العالم في النمو الصحي والزراعي وفي محاربة الأمية وكلنا يذكر حملة العمل الشعبي لبناء أربعة آلاف مدرسة في عموم العراق في ستة أشهر فقط، أما بعد عام ١٩٨٠ تحول الشعب لمقاتلين وتوجه الشباب

العراقي بل وحتى كبار السن لجبهات القتال، مع ذلك لم يتوقف العمران وأمتد للفن والمسرح والتعليم والصناعة والسياحة والإعلام، فلا ننسى وينسى العالم أن أول من أقام مهرجان يحي تأريخه القديم هو العراق من خلال مهرجان بابل الذي صار يحتضن الفن من كل أنحاء العالم، وصار العراق قبلة للطلاب العرب حيث كانت تُعدُ جامعاتنا من الأرصن عالميا، بدء العد التنازلي في عام ١٩٩١ عندما ضرب الأمريكان كل البنية التحتية العراقية في حرب الخليج الثانية.

قاطعته ماري:

أنتم من غزوتم جارتكم الكويت وكان عليكم تحمل عواقب فعلتكم.

السائق:

لن أدخل معك في جدل سياسي لكن سأخاطبك انسانيا، وأقول لك الشعب لم يغزو الكويت، وهو من نال عقوبة الموت جوعا بلا ذنبٍ ولا جريمة، عندها أنحدر الخط البياني نحو الأسفل ماديا فأضطر الكثيرين لخسارة سياراتهم أو حتى دورهم، ولكن مع هذا كنا نحتفظ بكرامتنا كشعب يقاوم محتلا ويحارب عدوا واضحا، واصلح العراقيون كل ما دمره العدوان الثلاثيني عليه بل وقاموا بإنشاء برج كان الاعلى في وقته عالميا وجسر ذو الطابقين وهو الأول عالميا ايضا من ناحية التصميم حتى جاء عام ٢٠٠٣ واحتل العراق على يد المغول الجدد فتغير كل شيء اختلطت الخنادق وصار العراقي يقتل أخاه بتحريض من تلك الدول التي تكره العراق أرضا وإرثا وحضارة، حصدوا بخبث عملائهم الولاء للوطن وأنبتوا الولاءات لدول الجوار، والبعض صار يسمي الاحتلال تحرير من سلطة الدكتاتورية، بينما يسمي الأخر القوة القادمة من خلف المحيطات قوة غاشمة أحتلت البلد بحجج واهية، بعدها

انقسمت الولاءات المنقسمة لولاءات أصغر فأصغر حتى وصلت للقبيلة أو العشيرة، ووسط كل هذه الفوضى المقصودة ضاع العراق وُنسيَ من الذهنية العراقية لدرجة أن شبابه هاجر في عام ٢٠١٤ في أكبر عملية هجرة عرفها التأريخ باتجاه أوربا بحثا عن بصيص أمل يمنحهم بعض الكرامة والأمان المفقودان في وطنهم، فبعضهم مات غرقا والآخر ماتت روحه خيبة في معسكرات الاحتجاز في الغربة ليتهاوى حلم الحرية تحت مداس شرطة الغرب حيث ظهر الوجه الحقيقي لمتشدقي الحضارة، حتى جاء يوم التحرير فأنتفض العراق كله رافضا سلطة غاشمة اعتقدت أنها لو محت الانتماء من الذهنية العراقية ستكون نجحت في مهمتها التدميرية، لكنها نسيت إن العراق رابضا في القلب ومعجونا في الروح فكانت شرارة صغيرة كافية لثورة وعي هزت أركان منظومة الفساد التي بنوها لسبعة عشر عاما.

تدخل جلال المنذهل من منطق هذا الشاب الرائع وسأله إن كان قد أكمل دراسته؟ فأجابه:

أنا طالب دكتوراه وسأنال الشهادة بعد سنة إن كتب الله لي الحياة.

تدخلت ماري بحماس:

لما التشاؤم يا أخي؟

السائق:

أنا متظاهر أطالب بحقي في إيجاد فرصة للعمل فعاملونا بكل وحشية وكأن همجية الأرض تجمعت بهم، عندها انطلقت شرارة الثورة معلنة أننا لن نسكت بعد اليوم، فواجهونا بالرصاص والقتل القسوة بكل همجية تكشف عن حقيقة مطلقة بأنهم (قتلة)، حاربونا خوفا على منظومتهم الفاسدة من السقوط لأنهم شعروا بنهايتهم، وها أنا أعمل سائق تكسي كي أأمن لقمة

العيش لأمي وأخواتي فوالدي شهيد منذ عام ١٩٨٢ ، وبعدها أتوجه للتحرير كي أرابط مع زملائي المعتصمين حتى نهاية هذه الحقبة الفاسدة من تأريخ العراق.

ساد الصمت السيارة فقطعها السائق قائلا :

أتسمحون لي بسؤال؟ لما تزورون العراق في هذا الوقت الخطير وقد سمعنا تحذيرات الدول الغربية تطالب رعاياها مغادرة العراق خوفا على سلامتهم.

ماري:

زوجي عراقي غادر العراق قبل عشر سنوات وعندما سمع بثورتكم جاء ثائرا معكم وداعما لكم، وقد أصيب بطلق ناري، وها أنا أزور العراق كي أطمئن عليه وأصحبه إلى أمريكا.

نظر اليها السائق بمرآة السيارة وقال لها:

وهل أنت عراقية أيضا؟

ضحكت ماري وقالت:

وهل يبدو علي ذلك؟

السائق:

اللهجة ليست اصلية ولكن مع ذلك ربما انت عراقية امريكية المولد فتغيرت لهجتك.

ماري:

أنا امريكية من أصل بلجيكي.

في هذه الأثناء توقفت السيارة عند فندق الشيراتون وقال السائق (تفضلوا) ، دون شعور سحبت مبلغا كبيرا من المال وقدمته للشاب وقالت هذا

هدية مني إليك، فرد عليها الشاب بعنفوان العراقي وكرم تربيته:

وهل أخذ حق توصيلة من زوجة أخي الثائر؟

ماري:

يا رجل خذ وأستعن بهذا المبلغ حتى تتفرغ لإكمال دراستك.

السائق:

أنت تهينين عراقيتي أختي الكريمة، أنتما ضيوفا علينا ولكما كل الترحيب بأسم زملائي الثوار.

قال جلال بحماس:

أنا عراقي.

السائق:

ولكن لهجتك ليست عراقية حتى أني ظننتك تتصنع اللهجة العراقية وأنت من الشام.

ضحكت ماري وقالت:

زوجته لبنانية علمته لهجتها، أما أنا بلجيكية علمني زوجي التحدث بالعراقية.

ضحك الجميع فقال السائق:

أنا فراس وسأعطيكم رقم هاتفي وستتصلون بي عند ذهابكم للمستشفى.

جلال ولكننا لا نملك خطا للهاتف يعمل في العراق.

فراس:

إذن سأكون في تمام الساعة التاسعة صباح الغد هنا ومعي شريحة هاتف لإحدى شركات النقال في العراق.

أحببتك فتعلمت منك كل شيء
حتى أني صرت نسخة منك

في باب الفندق أشار فراس ملوحا بيديه لهما ليدلهما على مكانه فأسرعا إليه بابتسامتهما قبل رجليهما وسلما عليه بحرارة وكأن الذي بينهما قبل سنوات لا قبل أقل من اثنا عشر ساعة فقط.

فراس:

أي مستشفى يرقد فيها زوجك سيدتي.

نظرت ماري لجلال كي يجيب فقد نسيت هي الاسم، فرد نيابة عنها: مستشفى الكندي يا دكتور.

نظر فراس عبر المرآة التي أمامه له وقال باستغراب:

- أي دكتور يا أستاذ؟

- ألم تخبرنا أنك طالب دكتوراه حاليا.

- نعم فعلت ذلك، لكني لم أنل الشهادة بعد فما زال أمامي أكثر من سنة.

- أنت دكتور بالكرم والأخلاق وهي أهم تخصص ممكن لشخص أن يناله في حياته.

كان الطريق مزدحما جدا لقطع المتظاهرين الكثير من الطرق الحيوية التي تربط جانبي الرصافة والكرخ ببعضهما، وكذلك الطرق الحيوية في المناطق أيضا عندها سألت ماري:

ألا ترى بأن قطع الطرق سيؤثر سلبا على منظر التظاهرات في نظر

المواطنين حيث أنها ستزيد الحياة صعوبة؟

رد فراس وهو يحاول التركيز في الطريق المزدحم فقد تقاربت السيارات حد الاحتكاك احيانا:

لا حل لنا سيدتي، فشلة الفساد لا تفهم شيء غير منطق القوة وها نحن نقطع الطرق كي نشل حركة الحكومة الحالية ونجبرها على الاستقالة وتشكيل حكومة وطنية تحكم البلد وفق معايير انسانية حقيقية وأول مهامها محاسبة قتلة المتظاهرين، ومحاسبة الفاسدين وسراق المال العام.

رد جلال وهو ينظر من زجاج السيارة:

أشك في استقالة الحكومة فذلك يعني صفعة قوية للفساد في العراق، وستقف كل الكتل سندا لها في ظهرها لأنها تشكل سدا منيعا كي لا تنهار أمام طوفان التظاهرات الشعبية.

فراس:

أتفق معك جدا لكن لا سبيل غير الصبر.

ماري:

إلى متى تبقون تتلقون رصاصهم بصدور عارية؟ لما لا تحملون السلاح وتقتلوا من قتلكم.

فراس:

هذا ما يحاولون جرنا إليه (الحرب الأهلية) وهو ما يتمنونه كي يتهمونا بأننا متمردون وخارجين على القانون وبالتالي نستحق القتل، لكننا متمسكون بسلميتنا كي يعلم العالم كله أننا شعب مسالم ومطالبنا مشروعة، ومن ثم يقتنع أننا شعب أعزل ولا سلاح لنا إلا الحق.

أو ليس حبنا لساحة التحرير معجزة

أخرج زيد الملعقة من فم خالد المتعض لعدم رغبته في الطعام، وها هو يحاول ثانية مقنعا إياه بلقمة صغيرة ثانية كطفل متمرد على أمه، لكن الغريب أنه توقف عن مضغ الطعام فجأة دون كلام، كشخص أصيب بجلطة مميتة، بينما راحت بعض الشوربة تنزل من جانب فمه وعيونه مفتوحة على آخرها، مما أرعب زيد الذي راح يكرر:

أستاذ... أستاذ ما بك؟

فأحس بشخص يقف خلفه فأستدار ليعرف من خلفه، فإذا بها سيدة تبكي دون صوت، وقبل أن يسألها أمسكت يده وجثت على ركبتيها وراحت تقبلها وتسقي تلك اليد بدموع الحب والوفاء.

نظر زيد مع من يرافق السيدة الغريبة فإذا بفراس يؤشر له بيده أن تعال إلى هنا، فترك ما بيده وخرج وسأله على الفور:

- من تكون هذه السيدة فقد أخبرني الأستاذ أن لا معارف له في العراق.

- هي زوجته.

- الأمريكية؟

- وهل جاءت من أمريكا إلى هنا؟

- نعم.

- لم يمض على أخبارها الثماني والأربعين ساعة، يا إلاهي كيف جاءت بهذه السرعة، هذه معجزة.

أبتسم فراس واضعا يده على كتف زيد:

(أو ليس حبنا لساحة التحرير معجزة)؟ هو الحب يا صديقي الذي جعلك تترك جامعتك وتعتصم في التحرير، وأن لا تزور مدينتك من أكثر من شهرين والذي جعلنا نعطي أرواحنا فداء لحبنا الأكبر والأسمى (الوطن).

يا مرأة ليست ككل النساء
فكلهن ولدن من أرحام أمهاتهن،،،
وأنتِ ولدتِ من رحم السماء

راح يتأمل عينيها الغارقتين في الدموع وقال بحب:

كل ما شعرت بأني عرفت مقدار حُبكِ لي أتفاجئ أن حبك أكبر، يا مرأة ليست ككل النساء، فكلهن ولدن من أرحام أمهاتهن، وأنت ولدت من رحم السماء.

مدت يدها تتلمس ملامح وجهه التعب واتجهت بشفتيها صوب جبينه لتحجه بقبلة وقالت:

إن مجرد التفكير بإيجاد مقدارا حب أم لصغيرها سيكون ذلك ظلما كبير لما يحمله ذلك القلب الصغير بحجمة الشاسع بسعته، أتعرف ما أشتهيه الآن؟ هو أن أضمك بقوة بحجم عتبي عليك وانا أعد ثواني الاحتراق، وشوقي لك وخوفي... وولهي... وأنا أنتظر منك اتصال يمنحني هدنة مع الوجع الذي لا يمل من شن غاراته علي كل وقت وحين.

رفع نظره إلى جلال الواقف وهو يذرف الدمع صمتا على صاحبه، فمد إليه يده من جهة اصابته فوجعته فركض إليه يمسكها وهو يقول:

ليت الوجع بي يا أخي.

خالد:

لن أجازيك ما حييت يا أخي الوفي، أرجوك سامحني إن أخطأت بحقك.

للعراق وجه آخر
يرسم ملامحه الحب النابع من قلوب طيبة

كان المساء الاجمل بوجود الاحبة حيث تجمع جمهور من المتظاهرين يزورون خالد بينما راح جلال يشاكسهم بطبعه المرح، أما ماري فكانت الأسعد وهي تكتشف أن للعراق وجه آخر غير الموت والتهجير والدمار، وجه ملامحه الحب والفرح وسعادة الطيبين الذين يجدون المتعة في العطاء لا في الأخذ، وهي تراقب هؤلاء الشباب يحيطون رجل لا يعرفونه إلا أيام.

دخل أحد المتظاهرين فجأة وهو يصرخ:

أعلن رئيس الوزراء استقالة الحكومة.

جن الجميع وكل على سيجيته، هذا يصرخ وذاك يقفز وآخر يرقص وآخر يصفق بجنون وآخر راح يسجد لله شكرا لكن جمعهم جميعا تصرف واحد (دموع الفرح)،

كانت ماري تبكي معهم وكأن العراق بلدها أو حبيبها وقد عاد إليها من سجن بعيد، لكنها لم تكن تقفز أو تصفق بل كانت تراقب الجميع بتلك العفوية العجيبة والطيبة التي لامثيل لها، تراقب زوجها وهو يصرخ فرحا وهي تعرف أن الصراخ يوجع جرحه، لكن حتى ذلك الوجع كان متعة لروحه الوطنية وقلبه المتعلق بحب ترابه مهما لاقى منه من تعب وويلات.

هي لم تعرفه مجنونا مرحا كما هو الآن فقد أصيب بجنون حب العراق وهو جنون لا شفاء منه.

أعان الله من رأى عينيكِ ولم يتغزلِ

كان خالد يقف في شرفة غرفة الفندق وهو ينظر لبغداد بعنفوان الحرية، فاحتضنته ماري من الخلف ووضعت خدها على ظهره من الخلف وقالت بعد لحظات:

- لطالما اعتقدت أنك مجنونا بحب العراق وأهله حتى صرت أغار منه بعد تركك لي من أجله.

- وهل تغير اعتقادك؟

- بل تأكد لي ذلك، مع ذلك تغير شيء آخر.

- وما هو؟

- أنا من يحبه الآن بحجم حبك وربما أكثر.

أستدار وراح ينظر بوجهها وقد سطعت عليه شمس العراق وقال لها:

إذن أنا من يغار الآن من العراق، فلا أحتملُ أن يكون حب أحدٍ آخر غيري فيه.

أغلقت ماري نصف عينيها لتتحمل بريق الشمس العراقية وقالت:

قررت تسمية ما بطني بـ(عراق) بغض النظر كان ولدا أم بنتا.

خالد:

عجيب هذا البلد، كل من مر به أحبه، حتى أعدائه يتمنون امتلاكه حبا به.

ماري:

لنزر ساحة التحرير للمرة الأخيرة قبل سفرنا كي لنودع من فيها.

خالد:

قد ودعناهم في الأمس وحملونا بالهدايا التذكارية التي أفرزتها الثورة وثقافتها الوطنية الجميلة.

ماري:

أرجوك يا أبا عراق.

خالد وهو يضحك بصوت عالي:

سمعا وطاعة يا أم عراق، لكن علينا الاسراع في الذهاب والعودة قبل أن يرانا ذلك المدعو جلال فلن يقبل أبدا، كم أستغرب إلحاحه على السفر.

ماري:

لا تلمه فهو يشتاق لزوجته وهي تشتاق له وخصوصا بعدما تلق خبر حملها مؤخرا.

خالد سأتصل بفراس حتى يقلنا بسيارته فلابد أن يكون قريبا.

ماري وبقوة:

لا ...لا فالرجل يرفض أخذ أي مبلغ مقابل خدماته، ثانيا دعنا نستقل عربة الـ(التك تك) ونستمتع بالمنظر.

خالد:

ربما نتأخر على موعد الطائرة.

ضحكت ماري:

وما الجديد في ذلك أيها المخادع.

بعد دقائق كانا يمسكان بيدي بعض وهما فرحين جدا حيث راح يسرد خالد:

بعد أيام من زيارتي للعراق صادف مباراة العراق مع إيران ضمن تصفيات كأس العالم حيث كانت مفردة سعادة تبدو صغيرة جدا على حجم الشعور الذي ملأ روح من في الساحة، حيث جلس الكل على أرض ساحة التحرير زيد وفراس وآلاف من الشباب المعتصم وهم يراقبون المباراة عندما نفذ اللاعب العراقي أمجد عطوان الركنية في الوقت الإضافي للمباراة ليسجل اللعب (علاء عباس) هدف الفوز بمرمى الفريق الخصم فضجت الساحة بالهتاف والرقص المجنون والعناق والصراخ، ولك أن تتخيلي حجم المعنويات المرتفعة.

ازدادت سرعة الفرح بسرعة الـ(التك تك) الذي استقلاه وحركات سائقه البهلوانية في اختراق باقي العربات ظاهرا براعته في المناورة و القيادة.

رفض سائق الـ(تك تك) أخذ أي اجر كحال كل من في التحرير ومحيطها، عندها تأبطت ذراعه وقالت له:

قد ظلمتَ العراق كثيرا في سردك لي قصتك حتى أني تخيلته أكثر رعبا من الجحيم نفسه، لكن ما اراه الآن أننا نعيش الجنة الحقيقية كما وصفها الكتاب المقدس، لا كره ولا بغضاء والكل هنا يحب الآخر، لا طمع ولا طامعين، البنات والبنين معا متحابين بالأرواح لا بالجسد، فكلهم أخوة تجمعهم قضية عظيمة لا رغبات جسدية تافهة، أتعلم يا حبيبي... أنا أحب العراق.

خالد وهو يضحك:

لو كان غير أسم العراق لقتلتك، أما العراق فلا ألومك يا حبي الأوحد.

توقفت لتوقفه معها لأنها تتأبط ذراعه وهي تنظر إلى عينيه وقالت بهدوء وكأنها تتأمل ما قال:

(حبي الأوحد) هل تقصدها أم أنها زلة لسان؟

خالد:

عندما تكونين الماء وأنا سمكة أحيا من فيض حنانك الذي لا ينتهي، عالم شاسع وأنا كل يوم أكتشف فيك شيء جديد، أُماً تعتني بصغيرها ووحيدها، معك أشعر أني طفل في أيدٍ أمينة، حبك أختزل الماضي والحاضر والمستقبل، جنية الأحلام تحقق لي أمنية أمي التي صارت حلما مستحيل، وها أنت تحملين في أحشائك جنينا سيجعل مني أبا بعد شهور، بعد أن جعلتني إنسان يثق بنفسه وحققنا كل ما نحن عليه من نجاح معا، كيف لا تكونين حبي الأوحد وأنت لا تضاهيك امرأة في كل هذا الكون كله.

اندفعت باتجاه حضنه كطوفان من قوس قزح يجتاح لأرض بعد زخات حب، بينما فتح ذراعيه كبيت ينتظر الفجر يطرد الظلام بضوئه، واحتضنها وهو يقول:

أحبك... أحبك

بدأ جسدها الممتلئ قليلا ينزل بثقله عليه بينما راح يمازحها ويقول:

لا تنسي أني في الخامسة والخمسين فلا ترمي بكل وزن جسدك علي فلست شابا أيتها الثلاثينية.

أستمر جسدها بالاتكاء عليه أكثر وكأنها لا تكترث لما يقول فلم يحتمل هو حمل جسديهما معا حتى سقطا على الأرض معا.

أنتم لم تقتلوا نفسا واحدة...
بل قتلتم الحياة كلها

شعر بشيء دبق أجتاح أصابعه وما أن رفع يده فإذا يديه كلها دماء لم يصدق ما راه فراح يصرخ بوجهها:

ماري... ماري... أرجوك اجيبيني

لكنها لم تتحرك ودون أن ترد بل أغمضت عينيها بسلام المؤمن بالجنة بعد موته، جن جنونه فأتجه راكضا وباكيا صوب مجموعة من الملثمين يطلقون الاسلحة النارية وهو يصرخ:

(لما قتلتموها أيها القتلة).

فوجه أحدهم رصاص بندقيته إليه حتى أصابه بعدة طلقات كسرت ساقه ويده وجاء يقف فوقه ينظر إليه بخبث بينما إرتمى خالد على ظهره ووجه للسماء ينظر بوجه من أصابه وقال:

أنتم لم تقتلوا نفسا واحدة بل قتلتم الحياة كلها.

وجه المجرم سلاحه بوجه كي ينهي حياته بدم بارد فأغمض عينيه هو يقول:

أطلق علي النار وأنهي حياتي فما عاد رصاص حقدكم يخيفني، الآن فقط عرفت معنى رصاصة الرحمة، والآن تيقنت أن في الموت أحيانا الخلاص من الألم، أطلق أرجوك فبعد ثوان ستمنحني أملا بلقاء أمي التي اشتقت لها ولرائحة حضنها، وزوجتي التي كانت وعالمي وطفلي الذي لم أره بحياتي أبدا ولا أعلم حتى إن كان ولدا وسيم أم بنتا

بضفائر جميلة.

أغمض عينيه وشعر بأمان أسفلت الساحة يضمه، شعر بعنفوان كبير وهدوء، وهو يسمع هدير صوت الشباب صارخين:

(بالروح بالدم نفديك يا عراق)

بينما راح يرتج قاتله من ذلك الموج الهادر الذي لا يهاب الرصاص المتوجه نحوهم، كانوا شهداء حقيقين قادمين نحو الموت بإرادتهم لا مجبورين، كانت الأرواح تغادر الأجساد لكنها لا تغادر ساحة التحرير لأنها تنتظر بفارغ الصبر

(ساعة التحرير)

التحرير وطن

ضرغام علاوي